ملائكة الزمن الرديء

(رواية)

هالة عيد



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : ملائكة الزمن الردئ .. رواية

المؤلف : هالة عيد

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي:



الطبعة الأولى ٢٠١٦

إهداء

إلى فارس الأسطورة القديمة
الشاطر حسن

مقدمة

قد يجد الإنسان نفسه فجأة فى بؤرة حدث ما دون ترتيب منه

قد يكون سعيداً وقد يكون غير ذلك

قد يهتم به وقد لا يلتفت إليه من حال الأصل

وقد يكون حلمه الكبير الذى عاش العمر ينتظر أن يتحقق

ســاعتها فقط يبذل الإنســان حياته فداءً للحظة واحدة قد تبقيه

يطلق البعض لفظ « صدفة» على هذا الحدث

ويفضل آخرون لفظ « ظروف»

والحقيقة أنه ليس هناك ما يسمى بالصدفة

رغم ما بكل هذا اللفظ من رومانسية وعذوبة

أيضاً لا ظروف رغم ما بتلك الكلمة من واقعية وصدق

إنما هو قدر سطر على الإنسان منذ الأزل

الفصل الأول

هي والمساء

يجثم الظلام فجأة على المكان، بينما تنتفض مذعورة يتملكها الرعب، حين يتعالى صوت يناديها من أعماق بعيدة، جعلت تصيخ السمع منهارة، تعصر ذاكرتها الهشة، تحاول جاهدة إزاحة ذلك الكم الضخم، من ركام الأصوات المألوفة لديها، حيث يكمن هذا الصوت فى بؤرة الذاكرة، منذ أمد بعيد لاتدركه على وجه الدقة.

يعلو الصوت ويقترب شيئاً شيئاً، مُحدثاً رنيناً برونزياً، كأنه يصدر فى مساحة جوفاء، يتداخل الصدى بالرنين، يطن فى أذنها بشدة، يكاد يصمها ذلك الصوت المبتكر من تداخل الرجع المريع!

تزداد رعباً، تدور يمنة ويسرة تنظر فى كل اتجاه حولها، تصطدم عيناها بظلام دامس لا تسمح ذراته المندمجة برؤية أى شىء حتى موضع قدمها، يعلو الصوت اكثر ويقترب ضجيج الرجع أكثر وأكثر.

- أميييرة! أمييييرة!

تهيأ لها أن الصوت يصدر من تحت قدميها، فأخذت تنتفض بشدة، وتتحسس الأرض بأقدامها المذعورة.

تنشق الأرض لتوها عن بئر عميقة لم يُر قاعها، بينما ينقشع الظلام قليلا ليحل ضباب كثيف قاتم، بيد أنه يسمح لها على أية حال بمحاولة الرؤية، تثبت عيناها صوب شبح عملاق فى قاع البئر، يمد ذراعيه الطويلتين نحوها.

- أميييرة! أمييييرة!

يعلو الصوت لدرجة تفقدها السمع لحظات، ثم يَخفُت من جديد إلى درجة تجعلها تكاد تهرع إليه دون تفكير، يمر وقت طويل والصوت يعلو ويخفت، تكاد تتهاوى إلى قاع البئر مرات، فجأة يصمت الصوت ويتوارى خلف الضباب الكثيف القاتم، الذى يلف المكان على الدوام.

رويداً رويداً يتراجع الصدى ويهدأ المكان المرتج وتهدأ معه أميرة، يسود السكون مليا، ثم يتهادى الصوت مجدداً من البعد خفيضاً حنونا، بينما أميرة واقفة بحافة البئر لم تزل.

ذلك الصوت تذكرته الآن فليس لشبح بالتأكيد، إنه هو ، نعم هو ، أحن صوت مر بأذنيها، لكنه مختلف هذه المرة، فيه بعض الرهبة، ويبعث فى النفس الخوف، تشرد قليلا ثم ترد بلهفة:

- جدتى! جدتى!

يعاود الصوت نداءاته مهللاً:

- أميييرة! أمييييرة!

وتجيب أكثر لهفة:

أنا هنا يا جدتى، أنا هنا، هنا.

تتلألأ العبرات فى عينيها، ويزداد الصوت علواً مثيراً أشجانها.

- أميييرة! أميييرة!

- اشتقت إليكِ كثيراً يا جدتى، لم تركتنى وحدى؟ لقد تعذبت بعدك!

وتنخرط أميرة فى بكاء طويل، وهى تتمنى لو ترتمى فى حضن جدتها الدافىء.

- تعالى يا أميرة! تعالى إلى جدتك! لا تخشى شيئاً يا نور عينى.

يمد الشبح الواقف بالقاع ذراعيه، فارداً أصابع كفيه عن آخرهما وينادى، وتمد أميرة ساقها إلى داخل البئر، تنزلق قدمها تصرخ بأعلى صوت.

تستيقظ من نومها وهى تصرخ، لتكسر حاجز السكون المخيم على على سـماء الغرفة، تجلس القرفصـاء فى فراشـها مذعورة بينما تجذب طرف الغطاء إلى صدرها بطريقة هيستيرية، كأنما تتخذه درعاً واقياً ضد هجوم شئ ما.

تتعا قب على وجهها ألوان الطيف، بينما اضـطر بت ملامحها المكسـوة بمسـحة حزن عتيد، كا لذى يُعرف فى وجوه الثكالى والمظلومين، ظلت عيناها الرماديتان النجلاوان تائهة القصـد بين مواكب الأحزان، المارة أمامها حاملة تلك الرؤيا المرعبة.

ما كان يجب عليها أن تنام بعد الظهر، بل ليتها لا تنام ابداً، فلم تعد تحتمل تلك الرؤيا، إنها تهد أعصابها وتفسد مزاجها أكثر مما هو.

تذكرت فجأة ودون مبرر أيام كانت فى الصـف الأول الثانوى، فتاة صغيرة تحلم بأ شياء جميلة وبسيطة، سمعت عن أفلاطون آنذاك لأول مرة فى حياتها، ومدينته الفاضـلة حلمها الأكبر دون أن تدرى لكنها لم تكن تسميها كذلك، ربما لم يكن عقلها الصغير قادراً على استيعاب تلك التسمية وقتها، تذكرت يوم أن بدأت تدون خواطرها.

مخلوقة تبغى الحرية

تنبض بالحب

أُسرت فى طور البشرية

يا ويح القلب

تحلم بالدنيا الوردية

خارج أسوار الأنانية

وبحار الذنب

تقسم بآيات كونية

ستحطم أغلالاً عُرفية

وتقود ثورة وردية

من أجل الحب

« يااااه! كانت أيام!» تهمس شاردة ثم تطبق شفتيها على بسمة موؤدة.

تشــتد الريح قليلا فتهتز صــفـحة النهر فى دلال بديع، وتتراقص الأمواج الهادئة بين ضفتيه، تزف قدوم المساء وتبشرها بأوقات رائعه معه! رائعة؟!

تتنبه على نفس الصوت المنبعث من المسجد يقيم الصلاة، تدخل لتصلى.

وقت يسير ثم عادت إلى مجلسها بالشرفة، هائمة بكل ذرة فى كيانها مع هذا الجو الساحر، تدق الساعة السادسة ويدق معها جرس الهاتف، القابع فى حيز ضيق جداً على الرف الأوسط لمكتبتها الصغيرة الرابضة فى أحد أركان الغرفة، بيد أنها كعادتها لم تعبأ بالرنين، من عساه يكون المتصل، أليس واحداً من هؤلاء البشر الذين تتجنبهم قدر إمكانها، لابد أنها الخالة سميرة وقبل أن تسأل والدتها، تقتلها غيظاً و ضيقاً بأسئلتها الساذجة عن صحتها وأحوالها، وكأنها محور اهتمام الجميع بعد تلك الظروف التى ألمت بها، وكأن صحتها ونفسيتها لا يرجى لها صلاح، ومن ثم يُغدق الحميع عليها بمشاعره النبيلة وأمنياته الصادقة، أو حتى غير الصادقة بالشفاء وراحة البال، لقد ضاقت بالدنيا ذرعاً بسبب هذه الشفقة القاتلة ،وربما الزائفة التى ترتسم فى عيون الأقارب والمعارف، باتت لا تحتمل كل هذا الكم من الآلام، ليتهم يدخرون مشاعرهم تلك لأى إنسان آخر، ليتهم لا يسألون عنها أبداً!

« ليتنى أموت حتى أستريح من هذا العذاب!» تمتمت وهى تنشج عالياً.

تعود وتتنبه مع رنات الجرس الطويلة المتلاحقة، وقد عاود الرنين مرات الإعلان عن أهميته بإصرار غريب فلم تجد بداً من الرد، هى تعرف من تلك الرنات المعينة أنها مكالمة خارجية، فقد تكون مهمة أو

حتى غير ذلك، المهم أنها تستريح من ذلك الصوت البشع، الذى يضرب رأسها كالزلزال، لدرجة أنها تشعر بارتجاج مخها داخل صندوقه العظمى كما لو كان بيضة فاسدة، غير أنها حينما وصلت إليه كان قد تعب من الرنين فسكت من تلقاء نفسه.

« لو كانت مكالمة ضرورية أكيد المتصل سيكرر المحاولة» قالت غير مبالية، وبينما تهم بالرجوع استوقفها نفس الرنين الطويل المتلاحق.

- أحلام!

- من كنت تظنين إذن؟ اعترفى فوراً.

- لست حمل مداعباتك اليوم.

لم يكن غريباً على أحلام أن تشعر فى كلام أميرة ببعض المرارة والأسى، فهى أدرى الناس بصديقتها وتوءم روحها، كما تناديان بعضهما البعض منذ أدركتا الحياة، فقد تعودت ذلك منذ فترة ليست بالقصيرة، لكن الجديد فى الأمر أنها شعرت فى تلك اللحظة تحديداً أن حزنها أكبر كثيراً من أى وقت مضى، حتى أيام حزنها الأول، ولكنها لم تجد بداً من التغاضى عن الغوض فى ذلك، حتى تُعيد لها الآلام وتقلب عليها المواجع، وهى الآن تحاول أن تكمل مكالمتها التى تجريها من

القاهرة بعيداً عن هذا كله، تقرر على الفور الخروج عن صمتها المفاجئ.

- أين كنتم؟ فأنا أتصل من فترة.
- لا أحد هنا غيرى وبصراحة تكاسلت.
- هكذا أنت دائما كسولة.. كان الله فى عون من أنت قدره!
- هكذا يا أحلام؟ يا نصفى الآخر؟ لن أكلمك بعد الآن.

«أنا عيلة ورجعت فى كلامى» أسرعت أحلام لتقول.

«مخصماكى.. متحوليش» قالت أميرة فى دلال تعشقه فيها أحلام.

«وأنا الكسولة والمملة» أردفت أحلام مؤكدة.

«أهو كدا ناس تخاف ما تختشيش» قالت أميرة بصوت فيه بعض المرح، وطعم الضحك الذى بات غريباً عليها ثم أردفت أكثر مرحاً: «اذهبى فقد عفوت عنك أيتها البائسة».

تنجح أحلام كما هى عادتها دائماً، فى أن تزيح بعض ما يطبق على صدر أميرة، تضحكان من قلبيهما، فبينهما صداقة عمر وحب لا ينضب ،مهما اشتدت قسوة الخطوب، فقد ولدتا فى يوم واحد وتربتا معاً ،ولم يفرقهما شئ مهما كان على مر الأيام.

«ممكن نتكلم جد شوية؟» قالت أحلام بنبرة منخفضة أقلقت أميرة جداً، وجعلت ترجوها أن تتكلم بـ سرعة، فـ سارعت أحلام تطمئنها بأنه لاشئ يقلق مطلقاً، وأنها أرادت فقط أن تُسدى لها خدمة.

- أنت تأمرين يا غالية!

- إسلام أخى.

تـ ضطرب اميرة وترجوها مجدداً أن تتكلم، فلم يعد لديها أعـ صاب تحتمل مثل هذا التوتر والتقطير فى الكلام، فقد ظنت أن إســلام يعانى من مشكلة ما كعادتة.

- نحن بخير حبيبة قلبى صدقينى، فقط أريد بعض النقود من إسلام، وحاولت الاتصال به طوال اليوم لكنه لم يكن موجوداً بالسكن.

تعلم أميرة أن المدينة الجامعية تغلق أبوابها فى الثامنة تماماً، وأيضـاً لا يسـمحون لهن باسـتخدام التليفون مهما كان السـبب، ولقد تأخرت أحلام فعلاً بالخارج ويجب أن تعود حالا.

- وما بوسعى فعله يا أحلام؟

- اتصلى بإسلام فى السكن بعد العاشرة، فهو يتواجد فى هذا الوقت.

- إسلام أخى مثلك يا أحلام... لكن.

- لكن ماذا؟

- أقصد أن معه بالسكن ناس غرباء.

- أعرف أن توءمى خجو لة جداً، لكنهم أطباء محترمون، ثم إنهم نادراً ما يتواجدون فى السكن، فهم مشغولون بعملهم طيلة الوقت.

- أمرك يا توءمى المتعب!

ما تكاد أميرة تعود لمجلسها بالشرفة حتى عاود الرنين كرته، لكنه هذه المرة جرس الباب.

« يبدو أنه يوم الرنين العالمى» تمتمت وهى تمشى متململة صوب الباب.

وترتاح نفس أميرة القلقة جداً على جدها المريض، برؤية علامات السرور على وجه والديها لحظة دخولهما، لكنها لم تستطع أن تبتلع سؤالها الملهوف عنه، والذى تجيبه الأم مبتسمه بأن صحته قد تحسنت كثيراً وتردف مسرعة «على فكرة جدك يريد أن يراك وغضب لأنك لم تذهبى معنا، وأيضاً كل الجيران والأهل هناك سألوا عنك، وأرسلوا لك السلام معنا، خصوصاً طنط سعاد، أمك الثانية».

لا بد أنهم جميعاً سيسألونها نفس السؤال، وتلمع أعينهم الطيبة متطلعة إلى جواب يقنعهم، فهم لم يقتنعوا بعد ولم يفهموا سر مرضها الدائم وعذابها المقيم، لكن لا بأس فحقاً قد ا شتاقت إلى جدها وجدتها و كل الناس الطيبين بالقرية، لدرجة لم تعد تستطيع مقاومتها، حتى السواقى والحقول والترعة الصغيرة، التى كانت تركض على ضفتيها فى طفولتها الأولى، تربت هناك بين هذه الأشياء الطاهرة والناس الطيبين، ا لذين أحبتهم أكثر من أى أ ناس آخرين، وأحبت القر ية أكثر من أى مكان آخر فى الوجود، حتى المدينة الهادئة الرابضة فى حضن النيل الجميل التى أكملت بها سنوات صباها وفجر شبابها.

تشتد الرياح بالخارج حاملة بعض الصقيع، الذى يتسرب خلال فراغات الـ شيش الـ ضيقة، وتـ سرع الأم لإغلاق زجاج النوافذ، وهى فى طريقها إلى المطبخ لإعداد وجبة العـ شاء، بينما يزفر الوالد قرفاً من تلك الأخبار السيئة التى يبثها التليفزيون ليل نهار عن الحرب ا لدائرة فى الخليج.

- مؤامرة! نجح الأمريكان فى ضرب بعضنا ببعض، ثم دخلوا فى الوقت المناسب.

- وما مصلحتهم فى ذلك؟

- ثروتنا يا ابنتى، البترول، وذلك لن يكون إلا بالهيمنة الكاملة على المنطقة.

- ولم العراق بالتحديد؟

- النظام العراقى هو الشوكة التى فى ظهورهم ،و كل حلمهم أن يقضوا عليه.

وقبل أن يكمل الأب كلامه قاطعته من دون قصد قائلة « ولكن رئيسه غزا الكويت وهو بلد عربى شقيق بلا مبرر».

- تلك هى سقطته العظيمة حقاً.. غلطة عمره كما يقولون.

- وها قد دفع ثمنها غالياً.

- فى الحقيقة شعبه هو الذى يدفع الثمن، بل نحن جميعاً كعرب ندفعه من كرامتنا وكبريائنا.

ران صمت مفاجئ، وأخذت أميرة تحدق فى المشاهد المعروضة ، على شاشة التليفزيون لأماكن عديدة فى دولة الكويت.

« جميلة هى الكويت يا والدى! جميلة جداً!» تهمس بحزن وهى تتأمل تلك الأماكن.

يسترجع الأب سنوات طويلة مضت عندما كان معاراً هناك وأميرة مازالت فى « اللفة»، كانت بلاد جميلة جداً ونظيفة جداً كانوا يســمونها لؤلؤة الخليج، و سمع من زملائه الذين أعيروا هناك بعدها أنها صارت أجمل وأجمل!

- إنها بلاد غنية ويحاول أهلها محاكاة دول العالم الأول، من حيث التقدم والمدنية، ولو أنها دولة حديثة فى عمر التاريخ.

- والعراق؟

- بلاد الرافدين دجلة والفرات؟ إنها بلاد عريقة ساحرة ذات حضارة عظيمة كحضارة بلدنا تماماً.

« درســت شــيئاً عن ملامح تلك الحضــارة العريقة، وشــئ خفى جعلنى ارتبط بها وأعشــقها عشــقى لحضــارة أجدادى الفراعين» قالت بلهفة قبل أن يهم بالسكوت.

- من فضلك يا والدى كلمنى عن هذه البلاد وتلك الحضارة أكثر.

علت وجه الأب علامات الزهو والفخار، ثم أوجز قائلاً «هى بلاد عريقة ورائعة بمعنى الكلمة!».

لكن الابنة المرهقة على الدوام لم ترد أن تكتفى بهذا القدر، من هذا الحديث الممتع الذى يروق لها، وظلت تبتكر الأسئلة وتخترع الحوادث المتشعبة، والتى تصب جميعها فى مجرى ذلك الحوار الذى تود ألا ينتهى أبدا.

- سمعتك مرة تتحدث عن كره اليهود لهذه البلاد.

- اليهود هم أصل الشرور والخسة، والحقد الصهيونى على العراق قديم قدم الزمان والتاريخ، والثأر موروث عبر الحقب!

- الثأر؟!

وران صمت مفاجئ مرة أخرى عاد منه الأب قائلاً « نعم يا بنيتى، ثأر السبى البابلى» وجعل يضغط على جبهته بكف يمناه.

« العشاء جاهز» قطعت الأم عليهما ذلك الحديث ذا الشجون، بينما توالت أنباء الحرب الضروس، التى غلب عليها تقدم الفريق الأمريكي بآلياته ومعداته العسكرية المتطورة.

« ما ذنب الأطفال يذوقون مرارة اليتم هكذا؟ ما ذنب النساء يترملن؟ ما ذنب الشعب كله يتحمل مرارة الحرب؟!» تهمس الأم وقد لمعت العبرات بعينيها الزرقاوين الرائعتين، وهى ترص أطباق الطعام على المائدة.

« قلبى لا يحتمل فأنا أم وما لا أرضـــاه لبلدى وأولادى لا أرضـــاه لغيرى، كان الله فى عونهم! حســبنا الله ونعم الوكيل!» تردف الأم غارقة فى دموعها.

ومع دقات العاشرة يخلد الأبوين إلى النوم كعادتهما فى ليالى الشتاء، بينما تســتعد أميرة لتســتكمل ســهرتها فى غرفتها كالعادة، تكتب بعض الخواطر التى تلح بها، أو تقرأ على أنغام مو سيقى « لاف ستورى» التى تعشقها، كما تعشق السفر عبر بحور الشعر الرقيق، والتريض فى جنان الأدب الرومانســى الناعم، العربى والمترجم عن لغات أخرى على حد سواء.

تقف أمام المكتبة تنتقى كتاباً تقرؤه، تفتش يدها هنا وهناك بين رفوف وزوايا المكتبة، دون أن يقع اختيارها على كتاب معين لفترة طويلة، فى لحظة تنتهى كل هذه الحيرة وتمسك بكتابها المختار، تسند رأسها إلى الوسادة ثم تهيم فى عوالم أسطورية مبهرة.

اليوم تشــعر أنها تريد أن تقرأ شــيئاً مختلفاً، لا تدرى لذلك ســبباً، لكنها لا تعارض أيضاً تلك الرغبة الخفية مجهولة الدوافع، ففى النهاية ستُمتع عيناها وقلبها وكل حواسها بقراءة شئ رائع.

« مرتفعات وذرينج! إميلى برونتى..اوه! كم أحبها! رقيقة وشفافة! أشعر أننى سأموت فى مثل عمرها القصير، ليته يكون!!» تتمتم شاردة.

تقلب يدها فى رف آخر:« بين الأطلال» جميلة! غيره« تهمس وهى لا تتوقف عن التقليب فى الكتب » ذهب مع الريح! سكارليت أوهارا! آشيلى! الحب الذى ضاع، الحلم الذى تبدد وذهب مع الريح».

يبدو أخيراً أنها ستنهى حيرتها فوراً، تصطدم أصابعها بالمجموعة الكاملة لشكسبير، وهى تقصد الإمساك بواحد من كتب الشعر القديم تحبه كثيراً، تزيح تراكم الكتب من فوق كتابها المختار، بينما ينفلت من يدها ليستقر على الرف الأوسط ، يختبىء بين أشياءها الطفولية الأثيرة، تنسى فى لحظة كل ما كانت تبحث عنه، وتقف تلهو بلعبها ودماها الجميلة، تتنبه على دقات الساعة تعلن الحادية عشرة، تضع الأشياء مكانها وتلتقط كتابها، الذى توارى قدره لديها تحت ركام طفوليتها الغامرة، تقع عينها فجأة على الهاتف القابع وسط هذه الأشياء بالمكتبة.

« أحلام! كدت أنسى، بل نسيت بالفعل، سامحينى يا حبيبتى سأتصل فوراً» جعلت تحدث نفسها لائمة.

لم تتذكر وهى تجلس فى فراشها ممسكة بالهاتف، أين وضعت تلك الورقة الصغيرة، التى كتبت فيها الرقم..تشرد قليلاً.

« أين؟ أين؟» ظلت تعصر ذاكرتها، ولكنها قد تذكرت فى النهاية أنها تحت الوسادة، فصاحت كطفل عثر بعد يأس على لعبته الضائعة.

مرت بعض الدقائق وهى مترددة، ترفع السماعة وتضعها فى توتر وقلق، كأنها ستلقى بنفسها فى بحر ليس له قرار.

« إسلام أعرفه، لكن ماذا لو رد شخص غيره؟ هل أستطيع أن أبدو طبيعية أمامه؟ هل أتماسك للحظات ولا أبدو مهزوزة؟ مهزومة؟ هل سيعرف من أنا؟ هل يعرف قصتى؟ هل سيكون لطيفاً معى أم يضيف إلى أحزانى وجراحى كماً جديداً؟ وهل فى هذه الدنيا إنسان واحد يفهمنى؟ أشك!

لا، لن أتصل، لكنى وعدتها» جلست تحدث نفسها فى حيرة وقلق!

لم يكن إسلام هو الطرف الآخر بالفعل، تصمت قليلاً قبل أن ترد عليه، ثم تهمس بحذر متسائلة عن إسلام، ويخبرها صاحب الصوت أنه لم يعد بعد، ثم يستأذنها فى ترك رسالتها إن لم يكن لديها مانع، ترحب بالفكرة فهذا سيعفيها من حرج الاتصال مرة أخرى، وبخاصة أن الأمر ليس سراً من الأسرار الدقيقة، لكن يبدوا أيضاً أن المسألة لن تمر بسلام كما توقعت.

شــئ ما فى هذا الصــوت يجذبها بكل كيانها نحوه، هدوء غريب ولطف راسخ بهذا الإنسان قلما صادفته فى بشر، دماثة خلق زائدة جداً تتضح فى طباعه، شئ رائع به، من تلك الأشياء التى يُحلم بها فى فارس الأحلام، صوته الدافئ ينفذ عبر كل الحواجز ليستقر بأعماق روحها.

تحاول التغاضى عن هذا الإحساس العابر، الذى لم تجربه فى حياتها قط وإنهاء الحوار، كعادتها دوما فى مثل هذه المواقف، تعارضــها رغبة جارفة، وعلى غير العادة فى اســتمرار الحديث، بل واختلاق كلمات قد تجعله أكثر تشعباً، فيطول إلى أقصى ما يمكن.

« حضرتك زميل إسلام بكلية الصيدلة؟» قالت دون ترتيب.

«كلية ماذا؟ آه، أقصد لا فأنا تخرجت فى كلية الطب» رد دون ترتيب أيضاً.

كان الوحيد فى الأطباء الأربعة الموجودين مع إســلام فى الســكن، الذى حصل على التخصص، أما الثلاثة الباقون أطباء إمتياز لم يزلوا.

« آسفة لازعاجك يا دكتور!» همست خجلى مرتبكة، فقد تكون قد تطفلت عليه

« عماد عبد الفتاح »، «طبيب أطفال» قال مسرعاً.

« حديثى الولادة» استدرك موضحاً على وجه الدقة.

« من الفيوم» أكمل مجيباً دون أن تسأله.

- أكرر أسفى يا دكتور عماد!

- لاشىء مطلقاً، بالعكس فقد اسعدتنى محادثتك يا آنسة...

- أميرة محمود، صديقة أحلام، بلديات وأقارب.

« ما هذا يا أميرة؟ هل نسيت نفسك؟» فجأة تهزها رعشة شديدة وتهمس فى نفسها سراً.

تحاول أن تنسحب بلطف، بيد أنه يستمر فى رغبته العارمة فى الحديث معها، مؤكداً أنه لا يصدق هذا الذى يجرى، فلم يحدث له من قبل أن تغزوه رغبة ولو طفيفة فى التمادى مع ضيوف الهاتف، وهنا كان ينبغى أن يقول الغرباء، لكنه لم يستطع التلفظ بها، هو لم يشعر أنها غريبة عنه كما لم تشعر هى تماماً.

وفى غيرما قصد تشعب الحوار بينهما، كأنهما يعرفان بعضهما منذ أدركا الحياة، لم يدعا موضوعاً إلا وطرقا بابه ولو للحظات قليلة، ودون أن تدرى تركت العنان لمشاعرها تجمح بها حيث تشاء.

إنسان لطيف ومثقف ،يجيد تصويب الكلمات. فتنفذ إلى القلب فى سرعة البرق، بلغت سعادتها مداها وهو يلقى عليها بعض أبياتٍ من الشعر « ريم على القاعِ بين البانِ والعلمِ...».

فى البداية تخيلت أنه لا يحفظ سوى هذا البيت الأول، الذى هو أشهر من النار على العلم، ولكن المفاجأة التى أذهلتها، وجعلتها تذوب فى بحر لانهائى من الخيال، عندما أتبع هذا البيت بعدد كبير من الأبيات التى تليه، يصل إلى نهاية البيت العاشر « ورُبَّ فضلٍ على العشاقِ للحلمِ».

« أحقاً هذه هى الأبيات التى أحفظها عن ظهر قلب، كيف لم أشعر أنها بكل هذا الجمال والرقة من قبل! لا، لابد أنها غيرها، مؤكد غيرها».

تتنبه على صوته الدافئ يحدثها، تستحسن ذلك جداً وتبدى إعجابها، الذى يفوق الوصف بإلقائه الأكثر من رائع الغاية فى الدفء، لم تكن تتوقع أن لديه تلك الميول الأدبية، والتى تتعارض فى ظاهر الأمر مع طبيعة عمله كطبيب، فليس للكلمة مكان بين تلك الأدوات الحادة التى يستخدمها، والمشاهد المأساوية التى تطالع عينيه كلما غدا أو راح، إلى جانب وقته المضغوط بطبيعة الحال، والذى لا يسمح له بالاهتمام أو التفكير فى غير عمله، فإذا ما فكَّر فى القراءة، لابد أن يقرأ كتاباً فى الطب أو بحثاً جديداً فى مجال تخصصه بلا ريب.

الأغرب من هذا كله، أنه أيضاً ينظم الشعر إلى جانب عشقه وتذوقه لأشــعار الأخرين، كذلك وبنفس العشــق يطرب للنغمات العذبة والصوت الجميل، ويذوب عشقاً للطبيعة وكل ما هو جميل فى الوجود.

كل هذا جعلها تؤمن بتفرده وتميزه عن سائر البشر، الذين يعيشون حولها فى هذا العالم، وتصادف الكثيرين منهم، دون ان يتركوا على أيامها أدنى بصــمة ويمرون مر الكرام، الأن تؤمن بأنه عينه الذى كانت تبحث عنه فى كل هذا الكون الفسيح.

كأن رباطا قوياً امتد بينهما فى التو واللحظة، وتمنيا لو ان هذه الصلة التى تولدت اليوم عن طريق المصادفة تدوم للأبد، لم يزل للحديث بقية رغم امتداده لساعات، تواعدا أن يكملاه قريباً، قريباً جداً.

وبينما شــعور وليد بالفرح بدأ يطرق قلبها، تكاد تفتك بها فى ذات الوقت هلاوس قاتلة، أمســكت بالقلم هرباً من تلك الهواجس، وجعلت تسطر ما يدور بأعماقها المضطربة الراعدة.

دعنى

دعنى أُمزق أحلامى وأنثرنى

لاتجمعنى

لاتعزف على أوتار جراحى

لحناً ضيَّعنى

قد عشتُ العمرَ أعزفهُ

للدنيا هباًءً ويعزفنى

يا صديقى

ضن الزمان بمَن يسمعنى

فلست بسامعةٍ أبناء الزمان

يا صديقى

حطم قيثارتك فأذنى

قد جهلت وقع الألحان

يا صديقى

لستُ أنا مَن ترجو

فقد ضللت العنوان

يا صديقى

يا صديقى ألف معذرةٍ

ما عدت أجيد نسج الأمال

يا صديقى

تاه المنى منذ زمنٍ

على دروب الترحال

يا صديقى

وهنت أحلامى فلا تقوى

على تسلق المُحال

يا صديقى

أتيت روضةً أقفرت

وأفناها الذبول

فضل مَن ينشد للصمتِ جواباً

ويبغى حياةً بين الطلول

يا صديقى

يا صديقى باختصار

ارحل

لقد عشقتُ الأفول

الفصل الثاني
شيء اسمه الحب

يتبدل حال أميرة كليةً بعد هذا الحوار، الذى لم تكن تتوقعه، ولم يجل بخاطرها يوماً حدوثه، تتغير الدنيا، وتتلون الأيام فى عينيها الرماديتين الساحرتين، ينقشع شيئاً ذلك الظلام الكثيف، الذى يغلف عمرها ، الذى لم يتجاوز التاسعة عشر ربيعاً، تشعر أنها تريد أن تغنى، ترقص، تفعل أشياء لم تكن تفعلها منذ زمن ليس بالقصير، تقف أمام المرآة ملياً تتأمل ملامحها، كأنها تراها لأول مرة فى حياتها، أو كأنها تُعيد اكتشاف جمالها من جديد، ملامح جميلة حقاً متناسقة، لكنها حزينة أبداً.

كل هذا الجمال مدفون تحت هذا الكم الرهيب من الكآبة والحزن، لابد لها أن تعتنى به، نعم لقد جاء وقت ذلك، لابد أن تضحك فى وجه الحياة حتى تضحك لها الحياة، لا بد أن تخرج من عزلتها، ولكن كيف؟ ليس لديها القدرة على ذلك، وما الداعى؟ هل هو هذا الإحساس الذى مس شغاف قلبها مؤخراً؟ هل الحياة فعلاً جميلة بهذا القدر وهى لا تدرى؟ ليتها قابلته منذ عامين أو ثلاثة، قبل أن يُدفن حلمها وتطحنها رحى الأقدار على هذا النحو، قبل أن يذبل هذا العمر النضير والجيد الممشوق، قبل أن يتوارى ذلك الوجه الأبيض المستدير، تحت ركام

الأحزان وتزوغ تلك المقلتان الرائعتان، قبل أن تيبس الإبتسامة على ثغرها القرمزى الرقيق وتطأطئ أرنبة أنفها الشماء تلك الأحداث القاسية.

ليتها عرفته أيام كانت مرحة منطلقة كالعصفور، تحمل حلماً أخضر بسيطاً بين جوانحها، وتطير إلى عالم الملائكة، تقلب ناظريها فى سماء خالية من الضباب، تنقب عن فارس أحلامها القادم على الحصان الأبيض.

خيال جميل تؤمن به وتقدسه منذ نعومة أظفارها، هى على يقين من أن جدتها حين حكت لها فى ليالى الشتاء الدافئة عن «ست الحُسن» و«الشاطر حسن» كانت صادقة، لم تخدعها، هى تعرف ذلك جيداً.

ماتت جدتها وهى نبت أخضر لم تزل، ماتت وهى على ضلالها القديم الواهى، ماتت مبكراً قبل أن تخبرها بأن أقاصيصها الجميلة، ما هى إلا حواديت ساذجة، منسوجة بعناية لمداعبة خواطر الملائكة الصغار!

صغيرة جداً كانت وقتها، لم تخط خطوة واحدة نحو الخامسة، لكنها تذكرها جيداً رغم هشاشة الذاكرة وضبابية الخيال آنذاك،

محفورة ملامحها الدقيقة، رائعة الحُسن فى قلبها، مطبوعة كالوشم فى عمق عينيها!

وجه شديد البياض مشرب بحُمرة، لم تجرؤ على محوها فرشاة السنين، تكسو ملامحها مسحة تُقى لا تُخطئها عين، ويحتوى كل حائر مجهد، والشعر الذى اشتعل شيباً منذ زمنٍ لا تدركه، تبدو منابته الأرجوانية الملساء من تحت طرحتها الكبيرة، التى تغطى معظم جسدها الممتلئ قليلاً، الغائب عن آخره داخل ثوب فضفاض، نظيف معطرعلى الدوام!

وفيما يشبه الخدر تغط أميرة فى نومها، فى حضن الجدة الدافئ قبل نهاية الحدوتة، وتضطر الجدة الحنون إلى إعادة ما تسرب من الصغيرة فى الغد، قبل أن تبدأ حكايتها الجديدة.

تلح بأميرة الذكريات فتمسك قلمها وأوراقها، وتغوص فى خضمٍ لا نهائى المدى من الحنين، إلى تلك الأيام الخوالى، التى تدفع باقى عمرها لو تعود!

تحت ظل العمر الممدود

طفلٌ لم يزل

يمرح لاهياً فى طهره المعهود

يسكبُ الأيامَ

من كأس الوجود

يبعثر الأحلام على الطرقات

ليعود

يجمعها فى راحتيه الدقيقتين

تتسرب هاربةً من بين أصابعه النحيلة

حيث لا تعود

يطارد شعاع الشمس

مثل فراشات الربيع

يخدعه الضوء على دروب النهار

يختبىء خلف المساء

يرتمى على صدر الآمال مجهود

ينهض بصباح جديد

ينبش أسرار الكون

يجوبُ اللاحدود

يعبث بتراكم المحال

وببراءة الخيال

يُشيّد الأوهام من جديد

على أنقاض الزمان العنيد

وبرقة الأطفال

يغنى للصباح

للأمل البعيد

أنشودة الخلود

فى تلك اللحظة تحديداً تشتاق إليها، تتوق إلى رحلتها المعتادة معها إلى البيت الكبير، الأخوال الطيبون وزوجاتهم، الحقول والسواقى وجداول الماء الرائقة العذبة، اللمة والعزوة وعبق الزمان الجميل!

تدخل الخالة «فتحية» فى الصباح والمساء الحظيرة، طقوس معينة تقوم بها فى كل مرة، بعدها يسـقط الحليب مدراراً فى وعائها الفخارى العميق، رغوة وفيرة تشبه رغوة المسحوق عندما تخضه آلة الغسيل مراراً، وحليب دافئ كحضن الجدة فى ليالى الشتاء، يتدفق الحليب من ضرع البقرة، والصغير يقف تحتها أو يحوم حولها، كأنه يحتج على هذا الذى يحدث، فقناعته أن هذا الحليب ملكه وحده، وليس من حق أحد مصادرته على هذا النحو، يرنو الصغير بعينين شاجبتين تلتمعان بالعبرات المكبوتة، تملس أميرة عليه، تقبله وتربت على ظهره بيدها الصغيرة، يُخيل إليها أنه يفهمها، ثم تخرج مسرعة خلف الخالة فتحية، التى سطت دون قصد على حليب الصغير.

تلعب فى فناء الدوار الواسع مع أبناء الأخوال، الذين يزدادون واحداً فى كل زيارة لها، حتى باتت عاجزة عن إحصاء عددهم، وتخزينه فى هذا العقل الصغير، تنقرها الديكة الرومية الضخمة، فتصرخ وتجرى إلى الداخل، تنضو عنها الجدة فستانها الأحمر، وهى تُقّبلها وتُهدئ من روعها.

« هى لا تحب اللون الأحمر» تقول الجدة وهى تربت على ظهرها، وتمسح حبات الدموع الصغيرة، التى تناثرت على وجهها كحبات اللؤلؤ.

- لِمَ يا جدتى؟

- سمعناهم يقولون هذا.

- مَن هم؟

- مَن سبقونا يا نور عينى.

تفقد القرية عبقها برحيل الجدة، تتهاوى أبراج الحمام الواحد تلو الآخر حزناً عليها، يتبخر دفء الليالى بعدها، ينسل الحنان هارباً من الدنيا خلفها، تُنتزع البركة من كل شئ فى عقبها!

فى تلك اللحظة تحديداً تشتاق إليها، إلى دفء الليالى فى حضنها، إلى أقاصيصها الرائعة، إلى زرقة المحيط فى عينيها، التى لم تصادف فى حياتها أروع منهما، لم تجد فى كل هذه الدنيا على اتساعها مَن يعوضها، أو يدانى منزلها فى قلبها، حتى أمها على طيبتها ووداعة طباعها.

وتبقى فقط تلك العينان الزرقاوان النجلاوان، التى تغرق فيهما كلما اشتد بها الوجد، هما كل ميراث الأم من تلك الثروة الطائلة، التى كانت تمتلكها الجدة الراحلة، الباقية بقلب أميرة وروحها إلى الأبد!

« طيرى يا طيارة طيرى ياورق وخيطان، بدى إرجع بنت صــغيرة على ســطح الجيران، وينســانى الزمان على ســطح الجيران» تدندن مع صاحبة الصوت الملائكى الذى تعشقه.

أى اختلاف فى هذه الصــدفة عن غيرها؟ أى شــئ فيها بمقدوره ان يغير حياتها على هذا النحو؟ هل للصدفة كل هذا السلطان والجبروت؟ هل هى فعلاً حلمها الكبير الذى عاشــت العمر تنتظر تحقيقه؟ أم أنها مجرد صدفة مثل كل الصدف، التى تمر بعمرها وتخلِّف لها المزيد من الآلام؟ غدا من الصــعب جداً التأكد من شــئ، بعد كل ما مرت به من عذاب، حتى مجرد التنبؤ الذى كانت تُجيده، لم يعد قلبها قادراً عليه، وسط كل هذه الجراح التى تملؤه!

كل ما تعرفه فقط أنها سعيدة! سعيدة وحسب! ولأول مرة بعد تلك الظروف المريرة، التى حفرت بمخالبها القاسية دروباً للحزن فى أعماق وجدانها، حزن أبدى يغلف قسمات وجهها الجميلة ملامحه

حزنٌ يجعلها تبدو وهى فى كامل أبهتها كالبدر الحزين، لكنها الآن ســعيدة ويجب أن تكون ســعيدة، فلا شــئ مطلقاً يدعوها للحزن أو القلق، فاحســاســها لا يُخطئها أبداً، هى بالفعل تشــعر بصــدقه وتفرده، ولن تترك لرعبها الدفين من البشر فرصة للتدخل هذه المرة، فهى الآن سعيدة ويجب أن تعيش أيامها.

كلمات

أعلم أنها مجرد كلمات

لكنها تختلف عندما تصدر عنك

ترقى بمفهومى للأشياء

الرموز

المصطلحات

تأخذنى من قاعدتى

أسافر عبر المعانى الساميات

إلى منطقٍ جديد

بعيد

عني بالروى والتفعيلات

أقتبس منه حروف شعرى

فأصوغ فيك قصائدى والأغنيات

أعود تحتوينى النبرات

أذوب

أتلاشى

كأننى قطعة جليد شفافة

احتضنها الدفء

وبأذنى كلمات

تحمل معنىً أعمق

أقوى

أكثر من كل الأحرف

والكلمات

ودون تفكير تسعى لإكمال ذلك الحوار، الذى لم ولن ينته معه أبدا، اتصلت به فى المستشفى الذى يعمل به، وكان قد أعطاها جدول مواعيده هناك، يضمهما حوار جديد لكنه هذه المرة عن عمد، وليس للصدفة ادنى تدخل فيه.

الجو يبدو متوتراً، عمل وضغوط فليس مناسباً بالمرة، تسمع صوت خفيض يحدثه، لكنها لم تتبين بما يهمهم، ويرد بنفس الخفوت

دون أن تتبين أيضـاً، لكنها على أية حال تعرف أنه مشـغول، ويجب أن تتركه لعمله.

« أسـتأذنك يا دكتور فالمرضـى أهم، وهذا حقهم» همسـت خجلى مرتبكة.

« هم هكذا دائماً لا تشغلى بالك مطلقاً» يهمس حانياً.

« ولكن...» همست فى حرج.

« لا عليك، فلا شـئ مهم» قاطعها مؤكداً أن الأمر لا يسـتدعى كل هذا الحرج بالفعل.

يبدو أن الصـدفة هذه المرة شـحيحة جداً، الآن جاء مَن يخبره أن هناك حالة بالاسـتقبال، ودون أن يسـتفسـر عن شـئ أخبرهم أنه قادم فوراً.

يرتبك وهو يرجو ها،، أن يؤجلا الحد يث فترة تكفى لإسـعاف الحالة، يغيب صوته بسرعة البرق، لم تضجر ولم تغضب فالصدفة التى حرمتها تواً من صـوته الدافئ، أسـعدتها بنفس القدر، فقد امتلأت فخراً بإخلاصه وحبه لعمله!

يغدو له فى قلبها فى التو واللحظة شـىء أكبر من أن يحده تعبير، وأسمى من أن تحويه لغة مهما بلغت من رقى!

تعاود اتصالها بعدما منحته ثلاث ساعات كاملة، ظنت أنها منا سبة لعمل اللازم لحالته العاجلة، التى كانت سـبباً فى حرمانها منه طيلة هذه الساعات، والتى مرت ثقيلة جداً عليها، كان قد انتهى من اسعاف حالته فى وقت قصير نسبياً ،وقضى بقية الوقت فى الانتظار المليل.

- تأخرت كثيراً!
- خشيت ألا تكون قد انتهيت من عملك.
- كان يجب أن تعطينى رقمك لاتصل أنا بك.
- دعها للظروف يا دكتور، فلا أحب أن ألزمك بشئ تجاهى.
- سأحترم رغبتك، ولكن ستظل أمنية بالنسبة لى.

يرتبك صوتها، تتردد، تغير الموضوع سريعاً.

- ولكن قل لى هل الحالة بخير؟ أقصد هل زال الخطر؟
- الحمد لله!
- كدت أموت رعباً عليها، على الرغم من أننى لا أعلم سـوى أنها حالة خطيرة وحسب، ودعوت الله كثيراً من أجلها!

- وها قد استجاب الله لدعائك!

- حادثة؟

- فتاة كانت على أعتاب الموت بسبب جرعة سم كبيرة.

- انتحار؟!

- ربما.

تشعر ببرودة قارسة وتهزها رعدة شديدة .. تحاول أن تلملم شتات نفسها دون جدوى، يرتعش صوتها:

- وكيف حالها الآن؟ من فضلك يا دكتور!

- هى بخير، فقد عملنا لها اللازم.

يقطع عليهما الكلام صوت هادئ، يهمس فى شبه وشوشة « الحالة يا دكتور»، وكأنهم نسوا تماماً أن هناك غيره بالمستشفى، وأنه أسعف الحالة نيابة عن زميله دكتور « سعيد»، الذى كان قد تسرب قبلها بقليل خارج المستشفى!

يترامى إلى مسامعه صوتها هامساً تستأذنه فى إنهاء المكالمة.

- لاتشغلى بالك فالحالة على خير ما يرام، وتغط الآن فى نوم عميق.

- نتكلم فيما بعد.

- بعد ساعة؟

- لا أظن، ربما فى الغد.

تودعه مؤقتاً رغم معارضته الشديدة، وشيئاً شيئاً ينحسر صوتها من سماعة التليفون، الذى ظل يحملها لعدة ثوان بعد انتهاء المكالمة.

يتنبه لمن حوله، ينخرط فى عمله الذى يعشـــقه بكل ذرة فى كيانه، ويبدو ان معنىً جديداً للعشق بدأ يشارك العمل فى قلبه.

تقلب أميرة ناظريها فى شتى الأركان والزوايا بالحجرة، تثبت عينها على السقف ملياً، ثم تهبط رويداً إلى صور الأطفال الكثيرة، المعلقة على الحوائط الواحدة تلو الأخرى، ثم تتأمل الفراغات الضـــيقة بين كل صـــورة وأخرى، بينها وبين ذلك اللون البنفســجى تشـــابه كبير وحب، انسجام قلما تجده مع غيره من الألوان باستثناء اللون الأخضر عشقها الأكبر، تشرد مع كل هذه الأشياء مرغمة.

« فتاة تتخلى عن الحياة بهذه الســهولة؟ أو حتى بصــعوبة؟ ما الذى يدعوها إلى هذا؟ ما الذى جرته عليها الصـــدفة، لتقدم على التنازل عن حياتها هكذا بدون اكتراث؟ أو مقابل؟ أم أن المقابل يستحق بالفعل؟

هل مرت بما مررت به؟ ام أن الحب هو السـبب؟ هل، و هل، وهل...؟!» جعلت تحدث نفسها فى جنون!

لقد فكرت فى هذا من قبل، لكنها لم تسـتطع ان تقدم عليه، تذكرت عقاب الخالق، وهى التى عاشـت العمر تخشـاه منذ نعومة أظفارها، فماذا سـتقول له إذا ما لقيته فى الموقف العظيم؟ لم أحتمل قدرك؟ إنها أقوى من كل هذا العذاب والألم، أكبر وأعلى!

« الحمد لله على كل حال!» تقول دائما وتستغفر الله العظيم.

لكن تلك الفتاة الأخرى لم تحتمل، ترى كم كان نصـيبها من الألم؟ هل كان مثل نصـيب أميرة؟ هناك شـك، لكنها بالتأكيد أضـعف إيماناً منها، لها الله تلك الفتاة!

تختنق أميرة، تسـتنشـق الهواء بعمق، تحاول جاهدة اسـتخلاص ذرات الأكسـجين دون جدوى، فكأنها حُبسـت فى صـوبة زراعية ليلاً، تخرج مسرعة إلى السلم الداخلى، يبدو البيت كله منقوعاً فى السكون، هدوء رهيب يخيم على غرف النوم بالطابق العلوى، ليس ثمة صـوت يعلو على تكات ساعة الحائط الرتيبة، تقودها الخطى إلى الطابق السفلى، تهبط الدرج شـاردة، تُفلت يدها الدرابزين مراراً، تنزلق قدمها لولا أن تنبهت فى اللحظة الأخيرة، تصـطدم عيناها بالمرآة على الحائط، قبالتها بالصالة الكبيرة، ترى كم هى شاحبة، مرهقة، متوترة، تنعكس صورتها

مهزوزة، تتهيأ لها شبحاً سيخرج لتوه وينقض عليها، تجرى عائدة إلى غرفتها، تتخبط بين قطع الأثاث الوثيرة والأشياء الثمينة، التى حرص والدها على اقتنائها خصيصاً من أجل هذا البيت، الذى تأكد له انه كان صائباً،عندما عهد إلى صديقه المهندس الإيطالى بتصميمه، حينما كان معاراً إلى دولة الكويت، لتدريس اللغة الفرنسية هناك، والذى بذل من أجل بنائه وتأثيثه الفخم كل ثمرة مجهوده، وكده على مدى سنوات الغربة الطوال.

فيلا صغيرة جميلة، مستديرة، تشبه الكرة إلى حدٍ ما، تحفة معمارية وفنية رائعة، يطلق الناس عليها فى المدينة الصغيرة «البيت المدور».

تعلم أميرة جيداً كم هذا البيت غالياً على والدها، وكذلك تلك القطع القيمة، لذا كانت تتحاشى الاصطدام بها قدر استطاعتها، تنجح أخيراً فى الوصول إلى غرفتها مرة أخرى، تدس جسدها المرتعد تحت الغطاء!

ساعات النهار طويلة مليلة تشعرها بالألم، وتزيد من توتر أعصابها، وعندما يأتى المساء حثيثاً يزايلها كل التعب، فكأنها تُولد من جديد مع غروب كل شمس،غريبة هى، لكنها تحفظ عهدها بلا ريب، ففى خاطرها يجول الآن وعدها له ليلة أمس، تدق الساعة الحادية عشر،

تمسـك بالهاتف على غرار الصـدفة الأولى، تداعب أصـابعها الرقم بالسكن فيستجيب على الفور، يطول الحديث أكثر مما توقعا له، تنسى أميرة الوقت، التقاليد، البشـر، كل شـئ وأى شـئ، فقط كل ما يدور بذهنها أنها أخيراً عثرت على عمرها الضـائع، ويجب أن تعيشـه بأثر رجعى ما أمكنها!

جعلت تحكى له عن كل تفاصيل حياتها منذ أدركت الحياة ووعيت مفرادا تها، حتى عن تلك الظروف الأخيرة، التى جعلتها تكره ا الدنيا، وتتمنى الموت على ا لدوام، ووقفت حائلاً بينها وبين اسـتكمال دراستها.

- كنت بالصف الثانى الثانوى.

- كنت صغيرة جداً!

وابتلع كل كلمات الشفقة والمواساة، التى انهالت على لسانه، حتى لا ينكأ جروحها من جديد.

- كنت أحب الشعر جداً.

- كنتِ؟!

- أقصد ما زلت أحبه.

- تكتبينه؟

- أتذوقه، أقرأ كثيراً للشعراء وبخاصة القدامى، وأحياناً أدون بعض الخواطر.

- أود بشدة لو تُسمعينى شيئاً منها.

- أيضاً أحب الرسم. رسوماتى ليست سيئة جداً.

- لَمَ تتهربين؟ لن أتنازل عن سماع خواطرك.

- إنها مجرد خواطر، لا تستحق منك كل هذا الاهتمام.

يطاوعها فى اكتشاف دروب أخرى للحديث، يجوب معها الموضوعات والمدائن، يهيأ لها أنها قد نجحت فى أن تُنسيه مطلبه، يتعب من السفر، يعود إلى مرفئها الذى تحاول جاهدة أن تمنع سفينه من الإرساء به.

- لكنى أريد أن أسمعها.

- أرجوك يا دكتور! أنت تُحرجنى!

- وما الإحراج فى ذلك؟ أنا واثق أنها رائعة!

- لكنى لم أعتد أبداً ان أُسمعها لأحد، فلا أحد فى الكون يعرف عنها شيئاً.

يســود الصــمت للحظة، تدرك أنها أخطأت خطأً فادحاً، لم تقصــده بالطبع لكنه حدث، تحاول أن تستدرك فيسبقها:

- معذرةً! نسيت أنى مثل أى احد!

يغلب عليها البكاء ، تختنق، تصــمت لحظات، ثم تهمس بصــوت متقطع:

- لم أقصد هذا أبدا يا دكتور، أرجوك لا تفهمنى خطأ، لست مثل كل البشر حتى أحاول تبرير ما هو واضح لديك وضوح الشمس!

« أنت الوحيد فى كل هذا العالم الذى شعرت أنه منى، أنت الاستثناء يا دكتور» تردف مختنقة بالبكاء، ثم تنشج بخفوت بعيداً عن السماعة، ويُسرع آسفاً على تلك الجملة التى لم يقصد بها سوى المداعبة الثقيلة فقط.

- لن أسامح نفسى إن لم تُسامحينى. أقسم لك!

تغدو ابتســامتها الرقيقة التى تلوح لخياله على البعد أكبر دليل على أنها ســامحته، وكيف لا تُســامحه وهو الوحيد فى كل هذا العالم الذى أحبته كل هذا الحب؟ وهل يحتاج الحبيب إلى توسلات حبيبه من أجل السماح؟ من إذن نُسامح إن لم نسامح الحبيب؟!

- وهل أملك إلا أن أسامحك؟!

- إذن كلي آذان صاغية!

تحمر وجنتيها خجلاً، تتردد، تصـمت كأن الكلمات تحجرت داخل حلقها، وتأبى أن تبرحه لحظة أن همت بالكلام، تحاول إخراجها بصعوبة بالغة. تبدأ، تتلعثم...

غرباءُ على درب الحياةِ

نمضى مجهولى الهوياتْ

نسير بلا هدف ولا ندرى

بشرٌ نحن أم آلاتْ

نمشى بلا هدى على دربٍ

غُمرت أرجاؤه بالظلماتْ

على الأشواك يا قلب نخطو

والجراح لأقدامنا معانقاتْ

الشقاءُ يُخيمُ على سمائنا

والأنين ينسج لنا العقباتْ

نسامرُ الجراحَ والآلامَ

ونأتنسُ بصوتِ الآهاتْ

على الخدود يتسابق الدمعُ

وفى الأحداقِ تتلألأ العبراتْ

نحيا فى دنيا أباحت اليأس

وجعلت الأمال من المحرماتْ

تُهدر حياتنا فيها عبثاً

وتضيع هباءً فى الهُراءاتْ

نُجبر على تقديم عمرنا فداءً

لأيامٍ من الأفراحِ خالياتْ

وإلامَ وجودنا لاندرى

وسط أشباحٍ مُخيفاتْ

طال بنا انحدارُ الدربِ

واشتكت من أقدامنا العثراتْ

ورغمنا عنا يا قلب نمضى

نتحملُ تارةً ونتوجعُ تاراتْ

وكلما استكانت خطواتنا يا قلبى

أسرعت إلينا المصائبُ متلهفاتْ

تسأل من نحنُ يا قلبى

وأين طريقنا بين الطرقاتْ

بكل البراءةِ ما زلت تسأل

وكأنك تجهل الإجاباتْ

وبكل أسفٍ أُذكِّركَ نحنُ

ضحية الدنيا والخطوبِ العابثاتْ

نحنُ لُعبة الأيام يا قلبى

تسلو بنا وقت الحاجاتْ

فخبرنى كيف النسيانُ وكالوشمِ

على أيامنا آثارُ الصفعاتْ

تختنق ثانية بالبكاء، بينما ينشــغل هو بتجفيف تلك الدمعات، التى فرت من عينيه فى صمت دون أن يشعرها، يأسف كل الأسف بينه وبين نفسه، على هذا الكم من المرارة والأسى، الذى أعاده إليها مع قراءة كل حرف من هذه الخواطر، التى تمنى لو أنه لم يطلب إليها أن تُسمعه إياها قط، فالكلمات تخرج من أعماق جراحها، كأنها شــفرات حادة، تقطع مع كل حرف عصــباً من أعصــابها الواهنة، يهمس إليها بنبرة جديدة، جريحة، حزينة، غير التى كانت قبل أن تلقى عليه تلك الأبيات، التى استكملتها بالدموع!

- سامحينى يا أميرة! أرجوك!
- علامَ يا دكتور؟!
- آلمتك دون أن أدرى، وأعدت لك أحزانك القديمة بلا قصد!
- أبداً، فالأحزان لم تبرحنى!
- لا تقولى هذا يا أميرة، أرجوك!

- صدقنى يا دكتور! لقد اعتدتها تعودى المقومات الضرورية للحياة!
- لا أحب مطلقاً أن أسمع منك هذا الكلام.
- هذا قدرى يا دكتور!
- الحياة جميلة وأنت ما زلت صغيرة جداً على كل هذه الأحزان والآلام!
- كأنى عشت ألف عام!
- من فضلك يا أميرة! أنت تقتلينى بهذا الكلام!

يغوص كل منهما فى بحور الصمت فجأة، بينما ابتدرت معتذرة عن هذه اللهجة التى تحدثت بها، فما كان يجب عليها أبداً أن تُحّمله همومها، ولكنها نسيت للحظة أنها لم تُخبره بعد بأنه أصبح كل البشر بالنسبة لها، وذاتها التى لم تعثر عليها إلا لحظة أن عرفته، بينما يظل هو غارقاً فى صمته، حائراً ماذا يفعل لتلك الإنسانة التى لم تسبقها أخرى إلى قلبه، تلك الطفلة الكبيرة التى أخرجت ما بداخله من أحاسيس طفولية، نبيلة وجميلة، كان يحتفظ بها لنفسه بعيداً عن هذا العالم الملىء بالصراعات والمؤامرات،

لم يجد نفســه إلا معها، فى قلبها البرىء وصــوتها الحنون الهادئ، وشــفافيتها التى أذابت كتل الجمود الكامنة بداخله، فانصــهر فى ذاتها البلورية!

« آهٍ لو تعلمين كم أحبك! آهٍ لو تدرين ما بى! ليتك تعرفين!!» يحدث نفسه سراً، لكنه على أية حال لا يستطيع أن يبوح لها بما يعتمل فى صدره وما يحمله لها قلبه، على الأقل فى هذه الفترة العصيبة، أو التى كانت عصيبة إلى وقت قريب جداً!

« هل أنت معى؟ آلو، آلو» يترامى إلى مسامعه سؤالها فيعود أدراجه معتذراً على الشرود.

الفصل الثالث
وجه الأيام الآخر

يبدو كأنه يبحث عن تلك الكلمة الأخيرة قبل هذا الشرود الطويل، ليبدأ بها حديثه من جديد.

- نعم أنت مازلت صغيرة، ولسوف تصادفين السعادة حتماً، ولسوف تستكملين دراستك، وستعدينني بهذا الآن.

وقبل أن تنطق بكلمة يردف بنفس الحماس:

- وسأظل بجانبك طوال عمرى، حتى ولو باعدت بيننا الأيام والمسافات وظروف الحياة، لن أتخلى عنك أبداً، تذكرى هذا جيداً.

- ولكن يا دكتور...

- لا أريد إلا وعداً صريحاً منك بأن تلقى بكل هذا وراء ظهرك، وتنظرى إلى الحياة نظرة جديدة كلها أمل وتفاؤل، لابد أن تخرجى من عزلتك هذه، لابد يا أميرة.

يقول وهو يؤمن فى قرارة نفسه بتفردها، كما تؤمن هى به تماماً، هو يراها نابغة بكل المقاييس، لم يصادف فى حياته مثلها، وكل ما يرجوه هو أن تعطيه الفرصة فقط ، ليقف بجانبها حتى تجتاز كل هذه الهموم والأحزان.

شئ ما يدفعه لهذا، شئ أقوى منه ومنها، فهما ينتميان لنوعية خاصة جداً من البشر، تؤمن بالتوحد الروحى ووجود النصف الآخر، تقدس المثاليات وتتعامل بها، فى زمان ردىء لايعترف بها نوعية بين البشر!

نوعية غريبة حقاً، ترى أن البشر أنصاف لم تكتمل بعد، وأنه لابد لكل منهم من مكمل، من نفس الذرة التى انشطرت منها روحه منذ بدء الخليقة، يتوحد معه وفيه ليصبح واحداً صحيحاً، وأنه بدون هذا المكمل لا يمكن أن يرقى البشر أبداً لمرتبة الآحاد الصحيحة، فما أقسى أن يجبر النصف على التفاعل مع آخر ليس على شاكلته، وما أشقاه لو أنه ينتمى إلى تلك النوعية معقدة الصفات والتكوين مثلهما، تأبى الحياة على عكس ما تريد وتتنافر معها!

- عدينى يا أميرة
- أعدك يا طبيبى ولكن...
- لكن ماذا؟
- إذا كان هذا جزءاً من العلاج.
- أى علاج؟
- علاجى.

- لا أفهم!
- فهمت أنك تركت تخصصك فى طب الأطفال واتجهت إلى الطب النفسى والتعامل مع المعقدين أمثالى.
- لو أن كل المرضى النفسيين فى صفاتك وعقلك، لامتهن الأطباء النفسيون حرفاً أخرى ولأغلقت العيادات النفسية بالضبة والمفتاح!
- أشكرك! أنت دائماً هكذا رقيق ومجامل!
- ليست مجاملة والله!
- كالنسمة أنت يا دكتور!
- فقط أخرجى من رأسك هذه الهواجس، وإن كنت فى شك من كلامى هذا فتعالى معى فى زيارة لعيادة صديقى دكتور «أسامة»، ولسوف ترين المرضى النفسيين بحق.

على يقين أميرة من أنها لم تُشف تماماً من متاعبها النفسية، فقد خلفت لها تلك الظروف القاسية كماً من الآلام يصعب تحمله، جعلتها تنهار وتغدو مريضة نفسية مليون بالمائة، ولم يستطع الأطباء ولا العلاج أن يعيدوها إلى سيرتها الأولى، لقد تغيرت كثيراً عن ذى قبل!

غير أن كلامه أعاد لها بعض ثقتها بنفسـها، وجعلها توقن من جديد أن الحب يشـفى كل الجروح، وكل الأمراض، يمحو كل الأحزان، يغسـل الروح والنفس والقلب، فتصـفو الحياة بلا كدر، وتتلون الأيام وتعذب الألحان!

«الحب هو الحياة» تهمس فى نفسها.

لكن القلب الموجوع ينتفض فجأة، يرتعد خوفاً من المجهول، ولأن المجهول بيد الله فعاد وسكن، واستسـلم فى هدوء لذلك القادم من الغيب، لعله الفارس الذى يسـكن حكايات جدتها، ولعل حصـانه الأبيض هو ذاك الحنان والدفء، الذى يغلف نبرات صـوته، ويبعث فى نفسها الحائرة الطمأنينة والأمان!

- ليس عندى مانع، ولكن تذكر أنك الذى طلبت ذلك عندما يحولنى دكتور أسامة إلى « الخانكة».

- ليس هناك ما يدعو لكل هذا، فلا يعنى أنك مررت بظروف صـعبة أنك أصـبحت مريضـة نفسـياً، أو معقدة كما تقولين، أو أن الحياة انتهت عند هذا الحد، ثم إن ظروفك تلك عادية جداً وتحدث لأناس كثيرين، ولا تُشكل لهم أدنى أهمية ولكن لفرط حساسيتك فقد أثرت فيك كل هذا التأثير.

- صحيح يا دكتور؟

- صحيح يا سيدتى والأمثلة كثيرة، ربما تجدينها فيمن حولك، حتى الذين يعيشون معك فى نفس المكان.

كانت قد أعجبته تلك الأبيات التى ألقتها منذ قليل، تماماً كما آلمته لكنه لم يعلق عليها، وبخاصة أنها أخبرته أن لديها المزيد من الخواطر على هذه الشاكلة.

مسكينة أميرة حقاً، كيف تحتمل كل هذا العذاب والألم؟ مثلها تماماً عماد، رومانسى هو ومثالى، طفل كبير كما هى، أول إنسان تصادفه يقدر ما تعانيه، حتى والديها لا يلمسان سبباً منطقياً لحزنها هذا وكآبتها!

صدق إحساسها بالفعل، وصدقت جدتها، وأتى الشاطر عماد، ليطير بها إلى عنان السماء، على حصانه الأبيض الملائكى!

- عدينى أيضاً.

- بمَ يا طبيبى؟ بأن تستمرى فى الكتابة.

- إنها سلوتى وعزائى، لاتقلق من هذه الناحية.

- وليكن شعراً أكثر تفاؤلاً، ولأكن أول من يسمعه.

- إن شاء الله يا دكتور!

- وأن أراه منشوراً فى القريب العاجل.

- إلا هذا!

- بل هذا بالتحديد.

- أرجوك يا دكتور!

- بل أنا الذى أرجوكِ!

- سأحاول.

- بل وعد!

- وعد!

تتردد فى أذنها تلك العبارة الرائعة، التى تدغدغ الأعصاب « لا إلاه إلا الله» .. سمعتها منه فى نهاية المكالمة الأولى، همس بها ثم تركها مفتونة هائمة، رددها بعد ذلك فى نهاية كل مكالمة، لم تسمعها من أحد قبله بهذا العمق، تراها أعذب وأرق ما يمكن أن يُختتم به كلام بين حبيبين فى الوجود، تتنبه فجأة!

«الثالثة صباحاً، يااااه! معقول كل هذا الوقت مضى دون أن ندرى، لا بأس، فما أطال النوم عمراً» تهمس فى نفسها.

تشرع على الفور فى الكتابة، تكتب وتكتب، بروح مختلفة، بمشاعر مختلفة، بقلم مختلف، بمداد مختلف!

قلبك يا حبيبى

مدينتى الفاضلة

أشعر أخيراً بالانتماء لوطن

فقضيتى كانت

مدينة فاضلة

تحتوينى بعمق

تُذيب ما بى من غربة

لم يكن فى يدى منها سوى أحرف مبهمة

أجمعها

أنثرها

أرتبها.. أعكسها

أرهقها

أتركها

لأعود ذات يومٍ أذكرها

فأرهقها

وأتركها

لم تكن أى مدائن البشر قبلك

أحرفى

بل دامت كرة خاسرة

وبقلبك ياحبيبى

وجدت أحرفى منقوشة

بصبر

أهٍ يا وطنى الحر

يا طهراً يذوب فى طهر

آهٍ أدمانى السير

آهٍ أتعبنى الحظ

آهٍ يا حلم العمر

تمر ســاعات النهار كالعادة مليلة ثقيلة، بين أحداث رتيبة، وأنباء عن الحرب تزيد الأعصاب تلفاً وتحرق الدم!

مظاهرات من أجل شــعب العراق، احتجاجات فى كل مكان، لافتات تندد وترفض إرســال قوة عسـكرية إلى الخليج، غليان فى قلوب الناس!

« لا لتقسيم العراق، لا للهيمنة الأمريكية» تسمع أميرة بوضوح هذه الهتافات، تهزها الأصــوات، تُســرع إلى النافذة، تُشــارك على البعد « لا لتقسيم العراق، لا للهيمنة الأمريكية!»

تُبطئ المسيرة شيئاً شيئاً، تدقق النظر، يتحدث اثنان بصوت عال نســبياً « لم أفاجأ بموقف أمريكا بل هذا تماماً هو الوجه الحقيقى لها، الذى نعلمه جميعاً وإن كنا نغالط أنفســنا، فقط ســقط القناع، ولكن الصدمة الحقيقية فى موقف العرب المتخاذلين، وكأن العراق فرع جاف من شجرة العروبة، من مصلحة الجميع أن يُقطع ويحرق، أو أنه نبت

شيطانى لابد أن يُقتلع من الجذور، والطامة الكبرى هى المشاركة الفعلية فى التجهيز لإبادة هذا الشعب العربى المسلم، من العرب والمسلمين أنفسهم!

« حاجة تجنن والله يا أخى» يقول آخر لمن يجاوره.

« هذا شغل يهود، فهم ساسة العالم الآن، يُحركون الحُكّام بخيوط كالدمى، فاليهود غارقون فى الوهم بأنهم شعب الله المختار، وأنهم هُداة البشر وأن الرب سوف يجمع شملهم يوماً، هو يوم الرب كما يزعمون، وتصبح أورشليم سيدة المدائن ومركز دولتهم العظمى الممتدة من النيل إلى الفرات» يقول آخر مستعرضاً ثقافته التى تبدو واسعة بالفعل.

«هذا شأنهم ولكن أن يُحّمّلوا المنطقة كلها عبء تحقيق هذا الوهم فهذا ما شُرع من أجله الجهاد والوحدة» يرد المستمع بحزم.

يتعالى الهتاف أكثر « لا لتقسيم العراق، لا للقرصنة الأمريكية» وتردد أميرة، بينما تبتعد المسيرة وينحسر الصوت رويداً رويداً، ويُسمَع هناك على البُعد كأنه تراتيل مُصّلٍ.

« أى عدل يرمى إليه العدو الكافر، وقد نصب نفسه قاضياً وجلاداً فى الوقت ذاته؟ كفانا استخفافاً بكرامتنا وكياننا، فقد فاض الكيل وطفح» يصيح شاب ملتح هناك على الناصية البعيدة، فى حين يجذبه

شـــاب يقف فى مقابلته بقوة، ويدخل به أحد المحلات المجاورة، ويمر ماسح أحذية قائلاً « والله عندك حق يا شيخ!».

« ما هذا عدل أبداً، لن يهون العراق ابدا، ولن يهون أهله الذين قاسمناهم لقمة العيش، والأرض الأعياد والأفراح زمناً طويلاً، فواجبنا هو الوقوف إلى جانبهم» قال رجل عاش بالعراق معززاً مكرماً معظم سنوات عمره كما يؤكد.

يُسمع لغط عال وأصوات أقدام تدك الأرض، تعود المسيرة ولكن ليس بانتظامها، حين مرت من أمام بيت أميرة منذ قليل، جماعات متفرقة بينهم جرحى ومنهم مَن تلطخت ملابســه ببعض الدماء الخفيفة، قد لا تكون دماؤه، كل يجرى بلا هدى وفى عقبهم قوات من الشــرطة، كل عملها فى هذه الأثناء هو تفريق أى تجمع، يُخشــى على الأمن العام منه وفض أى شغب.

يهدأ المكان فى لحظات كأن شيئاً لم يكن، وكأن بشراً لم يكونوا هنا، ولم يقولوا ما قالوا، تناثرت منشــورات على الأرض، وقصــاصــات من الصحف ممزقة، وريقات كثيرة جداً تُغطى أرضية الشارع، تهبط أميرة تلتقط بعضــها، ورقة كبيرة مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومصــورة آلاف النسخ الضوئية كما يبدو، الصورة التى وقعت فى يد أميرة كأنها الأخيرة

من هذه الآلاف، باهتة غير واضــحة، حروف كثيرة منها أغفلتها ماكينة التصــوير، ربما عجزت عن التقاطها لأســباب فنية، لكن أميرة تستطيع أن تُخمن تلك الحروف الناقصة « قاطعوا البضائع الأمريكية والأســرائيلية» تقرأ بســهولة عنوان الوريقة، وتتذكر أنه كان مكتوباً على إحدى اللافتات، التى كان يحملها المتظاهرون.

« ســبق أن اتخذ الشــعب المصــرى موقفاً حاســماً من البضــائع الإنجليزية، أيام الاحتلال البريطانى لمصــر، فقاطعوها وأحرقوها علناً فى الشــوارع، وهم فى أمس الحاجة إليها، ويجب علينا أن ننتهج نهج الأباء والأجداد، ونعتز بكرامتنا وعروبتنا، فعار علينا أن تدخل تلك المنتجات بيوتنا، وعار على إعلامنا الترويج لها على هذا النحو، وليعلم الجميع ان كل ســلعة نقتنيها من هذه المنتجات، هى إســهام فى تدعيم جيش كل هدفه هو تدمير العرب والمســلمين، وســحقهم من الوجود، فهيا نطهر بيوتنا ولنهتف معاً فليســقط الهامبورجر، ولتذهب المياه الغازية إلى الجحيم، ولتُغلق أبواب التطبيع، ولتحيا الأمة العربية حُرة متحدة!» أكملت بقية الحروف الناقصة تقريباً.

« لتحيا الأمة العربية حرة متحدة!» تردد مرات عديدة، وهى تلتقط بعض الوريقات الأخرى، تفضها ثم تهتف مجدداً « فلتحيا الأمة العربية حرة متحدة!».

«لِمَ كل هذا الخراب والدمار؟!» تعود منكسرة، مشحونة بكمٍ من الألم لا يُحتمل، تبدو كأنها تحدث نفسها!

« لم يقف العراق موقف المتحدى لكل الأعراف الدولية، ولم يطلق الرصاص الحى والمطاطى على الأبرياء، لم تدهس جرافاته أجسادهم، وتدك بيوتهم وتشردهم فى المخيمات، وليس العراق الذى أعلن فى بجاحة أنه يمتلك أسلحة الدمار الشامل، ليس العراق وحده هو الذى أجرم واعتدى، ولكن العراق هو الذى رفض الخضوع للهيمنة الأمريكية، فاستحق عقابها على هذا النحو» استرسلت فى حديثها مع نفسها.

- أميرة! سلامتك يا ابنتى!
- لا شئ يا أمى، لا شئ على الاطلاق!
- كلنا حزانى يا ابنتى، لكن ما باليد حيلة!
- لا يا أمى، باليد حيل كثيرة، كثيرة جداً!
- اهدئى يا نور عينى!

«نور عينى» نداء جدتها الذى تعشقه، يريح أعصابها ويفتح أمامها عالماً أسطورياً جميلاً، ترى فيه نفسها فى حضن الجدة الحنون، تمسح

بكفها الطاهرة على جسـدها بأكمله، وتهدهدها مع بداية حكاياتها الرائعة فى ليالى الشـتاء الدافئة، أين ذهب دفء الليالى؟ تدفع كل عمرها لو يعود!

يأتى المساء كئيباً كصباحه، بيد أنه أقل نسبياً فقد هرعت إلى ملاذها، ذلك المخلوق النورانى الذى ملأ عليها حياتها، التى كانت فارغة وكئيبة، مملة وحزينة قبل ظهوره، وفى نفس الموعد المسـائى المعتاد كان اللقاء، الحوار، الهيام، عالم جميل تفتقده!

تتمنى لو أنه يقرأ هذا الكلام الجديد، الذى وعدته بكتابته، حتى يعلم كم هى تحبه؟ كم هى مفتونة به؟ كم هى مؤمنة بكلامه ومنطقه؟ إنه الحب، الحب؟ فليس الحب شيئاً بجانب هذا الإحساس الذى تكنه له!

تدور بذهنها الكلمات سـريعاً، ولكن كيف تقرأ له تلك الكلمات؟ إنها لا تستطيع، مستحيل! مستحيل!

بينما هو يحثها على الكلام، وهى غارقة فى صـمتها وخواطرها المكبوتة، طُرق باب مكتبه عدة طرقات، لكنها طرقات خفيفة ناعمة، هكذا بدت حيث أنها لم تُسمَع لدى أميرة الغارقة فى الصمت!

وبعد خروج الطارق الذى جاء لاسـتفسـار بسـيط، عاد يحثها على الكلام، بيد أنها لم تستطع أن تقرأ له حرفاً واحداً مما كتبته!

« مفاجأة!» خرجت عن صمتها هامسة.

- خيراً!
- بالطبع خير!
- تُرى؟!
- اليوم أرسلت إحدى قصائدى لجهة أدبية متخصصة وأنتظر ردها.
- عظيم.. عظيم!
- قد لا تصلح القصيدة للنشر.
- أنا واثق أنها ستفوز بجائزة أيضاً.
- ما كل هذا؟
- أقل من حقك بالتأكيد، هذه هى الحقيقة!
- أشكرك!

شىء ما يدخل على قلبها السرور، قد يكون محاولتها تلك هى السبب، أشعرتها أنها مازالت على قيد الحياة، ربما فهى لا تدرك شىء غير أنها كانت ستضيع لو لم تصادفه، فالفضل له بعد الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن تعترف بهذا، فلولاه ما أقدمت على تلك المحاولة، ولظل هذا الكلام حبيس الأوراق إلى الأبد، لقد جعلها تنظر إلى الدنيا وإلى نفسها

من زاوية أكثر اتســاعاً ودقة أكســبتها المرونة، جعلتها أكثر تقبلاً للأمور والأحداث المتعبة، أكثر تكيفاً مع الحياة وأكثر عذراً للبشر!

يبدو أن الدنيا بالفعل أدارت لها وجهها الباســم، بعد أن ظنت بل أيقنت اســتحالة ذلك، حيث سـلمت بأن الدنيا ليس لها إلا ذلك الوجه العابس المكفهر، الذى طالما طالعها بخطوب نحسى!

تتوالى الحوارات بينهما فى كل مســاء، فى نفس الموعد المعتاد، وفى كل مرة يزداد التوحد بينهما، حتى غدا من المســتحيل على كل منهما تخيل الحياة بدون الآخر!

وفى الحوار الأخير قد يكون العا شر أو الحادى عشر منذ أن تحدثا أول مرة، تبدو ســعيدة جداً ويبدو هو كذلك، يتبادلان الحديث رقيقاً عذباً!

يحكى لها نُكتة، تضــحك بكل كيانها، ليس على النُكتة، ولكن على طريقتة فى سـردها، تكتشـف انه مثلها تماماً فى هذا أيضــاً، لا يُجيد إلقاء النكت، يضحكان من أعماق قلبيهما!

- لدى خبر سيسعدك.

- ترى؟!

- خمن!

- نويت استكمال دراستك.

- هذا أمر مفروغ منه.. ليس هو.

- احترت.

- سلامتك من الحيرة!

ثم أردفت مسرعة تخبره أنه قد جاءها الرد اليوم، بأن قصيدتها ستنشر ضمن ديوان جماعى.

– أعظم خبر سمعته فى حياتى، مبروك يا عزيزتى، ألف مبروك، بل مليون!

ومثل كل مرة يمر الوقت سريعاً، ومثل كل مرة أيضاً تنتهى المكالمة، يهمس بدفء بجملته الأخيرة المعتادة، ثم يغيب صوته عن السماعة ببطء، ويظل يتردد فى أذنها، وأعماق كيانها إلى أن تلقاه من جديد، لتتزوَّد بجرعة جديدة من همسه الدافئ!

يا طفلى البرىء

سلمت من الزمان

عافتك الخطوب قدساً للمعانى

على يديك طفلى عشقت الحياه

تلونت أيامى

ذابت فى طهرك أحزانى

تقازم الشقاء إلى منتهاه

عشقتك طفلى أنشودة صبر

رسماً فطرياً لمعانى الحب

أملاً وردياً فى عناد الصعب

فلتبق ملاكى معزوفة عمر

تعزفك دموعى

فيهون الحزن

دمت ملاكى

طفلاً شفافاً برىء القلب

وسلمت من الزمان

سلمت من الزمان

تتوالى نهارات مليئة بأحداث مرهقة، تبرز فيها بشكل يفتك بالروح أخبار الحرب.

« ما يحدث هو مخطط صهيونى قديم، ونوايا مبيته اختلقت أمريكا الفرصة لتنفيذه، والهدف هو تدمير العراق وطمس هويته، افهموا يا ناس» يقول الأب محتداً موجهاً كلامه إلى معلق سياسى، يتشدق بما لا يعرف أمامه على شاشة التليفزيون، يصب اللعنات على رأس النظام العراقى، ويحاول تبرير تلك الهجمات الوحشية على البلاد، والتى يروح ضحيتها الأبرياء من المواطنين العزل!

«مهلاً يا حضرة الناظر!» تقول الأم مشفقة.

«هم لا يفهمون شيئاً أو يفهمون ويجبنون وهذا أسوأ» يقول ساخطاً على كل الجبناء فى العالم!

« أعصابك لم تعد تحتمل هذا الانفعال» تهمس الأم وهى تضع صينية عليها فنجان شاى وكوب ماء، وتمسك بيدها بعض أقراص الأدوية!

تبتلع أميرة كلماتها المستفسرة عن سير الأحداث، كما ترجئ لهفتها لسماع تاريخ بلاد الرافدين، الذى كان قد وعدها والدها بسرده فى وقت مضى.

تعقب تلك النهارات المليلة مساءات كئيبة ثقيلة، كأن الزمن لم يعد يمضى، ترى مَن سلب المساء بهاؤه؟ لمَ غدا بهذه الكآبة والحِدة؟ لابد أن غياب «عماد» هو السبب بلا شك، أيام طوال لم تسمع صوته، تتصل مرات ولا مجيب، اختفى من المساء فجأة كما ظهر فجأة، تعود الأعصاب المرهقة المتوترة تحترق من جديد، وتغلف الحيرة كل أفكارها!

فى بؤرة الذكرى

جهزت همساتك مسكنها الأبدى

لتبقى

عوناً للأوهام على قلبى

تدعوانى دوماً لمساءٍ ورديٍ

فألبى

تأخذانى بعيداً لأراك

فى بلاد الغربة عن كثبٍ

لا أدرى كم من الأميالِ قطعت فى سفرى

إليك

أو كم من الأيام واللحظات طويت

أطلُّ من نافذةِ خيالى

أقيم مشاعرى

أقيس احساسى بمقياس اللحظة

لم يزل وجهك يبهرنى خلف ذاك الماسك

المطعم بالألغاز

أعشق عجزى عن فك طلاسمك

لتظل دوماً ترضى غرورى

فلتبقَ

غامضاً مبهما

محاطاً بالألغاز محيرا

هكذا أبدا أريدك

حتى لا يتوقف تفكيرى عند نقطة

أجرب فيك كل الحلول

والاحتمالات

أدرب نفسى بطريقة خاصة

لتقبُل النتائج

أُجرد انفعالاتى من العنف

لتوائم ردودك

أروضنى بصبر للاحتفاظ بك

دعنى أظن أننى

وصلت المنتهى

ثم أكتشف أنها البداية

مجرد بداية

« ما هذا الذى أكتب؟ مَن هو الغامض؟ وأين هو ذاك الماسك؟ الهلاوس من جديد؟ أه ياربى كنت أظن أننى شفيت منها، هذا جائز مع كل البشر إلا هو، إلا عماد يا أميرة، أفيقى يا مُغيَّبة، إنه نصفك الأخر

الذى طالما نقبت عنه فى القدر» تمزق ما كتبت وتهمس فى نفسها بصوت مسموع، ثم تبدل الأوراق، تعتذر لطيفه الذى يسكنها، تُقبل عيناها الهاتف، القابع هناك على رف المكتبة الأوسط، تسرع إليه، تحمله برفق إلى فراشها، تسأل عنه بالسكن، ثم بالمستشفى، ثم تضع السماعة بينما يبقى بعض الأمل إلى المساء التالى!

مساء وردى حالم

يحمل الخيال على السفر

أراها فكرة رائعة

أستجب

أشحذنى بكمٍ من الذكرياتِ

أنطلق

أجوب آفاق أحلامى المقبرة

أتوقف لدى هذا الحلم

قد يبدو ساذجاً

ربما

لكنه

قد كان كل شئ ذات يوم

تطالعنى تفاصيله كما

لو كان حياً لم يزل

رُفع الستار لأرى

أميراً أسطورياً شق الأفق

ليأخذنى فى رحلة عبر الأزمنة

نجوب الدُنى فى ليلةٍ

نغوص فى أعماق الخيال البعيدة

نفتش فى الأساطير الكامنة

نطفو بأروع قصص الحب

نثرها حولنا

تبدو قصتنا الوردية ملكة متوجة

على عرش العذرية

لا مقارنة.

الفصل الرابع
ذكرى ودموع

يدور بذهنها وعده بحوار موصــول إلى الأبد، تتنهد، تســيل رغماً عنها بعض الدمعات، تعاوده الحيرة والهلاوس المرهقة، تتبدل ملامحها، تتقلص قســمات وجهها الجميل، تبدو مكتئبة ليل نهار، يجرفها تيار الحزن مرة أخرى، تفتك بها الهواجس والظنون!

لكنها تؤمن أيضــاً أنه من النادر جداً أن نصــادف مَن نشــهد لهم بالتفرد، ونشعر معهم بالألفة وراحة النفس، ونفضى لهم بما يضيق به الصـدر، نطلعهم بلا قيود على كل تفاصـيل حياتنا، لذا فليس من اللائق أبداً أن نقيد ما بداخلنا تجاههم بأفعال وردودها، قد لا تكون مقصــودة فى أغلب الأحيان، فتدور برأسنا الظنون التى هى فى حقيقتها أسئلة تنشد أجوبة، واتهامات تبحث بعنف عن مبررات، حتى أننا ننســى من شــدة زحام اللامفيد واللالائق، أو ربما نتعمد التناســى من فرط الأوهام، أن تلك الظنون فيمن لهم من المكانة لدينا ما يجعلنا نغفر لهم، حتى وإن أخطأوا بالفعل، فتقســو أحكامنا عليهم عن جهل ونوجه إليهم أصــابع الاتهام دونما إثم، ويطغى الكبرياء فى لحظة رعناء فتتوارى الحقيقة وراء ستار الغلظة، حتى أننا ربما نصدق ما اختلقناه من أوهام، فنعطى

الأمور حجماً لا طاقة لنا به، ثم نعود ونشــكو الزمان، وقلة الوفاء فيمن هم الوفاء ذاته!

« لا، لن يكون هذا أبداً، حتى وإن غبت عنى ألف عام وليس أياماً قلائل مثل تلك الأيام الماضية دون أن نتحاور، لابد أنك مشغول حقاً، لابد أنك غير موجود بالفعل، فإحســاســى لا يخدعنى أبداً، كذبت كل الشواهد، و صدقت أنت و صدق وعدك، سأعاود اتصالاتى حتى تبرر لى غيابك، حتى وإن لم تبرر لى يكفينى أن أســمع صــوتك» تهمس باكية معتذرة له غيابياً عن غبائها!

يكفيها فقط أن تسمع صوته، تكلمه ويكلمها، تتخلل نبراته الدافئة روحها الثلجية ليدب فيها الشــعور، يكفيها فقط أن يهمس إليها بأى شئ، لتنسى كل شئ إلا حبها العظيم له!

لكن الزمان يضــن عليها بأى من هذا كله، ويظل على عناده معها، لم تعد تطيق صــبراً، تزيد حيرتها وعذابها مع الوقت، تمضــى الأيام وهى تحاول الاتصال به دون جدوى!

يا أنا برحيلك صرت

لا أدرى حياةً

لا أحسب وقت

عُد حبيبى أوقد العمر

عد حبيبى بدد الصمت

المساءُ بعدك همجيٌّ يدفعنى ليأس

يأتينى فى ثوب حدادٍ

لنُقيم العرس

يحملنى على ذكر طقوسٍ

كانت بالأمس

أذوب شوقاً وحنيناً لقداسة همس

أغدو قطراتٍ حائرة

يرشفنى الصمت

لتظل قفارى مجدبةً لا تنبت حِس

عد حبيبى أوقد العمر

عد حبيبى بدد الصمت

تبقى على ضلالها القديم، تتصل فى كل مساء، لكنه دائما لا يرد على تليفون السكن، بينما تغيرت مواعيده بالمستشفى.

المساء لا يمر بدونه والنهار مؤلماً مرهقاً، تعود تطرق رأسها الهلاوس والهواجس، لم تعد قادرة على تقبل أى دفاع من القلب، يراودها إحساس فى هذه اللحظة بأنه مثل كل البشر، متقلب، متغير مثلهم.

تعقلت طويلاً لكنها الآن تصر على البعاد، وإغلاق هذه الصفحة إلى الأبد، وإلقاء الحكاية برمتها فى بئر النسيان، لكن المشكلة الكبرى التى تصادفها أنها ليست من أولئك الذين يستطيعون النسيان أبداً، بيد أنها تصر بكل ما تملك من شعور على احترام ذاتها، تأخذها نوبة كبرياء، تشعر بالحرج الشديد أمام نفسها من كثرة اتصالاتها، يؤلمها أكثر أنها بدأت توقن أن الإحساس الذى يخامرها صحيحاً، وأن عماد يتهرب منها بالفعل!

« ليس معقولاً أنه غير موجود بالمستشفى، أو بالسكن طيلة الوقت، أخبرنى قبلاً أنه لم يلبث عائداً من الفيوم، وهو لا يسافر إلا كل فترة طويلة نسبياً، إذن هو موجود بالقاهرة حالياً وهذا يعنى أنه...» جعلت تحدث نفسها كالمجنونة!

لكنها لم تستطع أن تكمل، أو هى لا تريد أن تعترف بأنه يتهرب منها، حتى تكون هناك فرصة للرجوع يوماً.

تتمادى فى هواجسها وهلاوسها، تجمع كل التراكمات وتمعن فيها النظر، تأخذها نوبة كبرياء جديدة، تتذكر أنها لم تدع الفرصة يوماً لأن يجرح كبرياءها أحد مهما كان.

«رحلت جدتى قبل أن تخبرينى هل رحل الشاطر حسن وترك ست الحسن، بعد أن عاشا فى تبات ونبات وخلفا صبياناً وبنات؟ وهل هو شاطر حسن واحد فى العمر، أم أن هناك آخرون؟ وكيف أعرف الحقيقى من الزائف؟ تركتينى مبكراً جداً جدتى، ليتك الآن معى! لاشك أنك تعرفين الشاطر حسن جيداً، أما أنا فعذابى وحزنى وهشاشتى النفسية، كل هذا يقلب لى الأمور ويجعلنى غير قادرة على تمييز شئ، أنت الوحيدة التى أثق بها لمَ تركتنى؟ وكيف السبيل إليك دون غضب الرحمن؟!» تعود تحدث نفسها.

تقرر أن تطوى مشاعرها، وتكبت أحاسيسها، وأن تكف عن الاتصال به للأبد، رغم رفض قلبها الشديد لذلك، والذى ما كاد يصدق أن صادفه، حتى أصبح هائما به، وكأنه وجد أخيراً الشئ الذى يستحق أن ينبض من أجله، لكنها اعتادت الحزن وكبت المشاعر ولم تعبأ به

وأصـــرت على قرارها، آثرت أن تكتفى بالاحتفاظ له بذكرى غالية مرت بعمرها يوماً ذات مساء!

« كبريائى هو الأهم لدى، وما حدث هو كل ما قُدر لى معه، ويجب أن أرضى بقضاء الله» تقول وهى تتصور أنها قادرة على تنفيذ قرارها.

لم تســتطع أن تحتوى دموعها، فانســالت على خديها كمجرى نهر جنوبى، لكن القدر لم يرض بقرارها، وأراد لها معه اكثر وأكثر!

باتت تعذبها الذكرى فى كل لحظة، تود لو تسمع صوته، تحكى له، تشــكو إليه، غدا قلبها معلقاً بجرس الهاتف، تجرى مجنونة إليه كلما ســمعت رنينه، ثم تعود وتتذكر أنها لم تعطه رقمها، هدتها الآلام ولم تعد قادرة على تحمل حياتها على هذا النحو!

« غبية أنا لو أعطيته الرقم!» جعلت توبخ نفسها على الدوام.

تحتلنى ذكراك

احتلال مكين مقتدر

فى لاحدود القلب الجريح

ترتع آمنة

تروح وتغدو بلا قيود

على بساط مشاعرى المرهقة

تحصد أسباب سعادتى

ترشف أصفى اللحظات

تنشر عبق الماضى فى أرجائى

فأختنق

يموت بداخلى أمل ما وُلد

ليصبح تحررى سراباً كما بدأ

وأعود

لصراعٍ مع الذكرى جديد

أقاوم فى صمودٍ وجلد

يئنُ كل ما بى من شعور

أحسد كل ذى سفهٍ بليد

وأعود

أتردى فى عجزى مرات

أدمى

أسكب آلاف الدمعات

أناجيك خلف قضبان اليأس

مناجاة الأسرى

أستحلفك بشىء كان أمس

خذ إليك الذكرى

رُدَّ قلبى

رُدَّ قلبى حرا

ودون أن تدرى تمسك بالهاتف وهى مترددة، تفشل فى السيطرة على رغبتها المجنونة لسماع صوته.

« ما معنى الكبرياء؟ ما هى الكرامة؟ إن قاموس الحب لا يعرف تلك الكلمات المحنطة والعقيمة، فما هى إلا عُقداً عتيقة لا تصلح معى ولا مع الشاطر حسن، الذى عشت العمر أنتظره، هل أضيعه من أجل تلك المهاترات الغبية؟» همست تُصقل همتها، وتقوى عزيمتها التى كادت تفتر.

هو غير موجود حقاً بالســكن فى هذا الو قت، تغيرت مواعيده بالمســتشــفى، والليلة هى واحده من ليالى نوبتجيته هناك، لكنها لم تكن تعرف فمُن سيخبرها؟ تفضل دائما أن تتصل فى نفس الموعد المسائى الأول.

« آلو ، آلو» يكرر الطرف الآخر.

«من فضلك ممكن أكلم دكتور عماد!» قالت مترددة بعد أن أدركت أنه صوت جديد على أذنيها تماماً.

« دكتور أحمد ينفع؟» رد الطرف الآخر ممازحاً.

كأن صــاعقة ألمت بها حين ســمعت هذا الهراء، ذُهلت لهذا الأســلوب الهمجى، كيف يصــدر عن طبيب محترم؟ كانت تعرف أن «أحمد» هذا يحب الضحك والمزاح، لكن مزاحه ثقيل وصاحب مقالب ســخيفة، ولأنها لم تتحدث معه ولو لمرة واحدة من قبل، فلم تتقبل منه هذا الأسلوب ولم تستسغ مزاحه.

« آسفة يبدو أننى طلبت رقماً خاطئاً!» تهمهم مسرعة.

تضع السماعة وهى غاضبة جداً حائرة، تمر الساعات الطوال وهى تفكر فيما حدث.

« هل بالضــرورة أن كل الموجودين بالســكن يشــبهون بعضــهم فى الصفات؟» تسائل نفسها فى جنون!

« ليس بالضرورة بالطبع؟ ولِمَ لا؟ فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، ولكن الصداقة شئ، ومجرد التواجد فى مكان واحد بحكم الظروف شئ آخر، لكن أيضاً المعايشة اليومية، والتفاعل الحياتى الدائم يكسب البعض صفات البعض الآخر، أو على الأقل جزءاً منها» تختلط الأمور عليها، فلم تعد متأكدة من شئ بعينه.

ورغم هذه المخاوف التى تلامس أو تار قلبها، إلا أنها تثق بإحساسها إلى أبعد الحدود لم تزل، وتثق بعماد ثقتها بنفسها وأكثر، وتعلم علم اليقين أنه يختلف كثيراً عن أحمد هذا أو غيره، ثم إن أقرب الموجودين إليه فى كل هؤلاء هو دكتور «رأفت» وهو إنسان جاد ومتزن، ولقد لمست هذا بنفسها حين تحاورت معه من قبل، شعرت أنه أخ لها كما هو لعماد تماماً، أما الباقون فهم مجرد صحبة، يجمعهم مكان واحد وعلاقة طيبة، وهم كما تعلم أيضاً أولاد ناس طيبين، ولهم جذور عريقة تمتد فى أعماق الزمان ببلداتهم.

تعود تلك الكلمات التى اتهمتها بالسخافة والغباء تدق رأسها، وعلى الفور تنتوى مرة أخرى الابتعاد نهائياً، وتعتقد من جديد أن هذا هو آخر ما بينهما، لكن القدر لايزال على عناده، رافضاً أن يوكل لها مهمة اتخاذ القرار، يبدو أنه ليس واثقاً من مقدرتها على ذلك، فإذا به يريد لها معه أكثر وأكثر وأكثر!

تـ شعر بأن المو سيقى الهادئة التى تعـ شقها تعلو وتعلو، تكاد تـ شق رأ سها نـ صفين، يزداد النـ شاز بـ صورة مهلكة، تـ صرخ، تـ ضرب الجهاز بكل ما فيها من قوة، تسقط يدها على الأزرار جميعاً بحدة فينطفئ، معذبة هى بالليل والنهار!

« ترى هل ظلمته؟ كل ما أعرفه هو أننى التى ظُلمت أولاً وأخيراً من الحياة والبشـر» تقول ويكاد يقتلها الإحساس بالألم، ويفتك بأعصابها الندم!

« هل انا مجنونة حقاً؟ كيف أضيع هذا المخلوق بهذه الحماقة؟ مستحيل أكون تامة العقل .. وهل لو عشت ألف عام سأعوضه؟ ما هذا السفه الذى أتصرف به؟ تباً لتلك الظروف الغبية، التى فعلت بى كل هذا وسلبت منى حكمتى، التى كانت مضرب الأمثال، أنقذينى يا جدتى» جعلت تهذى بكلمات متداخلة متضاربة.

نندمُ.. لا بل ننسى

فعلامَ يا قلبُ نأسى

أنحزنُ على دنيا غادرة

أم على بشرٍ قلوبهم أقسى

أم على أيامٍ طالما

طالعتنا بخطوبٍ نحسى

نُبحر فى يم الحياةِ ودائماً

شاطئ الدموع هو المرسى

ما أذكر ذات يوم قلبى

بغير الجراح والآلام أمسى

فتجمل بالصبر كما أنا

وما مضى يا قلبُ فلننسى

تهدأ «عاصفة الصحراء» مُخلِّفةً وراءها بلداً محطماً، وأسوأ كارثة إنسانية فى التاريخ، ضحايا بات من العسير حصرهم، مدن مدكوكة وآثار مطموسة، جراح غائرة فى الجسد العربى، يصعب أن تلتئم على مر الأيام!

شعب دمرت مقدراته، فلا غذاء ولا دواء، ولا شئ على الإطلاق، أطفال يموتون بالآلاف كل يوم، حصار بشع يطوقهم، يفنى ويبيد بلا

رحمة، والعالم يقف متفرجاً، أقصى ما يمكن فعله، هو بعض المظاهرات المدبرة هنا وهناك، أو مصمصة الشفاه!

«أى زمان هذا؟ وأى رجال رجاله؟ وأى دماء تجرى فى عروقهم؟» يقول الوالد والدم يغلى فى عروقه، وتكاد عيناه تخرجان من شدة الانفعال.

تجرجر أميرة أحزانها الجمة، وتذهب متململة إلى غرفتها بالطابق العلوى، تتقوقع على أحزانها وهمومها، وهى تود لو تصرخ بأعلى صوت، وتسأل عن سر هذا الشر الكامن بالبشر!

« النفط مقابل الغذاء؟» تتمتم منهارة.

« النفط، النفط يا والدى، حقاً إنه النفط، أنت دائماً محق، ولكن أى جبروت هذا؟ إن الشياطين ذاتها لا تستطيع أن تفكر هذا التفكير الجهنمى، رحماك يارب!» تكمل بنفس النغمة المهزومة والانهيار.

لم يزل الوالد جالساً بمقعده بالصالة الكبيرة، بالطابق السفلى لاعناً تلك المهازل البشرية، يصمت قليلاً، يرشف بعض رشفات من الشاى، ثم يغلق التليفزيون فى وجه تلك الأخبار المخزية.

- صحتك يا أبو أميرة

- أشياء تفور الدم

- وماذا نفعل؟ وهل بأيدينا شئ؟

- بأيدينا الكثير يا زينب، لكننا متخاذلون وهذه خيانة لله ورسوله وللأمة كلها، فدم هؤلاء الشهداء فى رقاب من جعلوا أراضيهم قواعد تنطلق منها نيران العدو!

- أخشى عليك من هذ الانفعال!

- ومن أين الهدوء فى مثل هذه الظروف؟

جعلت أم أميرة تهدئ من روع الوالد، الذى كاد يسقط من شدة الغضب، بينما لم تزل أميرة منكفئة على أحزانها، تدور أمام عينيها خيالات مرعبة، وتتوالى عليها الهواجس المرهقة!

كل الجروحِ يوماً تندملْ

وجرحى غائراً لم يزلْ

قدرٌ يا قلبى منذ الأزلْ

سُطرَ علينا فلا تسلْ

نمضى فى الحياة بلا هدى

ونحيا دوماً بلا أملْ

تنهارُ الدروبُ بأقدامنا

وتئن من العبرات المقلْ

كفانا يا قلبُ آلاماً

فكم ثُرنا وأكثرنا الجدلْ

تمر أيام على مكالمة أحمد، التى أ ضافت إلى تعبها النف سى وأحزانها العميقة، تعباً جديداً وأحزاناً جديدة، ظلت تراوغ خلال تلك الأيام قلبها ومشـاعرها، تهرب من كل شـئ يذكرها به، تود لو يتوه المسـاء بموعدهما، ويضـل دربه، فيذهب إلى دنيا أخرى، تتمنى لو تهيم على وجهها عبر الزمان، هرباً من تلك الصـدفة التى جمعت بينهما، فى ذاك المساء البعيد، القريب، الجميل، والمحفورة بقلبها وروحها!

كانت أطول أيام مرت بعمرها، كأنها سنوات طويلة كئيبة، يلح قلبها فى كل حين أن تتصل به، لثقته أنه سيجد لديه الراحة، والشفاء من كل هذه الهواجس، وكلام أحمد الذى أتعبها كل هذا التعب.

بعد عناء تر ضخ، وعلى م ضض تلبى نداء القلب الموجوع، والذى صـدقت نبوءاته بمجرد إتصـالها، خمنت مواعيده الجديدة، على أسـاس المعدل القديم، وما كادت تلقى السـلام حتى بادرها بأسـفه الشـديد، وألمه الجم لما حدث من أحمد!

لقد اتصـل بى ليلتها فور انتهاء المكالمة، وأخبرنى بما قاله وهو يستخف دمه.

- لا عليك يا دكتور!

- كيف؟ فأنا لا أنام منذ ذلك الحين.

- لا تُغضب نفسك هكذا، حصل خير.

- أنت تعلمين قدرك عندى، أقسـم لك أنها مزحة سـخيفة أنا المقصود بها لا أنت.

لم تكن أميرة تشك حتى مجرد شك فيما يقول، فالأهم من ذلك كله أنها أخيراً سمعت صوته، ولم يخبرها موظف السويتش كالعادة أنه غير موجود، لم تسأله عن سر بعاده فى الفترة السابقة، ولكنها صارت على يقين كامل فى تلك اللحظة تحديداً من أن شـيئاً ما قد حدث، فليسـت لهجته المعهودة، ولم تكن سعادته الكبرى المعتادة، فقد أحست

بانكسار فى صوته، وتعاسة حديثة السُكنى بقلبه، انتظرت طويلاً أن يصـــارحها، لكنه لم يفعل، وفضـــل الهروب بلباقة ولطف إلى موضـــوع آخر، فلم تلح عليه.

« هكذا أحمد دائماً فظ أحمق، لكنه طيب القلب جداً، ورغم هذا فقد لُمته كثيراً وكدت أقاطعه» يعود يكرر أسفه موضحاً.

- أرجوك يا دكتور لا تفعل هذا!

- لن أفعله فقط إذا سامحتينى.

- صدقنى لقد نسيت الأمر برمته، يجب أن تنساه أيضاً!

حقه فعلاً أن يشـــفق عليها كل هذا الإشـــفاق، فهو أدرى الناس بحساسيتها المفرطة، وما يمكن أن تسببه لها مثل هذه السخافة، بيد أنها حقاً غير مهتمة بأى شئ الآن سوى أن تسمع صوته.

- الأهم عندى هو أن تطمئننى عليك، ولندع سيرة مَن لا يعرفنا حتى تعرفه بنا الأيام، قد يســـتحق لحظتها أن نضـــيع كل هذا الوقت فى الحديث عنه.

- معك حق فعلاً يا عزيزتى!

تشعر أميرة بسعادة كبيرة جداً، رغم إحساسها العميق بل ويقينها بأن عماد قد تغير عن المرات السابقة، وأنه يحجب كلاماً كثيراً يود لو يبوح به، لكنه يتراجع فى اللحظة الأخيرة، ومع سعادتها هذه وبنفس القدر، تشعر أيضاً أن شيئاً بداخلها قد كُسر، لن يستطيع عماد بكل ما به من رقة وأحاسيس نبيلة أن يجبره، مادام يصر على هذا الصمت الذى يقتلها، إنها تذوب عشقاً له، وتفضل أن تفترق عنه دون أن يكون فى قلبها ذرة سوء فهم نحوه.

« ليته يتكلم! ليته يرحمنى!!» تهمس فى نفسها سراً.

إنه أعرف الناس بها لم يتركها هكذا؟ هل سيكون سعيداً لو أساءت الظن به؟ بالطبع لا، فبإمكانه فوراً أن يمحو كل هذا ببضع كلمات، فلمَ هذا الصمت؟ ما الشئ الذى يجعله يتصرف هكذا مع توءم روحه ونصفه الآخر؟ أى شئ فى الوجود يعدل البقاء فى رحاب الحبيب؟ أى معنى هذا الذى يحافظ عليه كل هذا الحفاظ، ويخسر حبه الكبير؟ ليته يجيب على تساؤلاتها تلك التى تكاد تسحقها فى صمت!

« يا أعز مَن صادفت وأول ساكن لقلبى، آهٍ لو تدرى مابى كنت لاشك ترحمنى!» يعصرها والرجاء!

لكنه يلتزم الصمت لم يزل، ثم يعاود للمرة الألف أسفه واعتذاره عن تصرف أحمد، حتى ضاقت بتلك الكلمات الرتيبة، تود لو يسكت ويكف عن هذا!

« أرجوك كفى فأنت تقتلنى بهذه الكلمات!» تهمس وهى تقصد أن يغيرها، وينطق بما تريد، لكنها أدركت أخيراً، وبما لا يدع مجالاً للشك، أنها تؤذن فى مالطا، فكل شئ ينبئ بحلول النهاية، لم يعد بوسعها أدنى محاولة للتفاؤل، وإذا بها تسعى لوضع جملة النهاية بابتسامة مهزومة!

« اطمئن على مريضتك يا طبيبى...» وتخفى كلمة «وحبيبى» خلف لحظة صمت قصيرة، ثم تردف « فهشاشتى تقوى على تحمل هذا طالما أنه ليس منك».

ما لذى حدث؟ فيمَ أتى ذلك الفارس؟ وفيمَ رحل؟ لمَ جعلها تتعلق به كل هذا التعلق؟ ولمَ ينسحب من روحها ودمها بهذه السرعة؟ أتكون ظروفى التى قصصتها عليه هى السبب؟

« لا، لا، ليس عماد مَن يفكر بهذه السطحية، أنا على يقين من هذا، ليس هو أبداً» تهمس غارقة فى دموعها.

لابد أن شـيئاً آخر قد حدث، هو كذلك بالفعل، ولكن ماهو؟ ليتها تعرفه حتى تستريح ولكن حتى ولو لم تعرفه لن تهتز ثقتها في حبيبها أبداً، فالشاطر حسن لا يكذب ولا يخون ولا يغدر، أنه الفارس النبيل!

لكنها على أية حال تعود توَّثِق قرارها بالبعاد، فلن تـ سمح لمقاومتها هذه المرة أن تنهار، ولن تترك قلبها فريسة لحنينه الجارف، فيطير بها إلى همساته الدافئة، التى تُذيبها فى خضم من العشق لاتملك إلا السباحة عبره إلى مالا نهاية، فالغرق فى الأحزان أكرم لديها، وبخاصة بعدما تيقنت اليوم من صدق إحساسها بأن عماد قد تغير، ليت الأقدار تساعدها!

الفصل الخامس
تساؤلات بلا أجوبة

يبقى عماد جالساً بمكتبه بالمستشفى الكبير الراقى، الذى يقع بأجمل بقعة فى حى مصر الجديدة، هائماً فى دنيا غير الدنيا، يسترجع كل لحظة من لحظات الحوار، كل كلمة وكل همسة، كم كان قاسياً عليها، وكم كانت هى كريمة معه؟ كيف التقيا أول مرة عبر الهاتف؟

« أجمل ما فى هذا أنها صدفة ليست مرتبة أهدت لى أميرة، ذلك الملاك الجريح، الذى يأبى إلا أن يسكن السماء» يهمس لنفسه بصوت مسموع.

ليته قدر طبيعتها الحزينة أكثر من هذا! ليته باح لها بسر تغيره! ليته لم يصدمها كل هذه الصدمة! ليته كان مختلفاً حقاً عن كل البشر الذين تعرفهم! هو حقاً مختلف لكن من يخبرها؟ و هل مازالت تؤمن بالحكايات؟ هل مازالت أسطورة جدتها تعنى لها شئياً؟ هل كان هناك حقاً «ست الحُسن»؟ وهل أتى فعلاً «الشاطر حسن»؟ هل لازالت على يقينها القديم؟!

« ترى هل كل هذا حدث بالفعل؟ أم أننى أحلم كعادتى؟ نعم هى موجودة فعلاً على أرض الواقع، صحيح أننى لا أعلم لها عنواناً، سوى عالم كبير ممتد إلى ما بعد حدود الخيال، ومساء حالم يضمنا فى نفس

الموعد فى كل مرة بلا ترتيب، إلا أنها موجودة بالفعل» يعود يهمس فى نفسه.

« مساء الخير يا دكتور عماد!» يقطع عليه حديثه مع نفسه صوت مفتعل الهدوء.

«مساء الخير!» يتنبه من شروده هامساً.

تتلكأ صاحبة الصوت، تبحث عن كلمة تقولها، جربت كل السبل لإيقاعه فى غرامها دون جدوى، لم يلتفت إلى ألاعيبها، ربما بنظره ضعف رهيب، أو قد يكون عديم النظر أصلاً!

وهل يستطيع أحد مقاومة هذا الجمال، أو رفض وده، قوام مياد و شعر حريرى، مسترسل إلى الخصر كذيل فرس عربى أصيل، وجه أبيض مستدير كالبدرفى ليلة تمامه، تزينه عينان خضراوان واسعتان فى حُسن بديع، وملامح دقيقة متناسقة قد وزعت عليها المساحيق ببراعة شديدة، لوحة ربانية رائعة الجمال!

عروس من الحلوى تبدو دائما، تُغرى كل من يراها بأكلها قطعة قطعة دون تريث، تطارده منذ وقت طويل بتروٍ، ومكر الأنثى إذا ما أرادت أن تظفر بشئ يعجبها، أو حتى على سبيل العناد مع الأخريات.

تصـــر على أن تثبت لزميلاتها، اللاتى حذرنها من جديته وأخلاقه العالية، أن كل الرجال يشبهون بعضهم البعض، وأن كل ما عليها فقط هو أن تشير إلى أى رجل مهما كان، ليتبعها كظلها فى كل مكان.

يبقى سبيل واحد فقط لم تسلكه، وطريقة واحدة فقط لم تجربها، قد تجربها قريباً إذا ما أصر على غفلته وغبائه.

« هل تريدين شيئاً يا سيستر سماح؟» يهمس بأدب جم متأصل فى طباعه.

« أبداً يا دكتور، فقط لم أرك منذ ســاعة وقلقت عليك، فهل لديك مانع أن أجلس معك قليلاً، وأعد لك فنجاناً من الشــاى؟ فالجو بارد جداً والليل بالمستشفى طويل وممل، ليس به إلا الأهات والصرخات والقرف» تهمس برقة غير معتادة.

« أشكرك يا سيستر سماح! فلست بحاجة إلى شئ، ثم إننا هنا من أجل المرضــى، لتخفيف تلك الآهات والصــرخات والقرف» يقول فى جدية معتادة.

« هذا فعلاً أفضل» تتمتم الممرضة سماح، ثم تخرج من المكتب وهى تكتم غيظها.

تتضاحك الزميلات حينما رأينها تأتى بهذه السرعة، وتبادرها مديحة قائلة « قلنا كده قالو اطلعو من البلد».

« وحياتك يا مديحة لاخليه يجرى ورايا، ويتمنى رضايا، وهتشوفى» تقول فى وقاحة ليست بغريبة عليها.

« مش ده يابنتى، دا غير كل اللى تعرفيهم، دا ابن ناس صحيح» تقول مديحة ثم تنخرط فى عملها.

« أنا وراه والزمن طويل» تقول سماح فى إصرار وبكل بجاحة، بينما ابتعدت مديحة عن المكان فلم يعد يُرى لها أثر.

فى الوقت ذاته تقاوم أميرة ضعفها وانهيارها، وقد اعتقدت تماماً أن حكايتها معه انتهت إلى هذا الحد، وعلى غير العادة بدا لها أن القدر أخيراً صدَّق على قرارها ووثَّق بنوده، فقد افترقا تماماً على أرض الواقع، لكنه يعيش بداخلها يسكنها سكنى الجان، ويجرى فى عروقها مجرى الدم، تكتب فيه أجمل ما كتبت فى حياتها وأصعب ما كتبت، تستغنى بذكراه عن العالم، تحيا به وله دون أن يشعر، ويحيا بها ولها دون أن تشعر!

« سامحينى يا أميرة ما فرطت فيك، ولكنى مضطر لأن أترك صورتى أمامك هكذا، حتى وإن أسأت الفهم، فسيأتى يوم تعرفين فيه الحقيقه، ساعتها سوف تسامحينى ولاشك» يهمس فى نفسه حزيناً متألماً!

« حتى وإن مت فستبقى روحى إلى جوارك كما وعدتك، لا تحسبى أن نسيت وعدى لك، لست بخائن يا حبيبتى ولا مخادع، ليتك تعرفين هذا، ليتك تدرين مابى!» يردف وقد اغرورقت عيناه بالدموع!

« لاتحســبى أنى هجرتك طائعاً، حدثٌ لعَمرك رائعٌ أن تُهجرى!» وينفجر فى صــمت بالبكاء، ذلك البكاء المكتوم بلا صــوت ولا دموع، بكاء الفرسان، يستمر طويلاً غائباً عمن حوله.

عائدٌ فى ظلمة أيامى المضطربة

فى زمن الحزن الميت

والقلب المشروخ

لأهاجر عبر أنين الزمن المُر

أجوب بطيفك أحلامى المنهزمة

حلم ضيق جداً

لا يحمل عبر سطور الذكر المختلة

غير بقايا أحزان

أتخبط فى ظلمة أيامى

أبحث عن وهم الحلم الضائع

فى زمن الأوهام

يا أزمنة الشوق

يا أزمنة الحنان

زمناً للحب مضى

وستأتى أزمنة الأحزان

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام

شاعرٌ هو بحق لكنه لا يُلقى بالاً لهذا، فلحظات خلوه الذهنى قليلة جداً، و ضغوط العمل لا تمهله الفر صة لإثبات ذلك، فإنتاجه الشعرى قليل جداً و شديد الخصو صية جداً، يغوص فيه وحده لحظات الضيق والألم، يعيد قراءته مرات ويكتب إذا ما كان ممكناً وهذا نادر جداً.

تعاود أميرة وحدتها وغربتها، لا تنساه لحظة ولا تمل استرجاع الذكرى، تُسائل عنه كل يوم يمر بعمرها، تعاتب كل مساء يأتيها بدونه،

تقضـــى كل أيامها حزينة جريحة وهو أبعد ما يكون عنها، فقط كل ما تفعله هو البكاء، كانت تســتعين على كل هذا الكم من العذاب والألم والبعاد بما تكتبه فيه، وكان هذا كفيلاً بأن يعو ضها جزءاً ولو يسيراً عما فقدته، ويشعرها بأنها تحاوره هو نفسه، لا أوراق جامدة صماء.

وتمر الأيام وهى كما هى حزينة وحيدة، غريبة فى هذا العالم!

حبيبى أين أنا؟

أين مكانى فى الدُنى؟

إبحث عنى

فلست يا حبيبى هنا

فإن تجدنى

سلنى إلى ذاتى العودة

خبَّرنى أنى قد أُبتُ

نادمةً أرجونى العفوَ

ما عدتُ تلك الفطرية بلهاءُ الحِس

أقسم لى أنى صادقةُ

ووعيتُ الدرس

بلّغنى أنى قد ثُرت وبكل العنف

هدمت مراحل تكوينى

وأعدت السبك

كسرت كؤوساً تُظمئنى

وبترتُ الوهم

ودعت قلباً طفولياً يأبى النضج

ونثرت مساعر عذرية

قد كانت عمر

وها أنا حبيبى عُدت

فأين أنا؟

أين أنا؟

تتعجب بشـــدة كيف تكتب هذه الكلمات؟ أيمكن لليأس أن يفعل بالإنســـان كل هذا؟ أيمكن للآلام أن تصـــل بالروح الشـــفافة إلى هذا الحد؟ أيمكن للأحزان الجاثمة على القلب ان تغير عقيدته إلى النقيض

هكذا؟ فتلك الكلمات أبعد ما تكون عنها، ليس فى قاموسها تلك الثورة والعنف والهدم والبتر، من أين أتت بتلك الكلمات الحادة؟ لا تدرى شيئاً إلا أنها تحبه، وستبقى على حبه ما بقى العمر، ولا يمكن أبداً أن تكون غير تلك الفطرية بلهاء الحس، ولن تملك أبداً غير هذا القلب الطفولى الذى يأبى النضج.

فى تلك الأثناء لم يكن إلا «إسلام»، هو السبيل الوحيد للاطمئنان على بعضهما البعض دون أن يشعراه، حتى أن مجرد رؤية إسلام فى حد ذاتها، كانت مبعثاً لكليهما على الراحة، فإسلام هو السبب المباشر والحقيقى فى تعارفهما، حتى وإن كان بدون قصد منه.

وفى أحد الأيام البعيدة، كان لإسلام حديث عنها مع عماد، قد يكون هو الذى أسفر عن هذا البعاد الذى يتنامى يوماً بعد يوم بينهما.

وبحذر شديد ولباقة معهودة به، يخترع عماد مناسبة للحديث عنها، ويود ألا يكف إسلام عن سيرتها أبداً، بيد أنه مضطر لإخفاء مشاعره حتى عن نفسه، لأسباب يراها حائلاً فولاذياً بينهما، وبخاصة أمام إسلام، لكن أميرة أكثر جنوناً وخفة، وبخاصة أنها لا تدرى بما بدر من إسلام، فهى أضعف من أن تمنع نفسها من السؤال عنه، رغم ما تجد من ضيق صدر إسلام، الذى يحبها منذ الصغر، ويغار عليها حتى من النسيم، فكيف بإنسان هى شغوفة به ولا تكاد سيرته تفارق شفتيها؟

لكنها لا تملك إلا أن تتغاضى عن رعونته وحماقته، فى سبيل الاطمئنان على حبيب عمرها، وأعز مَن عرفت فى حياتها.

تغلق أميرة عليها عالمها، كما كانت قبل أن تعرفه، بعد أن خبا وميض حياتها بغيابه، الذى غدا يقينها أنه عن عمد، ثم تعود وتؤكد لنفسها من جديد أنه دون قصد.

عاشت بين الحيرة والدموع، على أمل أن يمنحها القدر صدفة ولو أخيرة معه، ليعرف أنها تحبه كل هذا الحب، يسمعها ويرد عليها، ويلقى عليها شعراً، كما كان يفعل فى حوارتهما السابقة، تأتنس بهمسه الدافئ فى ليل الشتاء الطويل، الكئيب، ولكن.. وآهٍ من لكن!

مررت بجسر الهوى

تقودنى الذكرى

إثاقلت الخطى

طلت عبرة

دميت جروح

انشطرت روح

جاب القلب آفاق المنى

لم يبق من الأمل شىء

لم يبق من الحلم شىء

إلا أننا

ذات يومٍ كنا هنا

نسكن مدينة فاضلة

انهارت

توارت

تحت ركام الأزمنة

إلا أننا

ذات يومٍ كنا هنا

ننظم فى كل يومً حبةً

فى عقد الخلود

وقبل المنتهى انفرط عقدنا

إلا أننا

ذات يومٍ كنا هنا

نقف بالأطلال

نبكى كما الأطفال

نردد فى امتثال.. داعاً حلمنا

إلا أننا

ذات يومٍ كنا هنا

نبحث عن القلوع

ومجداف الرجوع

نودع فى خشوع لاحدود كوننا

إلا أننا

ذات يومٍ كنا هنا

كنا هنا

كنا هنا

وبعد أن كادت أميرة تجتاز محنتها، وتلقى بما مضى وراء ظهرها، وبعد أن تحسنت صحتها بشهادة الجميع، وهذا ما أسعد والديها أكثر من أى شئ فى الوجود، تعود تعصف بها فجأة انتكاسة رهيبة، تكاد تودى بحياتها، تلزم الفراش تماماً، تتمنى الموت من جديد، يزورها الأطباء الأغبياء من جديد.

لا، ليسوا أغبياء، لن تصمهم بالغباء بعد ذلك، يكفى أن حبيبها ينتمى إليهم، حتى تنزع عنهم ذلك الوصف، الذى لا يليق بأناس يمتهن توءم روحها مهنتهم، وتمر كل أيامها نسخة طبق الأصل من بعضها البعض، بين الرقاد والأطباء والأدوية.

اليوم فقط اختلف الأمر قليلاً، فقد أتاها البريد بالديوان، المنشورة ضمنه قصيدتها، تتمنى لو تخبره، لو يشاركها شعورها هذا، الذى يبدو شعور قليل بالفرح، لم تعد تعرف على وجه الدقة طعم لفرح، أو معناه الحقيقى منذ أن احتجب عنها، فكل الفرح هو ولا أحد سواه، تتمنى لو تشكره على كل ما قدمه لها، فهاهى ثمرة تشجيعه لها، لكنها تعود وتذكر قرارها، فهذا سيعيدها إلى البداية، والدوران فى نفس الحلقة المفرغة.

تكتم مرغمة ما بها من رغبة ملحة ولهفة لسماع صوته، تحاول التغاضى عن تلك الأحاسيس المِرهقة، وفى المساء وما أقسى المساء بدونه، فليس أصعب على قلبها من أن يأتيها المساء منفرداً، تخرج إلى الشرفة تجلس فى ركنها المعتاد بأقصى يسار الشرفة، تُحدق فى النهر الساحر، فى دغشة الضوء الضبابى المشوش، وحبات المطر المتتابعة تُقبل وجه الماء بصوت هادئ منغم، يزداد ارتفاعاً رويداً رويداً، بينما تنفصل قطرات الماء وتندمج فى سرعة رهيبة، والبرد القارس ينشر ذراته فى أرجاء المكان، يشتد البرد قسوة فتغزو جسدها المنهك رعشة شديدة، تشعر بالبرودة تسرى فى عظامها، تجذب طرف ياقة الروب القطيفة العريضة، على الجزء المكشوف من صدرها ونحرها، وتضع يدها على شعرها الكستنائى، المسبل إلى منتصف ظهرها، والمتطايرة خصلاته الناعمة فى اتجاه الريح، التى بات لا يُحتمل بردها، تعجز تماماً عن مقاومة هذا البرد الرهيب، فتدخل مسرعة، بعد أن جهزت البرودة القارسة مستقرها بين ثنايا جسدها، تغلق الباب خلفها فى عجل ثم تُسدل ستائره الشتوية السميكة، بيد مرتعدة كسائر كل ذرة فى جسدها، ترتمى فى أحضان فراشها الوثير تستجدى الدفء، تغيب عن آخرها تحت بطانيتها ذات الطبقتين والفرو الكثيف، رويداً رويداً تسترد بعض طاقتها، التى كادت تغيب تماماً، تمر الدقائق بها بطيئة ثقيلة، تجتر معها الذكرى، وكانت الساعات قبلاً حين يتحدثا تفر من الزمن فرار الفريسة من الأسد!

ودعتنى

قلت لى عائدا

أرهقك صمتى تساؤلا

تخوفا

انثنيت مؤكدا

لابد لى عائدا

لحقت بركب للأيام راحلا

ملوحا

مرددا

لابد لى عائدا

بركب جديد

وشموع موقدة

عزَمتَ تضميد الجراح

ووعدت تأتى بالصباح

والأفراح الآبقة

تركتنى

على ضفاف الأوهام شاردة

أرقب القدوم

والوفاء المزعوم

أصارع أحزانى الماردة

تغزونى رياحٌ باردة

تسكننى

تُحبطنى

تعبث بشتاتى عامدة

تتأرجحُ فى عينى الأشكال

بين الحقيقة والخيال

تتراقص الظنون على أنغام المحال

ليُسدل الستار

على أشلاء الأمال

ويعود اليقين

ناكس الجبين

أغلب الظن أننى

أذكر أنك وعدتنى

ووعدتنى

ووعدتنى

تنشــج أميرة عالياً، تتوق إلى لحظة معه، يحملها الحنين بكل كيانها إليه، يملأ همسه الدافئ عليها المكان، غلَّفها، ذوَّبها!

تســتحلف النوم بكل عزيز لديه أن يأتى، ليرحمها مما هى فيه دون جدوى، تدير «الكا سيت» القابع إلى جوار الـ سرير من الجهة اليـ سرى، عله يشغلها عن تلك الذكرى وهذا الحنين الجارف!

كل شــئ بينهما موحد، آراؤهما، أفكارهما، ميولهما، كانا ينطقان الكلمة فى نفس اللحظة، ويعلقان على الأشــياء والمواقف بكلمات موحدة، كأنهما اتفقا سراً على النطق بها، يضحكان من قلبيهما، ثم يقول

كل منهما أنا الذى قلت أولاً، وعندما يتباطأ أحدهما لأى ظرف، كان الآخر يقوم بالمهمة دون تباطؤ، ويقسم الآخر انه كان سيقولها!

يتهادى إلى أذنيها ذلك الصوت الملائكى الذى تعشقه، ويعشقه عماد مثلها تماماً حاملاً لها مزيداً من الذكرى والحنين « باشتقلك مابقدر شوفك ولا بقدر احكيك، باندهلك خلف الطرقات وخلف الشبابيك، جرب إنى إنسى تسرق النسيان، وبفتكر لاقيتك رجعلى اللى كان، وتضيع منى كل مالقيتك، حبيتك حبيتك».

تمر بقية الليلة بنفس البطء المميت، تقاوم بكل ما تملك من قوة للحفاظ على ذاك العهد، الذى قطعته على نفسها، تحاول الغرق فى خضم الحياة، علها تصادف النسيان!

تغيب لآخر ذرة من كيانها مع تلك الأنباء المؤلمة عن أطفال العراق، الذين يموتون بالمئات يومياً بسبب ذلك الحصار البشع، ترى صورهم وهم يرقدون بالمستشفيات لاحول لهم ولا قوة، لا غذاء ولا دواء والعالم مازال يتفرج، فتسقط مغشيا عليها أحياناً كثيرة!

هناك على الجانب الآخر، ينغمس عماد فى عمله بكل كيانه، فلم يكن لديه أغلى منه قبل ظهور أميرة، وقد انقطع أمله تماماً فى محاورتها، وزادت مسافة البعد بينهما، لدرجة لم يعد يُجدى معها أى تفاؤل، ويبقى

حبها بقلبه يشـــده إليها فى كل حين، رغم كثرة القلوب التى تتمناه بصـــدق، ولكن ما عســاه أن يفعل وقد اختار قلبه مَن تســكنه، ومَن منا يملك قلبه؟ ليت الأمر باليد ما كان هناك مُعذبٌ واحد فى هذه الدنيا!

مســكينة «إيناس» مهذبة ومحترمة، ولها من المكانة لديه ما يجعله يجلها ويقدرها، ولو أن أمره بيده لارتبط بها فوراً قبل أن يســبقه إليها آخر، طبيبة جميلة وعلى خلق، لكن لابد أن تعرف أن حبها هذا يجب أن توجهه لمن يحتاجه ويستحقه، ولكن كيف دون أن يجرح مشاعرها؟ إنها تستحق كل التقدير والاحترام، ويجب أن تفيق من هذا الوهم وتعيش حياتها.

« سأ ستمر فى معاملتى الر سمية تلك، وهى إنسانة ذكية و ستفهم» فكر كثيراً ثم حدث نفسه عاقداً العزم.

ولقد فهمت دكتورة إيناس بالفعل، و حاو لت ألا تُبدى له هذا الحب الكبير، الذى تكنه له، بدأت تجبر عينيها على الانشغال بأى شئ آخر فى وجوده، حتى لا يقرأ بهما ما تحاول جاهدة أن تخفيه.

« تكفى زمالته فقط مادام مشغولاً عنى، يجب ألا أخسره تحت أى ظرف، فمن النادر أن أصادف مثله، زمالة و صداقة دائمة، خير من حب فا شل، يعقبه جرح كبير، يجعلنى أكرهه وأكره نفسى» همست فى نفسها لحظة مروره بها فى الطرقة.

لكن شأنها شأن المحبين الصادقين سرعان ما تعود للخنوع لقلبها والتلميح له.

« قد يكون صـــمتى هو ســـبب ابتعاده، وتخوفه من الكلام معى فى مثل هذه الأمور، يجب ان أتخلى عن هذا الخجل، وأعترف له بحبى بكل صـراحة، لم تعد تلك الأمور معقدة مثل الماضـى، فلا فرق فى هذه الأيام مَن يبدأ أولاً، مال التقاليد والأعراف بهذا؟ هذا كلام المعقدين، لابد أن أصارحه فكيف الحال لو سبقتنى أخرى إلى قلبه؟ لابد وبسرعة» تحدث نفســها طويلاً، ثم تعتزم تنفيذ القرار الذى خرجت به من هذا الحديث الطويل.

تقف مترددة بباب مكتبه، تكاد تعود مسـرعة، لكنها تتشـــجع فى اللحظة الأخيرة، فجأة يُفتح الباب لتجد نفســها فى مواجهة غير مرتبة معه، يتمهل قليلاً:

- تفضلى يا دكتورة!

- سآتى فى وقت آخر، فيبدو أنك خارج للمرور على المرضى.

- حقاً، ولكن لدينا بعض الوقت، تفضلى تفضلى!

- أشكرك! مرة أخرى.

- هل كنت تريدين شيئاً؟ تحت أمرك!

- هه، لا، لا شئ أبداَ، أشكرك!

وتهم بالعودة إلى مكتبها فى تثاقل رهيب، لكنه يستبقيها للحديث فى موضوع مهم، ليس مناسباً له الوقوف هكذا بالطبع، يدعوها للدخول دقائق قليلة.

«بنت حلال فأنا أريد التحدث إليك فى مو ضوع مهم جداً» همس فى جدية.

تتهلل أسارير وجهها البيضاوى الجميل، فقد اعتقدت أ نه سيفاتحها فى موضوع الزواج، فهو جاد ويدخل البيوت من أبوابها، وليس له فى الكلام الفارغ، هكذا اعتقدت!

« يارب يكون الموضوع إياه يارب، يارب!» حدثت نفسها سراً، ثم همست فى تلهف كبير « خير يا دكتور».

- خير بالطبع يا دكتورة!

تنفرج شـفتاها بابتسـامة عذبة، وتطرق إلى الأرض خجلى، تخفى فرحة عينيها البنيتين الداكنتين، الجميلتين.

- تفضل يا دكتور!

- تعرفين طبعاً دكتور «جمال» ، زميلنا بالمستشفى.

- مَن؟ لمَ؟ أقصد، أقصد...

- باختصـار هو يريد الارتباط بك، ولقد وسَّـطَّنى لمعرفة رأيك، وأتمنى أن يكون أمله فى محله وأرجع له بالنبأ السار!

- أنت الذى تقول لى هذا الكلام بنفسك يا دكتور عماد؟!

- و ماذا فى ذلك؟ انت أخت لى وزميلة فاضـلة، أم أنى تجاوزت حدودى؟

- أبداً يا دكتور ما قصدت هذا مطلقاً، ولكنى مندهشة، أنت تحديداً؟!

- ولمَ لا أكون انا تحديداً؟ اعتقدت أنك لن تأخذى الأمر بهذه الحساسية ولكن يبدو...

- لا لكن، ولا يبدو يا دكتور، أنت لا تفهمنى، فى الحقيقة.

تعلو الدهشة وجه عماد وتدور برأسه الظنون، لكنه لا يترك نفسه نهباً لها طويلاً:

- هل بلغك شئ عن جمال؟

- الأمر لا يتعلق بدكتور جمال مطلقاً فأنا التى...

- أنت ماذا يا دكتورة؟ جمال شاب ممتاز، وأخلاقه فوق مستوى الشبهات، وهو كما نعلم جميعاً بارع فى عمله، وبصراحة أراه مناسباً لك جداً.

تتبدل الحُمرة التى علت وجنتيها منذ قليل بألوان عديدة متتابعة، لدرجة غاب معها لون بشرتها الخمرى الجميل، تتيقن أنه لا مكان لها فى قلبه كحبيبة، ولا يمكن أن يكون فى يوم من الأيام، فقررت وبحزم ألا تخسره بأى حال.

«أعطنى فرصة أفكر فى الأمر ، إنه زواج يا دكتور وليس أى شىء» تهمس بابتسامة هادئة مستسلمة.

«أعتبرها نصف الموافقة؟» يرد بابتسامة عريضة وفرح طفولى.

تتسع إبتسامتها قليلاً وتهز رأسها بطريقة المستسلم هامسة:

- يقدم الله ما فيه الخير يا دكتور!

ينتهى يوم العمل بالمستشفى، وكلمات عماد تطن فى أذنها كل لحظة، تصحبها إلى البيت لتجبرها على اتخاذ القرار، تلاحقها لدرجة تمنعها من النوم طوال الليل.

« كونى عاقلة يا إيناس فعماد قالها بصراحة، ولم ألمح فى عينيه ذرة حب أو تمنى» تحدث نفسها فى مصارحة أخيرة.

نعم يجب أن تكون عاقلة، ولا تُضَّيع هذه الفرصة منها فصعب جداً تعويضها.

قضى عماد ليلته بسكن الأطباء، بالدور الأخير بالمستشفى، وقد انقطع عن كل ما يمت إلى الدنيا، بصلة سوى عمله الذى يعشقه، يعشق وجوده بين هذه الزهرات البريئة، حتى السكن لدى رفاقه لم يعد عن قصد يذهب إليه إلا نادراً، حتى التليفون ذاته حرم نفسه من الرد عليه، ودائماً الرسالة التى تصفع أذن كل متصل به « غير موجود» حتى أن الجميع سئموا موظف السويتش، كما سئموا تلك الجملة المتحجرة التى تصدر عنه!

فى الصباح تتعمد إيناس المرور من أمامه والاقتراب منه:

- صباح الخير يا دكتور عماد!

- صباح الخير يا دكتورة!

يستشعر بحاسته الصائبة دائماً، أنها تريد أن تحادثه فى ذات الموضوع، ولكنها لا تدرى كيف تبدأ؟ يتدارك الموقف بلطفه المعهود ليجنبها الحرج:

- ترى هل خطر ببالك شيئاً مما تكلمنا فيه بالأمس؟

- الحقيقة أنى لم أنم بسببه يا دكتور!

- وما رأيك؟

- على خيرة الله يا دكتور!

- كنت متأكداً من هذا، مبروك ألف مبروك يا إيناس!

« إيناس؟!»، هكذا بلا ألقاب؟! إنها المرة الأولى التى ينطق اسمها مجرداً، لم يلتفت للأمر بيد أنها وقفت مشدوهة للحظات، حتى أنها لم تتنبه إليه، وهو يستأذنها ليبشر جمال بالخبر.

يجرى مهرولاً يتقافز فرحاً بين ممرات المستشفى، يصطدم بجمال خارجاً لتوه من غرفة العمليات مرهقاً، لا ينتظر ولا يطمع فى الكثير، فقط يحظى ببعض الراحة الجسدية، على أقرب كرسى يصادفه، أما راحته النفسية فيحملها إليه عماد الآن، يتعانقان مسرورين ثم ينادى عماد بقية الزملاء، يملأ الخبر أرجاء المستشفى ويدور السعاة بالشربات والحلوى على المكاتب والعنابر أيضاً، تذم سماح شفتيها وهى تتلقى تفاصيل الخبر «

اشتغلت خاطبة على آخر الزمن يا عماد، ما انت بتعرف اهو ، امال عامل عبيط ليه؟ ودينى لاوريلك الشغل على أصوله» تتمتم فى نفسها.

يعود عماد إلى مكتبه ملىء بالحب والذكرى، فالحب بالحب يُذكر والفرح يجلب الذكريات السعيدة، تطل أميرة بين كل هذا تعاتبه على الهجر، تتراجع قسمات وجهه المنبسطة إلى طبيعتها الحزينة فى سرعة رهيب، ينكمش مهموماً يلوم نفسه!

وكانت قد لمحته سماح وهو يدخل مكتبه، فأسرعت إلى المرآة لحظات تصلح من زينتها وتسريحة شعرها، ثم دخلت بعد عدة طرقات خفيفة على الباب، ولها طريقتها الخاصة فى ذلك، لكنه لم يتنبه إلى تلك الطرقات أو حتى للطريقة، وكأنه فوجئ بها أمامه، لكنه لم يعلق ولم ينبس ببنت شفة، تقترب منه جداً فى خلاعة لم يفطن إليها للوهلة الأولى، تُقَّرب كوب الشربات الذى تحمله من فمه، بعد أن رشفت منه رشفه وهى تقول « عشان تجرى ورايا زى ما بيقولو».

- تأدبى فى كلامك يا آنسة، وإياك أن تتجاوزى حدودك مرة أخرى؟
- الحق عليا يعنى.
- اخرجى من هنا فوراً، ولا تجبرينى على طردك بطريقة لن تحتمليها.

تخرج من المكتب على الفور مستشيطة غضباً، وتصفق الباب خلفها بشدة وهى تتمتم « غبى، غبى»، تصطدم بها مديحة وهى مارة بالمصادفة فى الطرقة أمام المكتب، فتتوقف ناصحة للمرة الألف «يا بنتى ريَّحى نفسك، أنا أعرف دكتور عماد أكتر منك ومن أى حد هنا، انا اشتغلت معاه فى القسم مدة طويلة، دا مش من الناس اللى انت تعرفيهم، ولو بقيتى قدامه ألف سنة مش هيبصلك».

« سيبيه فى حاله يا سماح، دا مش دكتور كامل الشاب الطايش، ولا وليد التافه عديم الشخصية، اللى بتهزئى بيه فى كل وقت، ولا دكتور عبد العظيم العجوز المتصابى، ولا داعى للمزيد انتى عارفة وانا عارفة والمستشفى كلها عارفة، خرَّجيه من راسك يا سماح والتفتى لشغلك أحسن لك، نصيحة منى!» أردفت بجدية وهى تضغط على يديها.

تسمعها سماح على مضض، وهى تفكر فى خطة تجعله يركع تحت قدميها، كالذين ذكرتهم مديحة حالا، ثم ترفع صوتها قليلاً فى شبه همهمات غير مفهومة « أسيبه فى حاله؟ هيحصل يا مديحة هيحصل» وتبتلع صوتها ببقية الكلمات، بينما تتركها مديحة وتنصرف متعجبة من تصرفاتها تلك المجنونة!

« هى مش مكَّفيها كل اللى بيجروا ورا ها دول زى الخر فان؟!» تهمس مديحة بصوت مسموع!

« سلامتك يا مديحة انتى بتكلمى نفسك؟» تهزها هدى فى دهشة!

« والله يا هدى أحوال الدنيا أصبحت تجن!» تقول مديحة ثم ينخرط الجميع فى عمله.

يتعالى الضجيج فى أذن عماد، فيضغط على زر جهاز التسجيل القابع إلى يمينه أسفل المكتب، والذى ينبعث منه بعض الموسيقى الهادئة، التى تريح أعصابه، وتمنحه دفعة جديدة لتحمل سخافات البشر، واستئناف العمل الذى لا ينتهى، يقوم للمرور على زهراته البريئة.

الفصل السادس
كل عام وأنت حبيبي

دائما للإنسـان ملاذ يهرع إليه، كلما ضـاقت الدنيا، وأظلمت فى وجهه، واشتدت قسوة الخطوب، ولم يكن أهدأ ولا أروع ولا أنقى، من الحضَّـانة مكاناً يهرع إليه عماد طلباً للراحة، والعثور على أشـياءه المفقودة، يجلس بين هذه البراعم الخضراء، يرعاهم بنفسه، ولا يوكل المهمة مهما كانت للحكيمات، يعشـق الأطفال حتى ولو كانوا مبتسـرين، كالذين أمامه الآن، يذوب فى هذا الكيان الشـفاف، الذى لم تلوثه الأيام بعد، ذلك العشق الكبير الذى حدا به إلى تغيير مسار حياته، وتخصصـه من رمد إلى أطفال، يجلس غارقاً فى تفكره وتأمله، وسـط هذه الكيانات الرقيقة، التى تنظر إليه من داخل صناديق زجاجية صغيرة تدور أعينها، ربما هلعاً من المجهول، الذى ينتظرها خارج هذه الصناديق.

لكنه أيضاً لم يستطع أن يُخرج من رأسه ما فعلته تلك المغرورة منذ قليل، وأصـر أن يكون له موقف معها حتى تعلم حدودها جيداً، وبمروره بالطرقة المؤدية إلى مكتبه التقى مصـادفة بالمس «تماضـر» رئيسة الحكيمات:

- مساء الخير!

- مساء الخير دكتور عماد!

وفى آخر لحظة يعدل عما كان سيقوله، يكتفى فقط بأن يطلب منها أن تغلظ عليها، حتى هذا يعدل عنه، ويقرر فى لحظة أن يطلب من الإدارة تعديل مواعيده الليلية حتى لا تتوافق مع مناوباتها، يهم مستأنفاً سيرة بعد أن أبطأت مس تما ضر خطاها، لسماع ما كان يبدو أنه ينتوى قوله.

« هل كنت تريد شيئاً يا دكتور؟» تسأله بعد أن لاذ بالصمت طويلا.

«هه، أبداً لاشئ، أشكرك يا ريسة!

ويسرع فى التو مستأذناً إياها مغيراً مساره، للبدء في تنفيذ ما انتوى.

تغيرت المواعيد بالفعل وغدا لا يراها إلا مرات قليلة أثناء النهار، لكنه يتجنب الحديث معها بكل السبل، وبدا له ذلك مريحاً جداً « الحمد لله ارتحت أخيرا من وقاحتها» قال فى نفسه متنفساً الصعداء.

الحقيقة أن هذا مجرد ظن يفتقر تماماً إلى الخبرة بالأنثى وألاعيبها، من إنسان ساذج غرير، لم يجرب ما يجربه الشباب، ولم يمر بمثل ما يمرون به، إنها تلك الرومانسية المفرطة، فلو أنه مثلهم لكان أسعد حالاً الآن، وأكثر استمتاعاً مع بنت جميلة ومجربة، تعرف جيدا كيف تسعده

حتى ولو بوقاحة كما يقول، يبدو أنه عبيط بالفعل كما هو رأيها فيه، لكنها تصر بصرامة على تغيير موقفه منها، ومهما كلفها ذلك.

بدت تظهر أمامه كلما تصادفا بمظهر الوديعة الطيبة، التى ربما بل من المؤكد أنه ظلمها، عندما فكر مجرد تفكير فى أن يشكوها للمس تماضر ذات يوم.

« أرجوك يا ليلى كونى مكانى الليلة، فوالدتى مريضة اليوم جداً، ومفيش حد يرعاها غيرى، انت عارفة ان اخواتى لسة صغيرين وانا أكون مكانك بُكرة» بهذه الطريقة الملتوية تستطيع التأثير على زميلتها صاحبة المناوبة المصاحبة لعماد.

توافق ليلى دون تردد، وتسمح المس تماضر بذلك من باب الإنسانية، تبتسم سماح فى خبث فرحاً بانتصارها فى الجولة الأولى بهذه السهولة.

« مش قلت لك يا عماد أنا وراك والزمن طويل؟» تقول فى نفسها مبتهجة.

«ليلى لديها ظروف قهرية ورجتنى أن آتى مكانها الليلة، وإن كان وجودى يضايقك سأبقى فى غرفة الممرضات ولن ترى وجهى أبدا» بادرت عماد عندما فوجئ بها وقبل أن يُظهر أى ضيق أو تبرم.

لم يكن عماد بهذه الصــفاقة حتى يؤيد هذا، ولكنه قرر أن يتحمل الليلة على مضض.

«هكذا فجأة تأدبتى؟ سبحان الله!» يقول عماد فى نفسه مرتاحاً.

طيب القلب هو لم يزل، لا يدرى بما تدبره له تلك اللعينة، وتُحيكه على مهل.

وتتكرر القصة، وكل مرة برواية جديدة، و شيئاً شيئاً عادت الأمور لما كانت عليه، لازمته من جديد فى مناوباته، لم يجد ضــجرا فى هذا، حيث يبدو له أن ســماح قد تغيرت تماماً، أصــبحت بقدرة قادر إنســانة أخرى بين عشية وضحاها، مهذبة ورقيقة ومطيعة أيضاً.

لم تكد تمر ليالٍ كثيرة حتى نزعت ســماح قناعها الزائف، وعادت لوقاحتها القديمة.

« هل صدقت أنى تغيرت فعلا؟ صحيح عبيط، أنت الذى يجب أن يتغير أيها الأحمق» تهمهم فى نفسها.

تبدأ فى وضــع خطتها فى ملاحقته من جديد، ولكن بالتدريج هذه المرة حتى لا يثور فى وجهها كالسابق.

« لابد أن أجعله هو الذى يلح علىّ ويقبل قدمى، و هذا يحتاج إلى صبر، وسأصبر» تقول فى إصرار.

« من أنت يا عماد حتى تتجاهلنى هكذا؟ هل أنت عبيط حقاً؟ أم أن مظهرك أمام نفسك يستحق أن تضحى بكل هذه السعادة معى؟ تتساءل بصوت يكاد يكون مسموعاً.

تتنبه من شرودها لتجد المستشفى تغط فى ظلام دامس للتو، والكل فى هرج ومرج، تنشغل من جديد بنفسها عن التساؤل، عن سر انقطاع التيار.

« كأن القدر رتبها ،لا،لا، ليس الآن يا عبيطة، انتظرى حتى يبتلع الطعم، دعيه هو يسعى إليك، لا تكونى حمقاء كالسابق» تهمس فى حزم.

حقاً لابد أن يسعى إليها هو، ولكن لو كان شخصاً آخر غير عماد، فمن يستطيع مقاومة جمالها؟!

وتمر الأيام والقدر يحرك خيوط الجميع حسبما يريد، والدنيا تلعب مع البشر لعبة الأوراق.

وكسائر البشر المهضومين، الذين تطحنهم رحى الأيام تعيش أميرة، ينطوى عمرها فى كآبة وملالة، يلتصق بصرها طويلاً بصورة لطفل لم يتعد سنواته الأربع، منشورة بإحدى الصحف وإلى جوار الصورة كلام موجع، يمزق الحشا، لكنه لم يكن أوجع من صورة ذلك الطفل، الذى يمكن للرائى أن يعد ضلوعه واحداً واحداً، وعلى وجهه

وفى عينيه نظرة بؤس وشــقاء، لو وزعت على العالم أجمع لتبقى منها ما يكفى لعوالم أخرى، صورة مؤلمة لأحد أطفال العراق الذين سلبهم الحصار كل ما فى كلمة «طفل» من معان، لقطة فنان بحق فذلك الجسد بارز الضلوع غدا شيئاً مألوفاً ، ولا يحتاج إلى مهارة فى تصويره، أما ذلك البؤس والشقاء المرسوم على وجه نبت أخضر مثل هذا الطفل فذلك هو الفن، وتلك هى المهارة، والمرارة أيضاً، فكأن ذلك الوجه الصغير لهرم عاش من العمر عتياً، وغدا لا يطمع ولا يطلب من الأيام خيراً بعد، لم تكن الكلمات التى بجوار الصــورة على مرارتها شــيئاً على الاطلاق، بجانب هذا الوجه الناطق بتفاصيل المؤامرة، كأصدق شاهد عيان على ذلك الجرم البشـع، تتوالى دموع أميرة بلا انقطاع، بينما تطوى الجريدة ثم تنشج طويلا!

على الأبوابِ غدٌ ينتظر

يتوق لعزيز خلف الجدرْ

يهمس حانيا عبر الحُجب

قريبٌ ميعادنا فانتظرْ

لا تبتئس فثمة أما

لنجاتك من عيش تحتقرْ

أيا مَن أوثقوا قيده

غداً قيدك ينكسرْ

يا مَن على أرضه يُمتهن

من غريبٍ للعدل يفتقرْ

يا مَن عن النور حُجب

صبراً جميلا يا مَن أُسرْ

فلك عدٌ فيه تنتصر

وتجوب الآفاق تفتخرْ

فمهما طال بالليل الأجل

لابد له أن يحتضرْ

يا عزيزاً على الأيام دنا

فجرُ فارتقبه واصطبرْ

أحزان كثيرة وعذاباتٍ ينوء بها القلب، القدس الجريحة تئن تحت أيدى الطغاة، أطفال وشيوخ ونساء يدهسون تحت الأقدام والجرافات، شـــباب كالورد يحمل روحه فوق كفه طوعاً، ويقدمها فداءً للأرض والغد المرتجى!

والعراق يحاول الصمود المستحيل، فى وجه الجبروت والطغيان، أطفال بلا ذنب تموت، أمهات تحترق قلوبهن ولا رحمة، شعب عزيز يُمتهن، ولاسامعٍ أو مغيث!

تتقلب أميرة بين كل هذه الأحزان والعذابات، وحبيبها الذى احتجب عنها من دون حتى أن يبرر لها ذلك البعاد.

عندما ينضب الضحك من القلبِ

وتغدو الحياةُ كئيبة بلا ابتسامِ

عندما تظل الدموع على الخد بياتٍ

ويضيق الصدرُ عما به من آلامِ

عندما نُجبر على قتل الأمنياتِ

ونُقبر بالصدر بقايا الأحلامِ

يجبُ أن نرحل عن المكان

ونتلمسُ طريقاً وسط الزحامِ

نمضى ونُنقب فى الأيامِ

علنا نُصادف حنان الأنامِ

ولكن كيف؟ ويقينها أنه وحده كل دنياها، وأهلها وأحبائها، مكانه فى الدنيا هو مكانها، ولا حنان فى الكون لديها يعدل حنانه، بيد أنها أحياناً تضل ذاتها، فتكون وكأنها غيرها تماماً، أفعالها، كلماتها، كتاباتها.

تنتابها حالات شتى ربما متعاقبة، فتكون تارة هادئة وديعة كالنسمة، ثم تنقلب فى لحظة إلى العكس تماماً، فتكون عصبية جافة، تدور عيناها الرماديتان داخل حدقتيها، بصورة قد تبعث فى النفس بعض الخوف، ومزيداً من التأكد بعدم سلامتها النفسية تماماً، بيد أنه لا توجد فرصة مطلقاً لمعرفة ذلك فيها، حيث إنها منعزلة كليةً عن الناس، منطوية على ذاتها، متقوقعة على احزانها، وكل ما تفعله هو الكتابة، وأحياناً كثيرة القراءة.

آهٍ قلبى كم شقينا

بذكرى غالية علينا

مضينا بها ما مضينا

ومازالت بخاطر كلينا

دروباً عنها ابتعدنا

ونسيانها طويلاً تمنينا

فعز النسيان علينا

وها نحن كيوم ابتدينا

إلى البداية يا قلب عُدنا

وليت أنا ما هوينا

عُدنا لا كما كنا

وللأيام وديعةٌ لدينا

ألمٌ وندمٌ وذكرىٌ

ودمعٌ يؤرق مقلتينا

بصماتٌ يا قلب أبدا

نمضى بها حيث مضينا

تلوح لها الهلاوس والخيالات المزعجة، تتجسد أمام عينيها بوضوح، تهرب منها إلى الكتابة ، تُخطئ مراراً فى ترتيب الحروف، تفشل فى انتزاع نفسها من تلك الأشباح المرعبة!

«تباً لذاك الصيف الذى جمعنا أيها التافه ، تباً لشاطئ ميامى ولشقتنا هناك، ولكل شئ يذكرنى بك!» تتمتم فى نفسها.

ما أقسى الصدمة عندما يصر الأهل على تسيير حياة الأبناء، دون السماح لهم حتى بمجرد إبداء الرأى، حتى فى القرارات المصيرية، وهم يظنون أنهم أصوب رأياً وأكثر حكمة، ما أبشع أن يُسلب المرء أبسط حقوقه، وأن يُجبر دائما على قول «نعم» ويُساق رغمه لما لا يُحب ولا يريد.

مَن يُنقذ يا بشر أحلامى

تُساق رغمى للإعدامِ

أكاد أُجن ولا يُجدى

رفضى واعتراضى وكلامى

ترفقوا يا بشر بقلبٍ

عاش عزيزاً مدى الأيامِ

يعصر جوانحى ألمٌ

ويعزُ علىّ أن يُهان أمامى

أم أنكم تجهلون جراحى

وما أقاسى من آلامِ

مللتكم وضاقت نفسى

بحقٍ أجهل فيكم أرحامى

- أرجوك يا أمى! أريد أن أتم دراستى، فمازال الوقت مبكراً جداً على الزواج.

- لست صغيرة يا أميرة، لقد تجاوزت السادسة عشر، ويجب أن تتزوجى حسب تقاليد العائلة.

- يا أمى!

- لقد أعطى والدك كلمة لأهل العريس، إنه « لُقطة» يا حبيبتى.

- أرجوك يا أمى!

- انتهى الأمر وليس فى يدى شىء يا نور عينى، ويجب أن تستعدى الآن لمقابلة العريس وأهله، فهم قادمون بين ساعة وأخرى لقراءة الفاتحة، هيا يا حبيبتى.

- أرجوك يا أمى! أرجوك!

- سوف تعيشين فى عز يا ابنتى، ونعيم يحسدك عليه كل البنات، وسوف تكتشفين أنك كنت مخطئة.

تصمت أميرة مستسلمة شاردة ، بينما تعبر الأم عن فرحتها بالقبلات والأحضان، لابنتها التى اكتشفت فجأة انها كبرت، وأصبحت عروساً جميلة يخطب ودها الشبان.

آهٍ من العجز! ليتها كانت ذكراً! ربما كانت أقوى من ذلك، ربما كان مسموحاً لها ببعض الحرية التى تكفل لها حياة أفضل، لكن الوقت فات ويجب أن تمتثل للأمر كما قالت أمها.

« جدتى! دبرينى يا جدتى، لو أنك موجودة لما حدث لى هذا أبداً، ولكن ماذا كنت تفعلين فى مواجهتهم جميعاً؟ بل أنت بهم جميعاً، أنا واثقة من هذا، لماذا لم تكن أمى مثلك؟ هى حنونة وطيبة لكن مغلوبة على امرها أعرف هذا، ولكن لماذا أبى بهذه القسوة؟ لماذا يرمينى فى النار؟ ردى علىّ يا جدتى، سيأخذونى من الشاطر حسن، أرجوك يا جدتى لاتتركيهم يفعلون هذا، رحماك يارب! رحماك!» تهمس فى نفسها ممزقة تائهة!

هل للحيتان كل هذا السلطان على الناس؟ هل انخدع والداها حقاً كسائر البشر فى الجاه والصيت، الذى يرتفع إلى عنان السماء؟ أم أنهما يعلمان ما ستكون فيه ابنتهما الوحيدة من عذاب؟ لا، لابد أنهما ظنا أنها ستكون سعيدة ،وأنهما يؤَّمنان م ستقبلها، بل من المؤكد هذا، فلا أب ولا أم فى الوجود يريدان التعاسة لأبنتهما، وبخاصة لو كانت الوحيدة!

يدخل «خالد» عالمها المختلف تماماً عن عالمه المادى البحت، السطحى إلى حد التفاهة والسخافة أيضاً، وتحاول إصلاحه بكل ما تملك من صبر، بينما يتمادى هو فى تصرفاته الغبية، وأسلوبه المتدنى فى معاملتها بعد فترة وجيزة جداً من الزواج، والذى تم فى سرعة رهيبة، وكأن الظروف اتفقت جميعها على تعذيب تلك المخلوقة، التى لم تبرح طفلة، وليتها لم تولد قط !!

تمر الأيام ويزداد خالد سوءاً فى معاملتها، وسريعاً تتكشف لها طباعة الكريهة على حقيقتها.

«وفرى حكمك ومواعظك لنفسك، ولا تجادلينى مرة أخرى، ولا تسألينى عن شئ، لقد اشتريتك بمالى كما أشترى أى شئ أريده، فاهمة؟ أى شئ!» يصيح فى وجهها دائما بمنتهى الوقاحة.

وأمام كل هذا لم يكن لديها إلا البكاء، وبمرور الوقت تحطمت نفسيتها تماماً وأصيبت بالانهيار العصبى، وبدأت بعد شهور قليلة من زواجها تطرق أبواب العيادات النفسية، بينما تزداد الضغوط على أعصابها أكثر وأكثر بسبب تصرفات زوجها، الحيلة « دلوعة» أبوية، والذى لم يتجاوز العشرين من العمر، ذلك الشاب ذو القوام الفارع والبشرة البيضاء النضرة، التى تُذيع بلا تكلف أو إدعاء أسرار النعيم الذى يرفل فيه صاحبها، كما أن ملابسة الأنيقة الموقعة بأرقى

الماركات العالمية، ومظهره العام يؤكدان ذلك بشـــدة، مما جعله مطمعاً لتلك النوعية من النسوة سيئات السمعة والسلوك، ولكنها المرة الأولى، هنا فى مسكن الزوجية؟!

- حقير!

- اخرسى!

- ليس قبل أن تعطينى حريتى يا وقح!

يبادرها بـ صفعة عنيفة تفقدها الوعى، تفيق منها على فرا شها القديم فى بيت أبيها، بين أحضان غرفتها، التى لم يتبدل فيها شئ منذ أن تركتها، كأن الأشـــياء اكتســـبت منها الشـــفافية والحس المرهف، فباتت تنتظر عودتها بيقين كامل!

لتنتهى بهذا المشهد مأساة دامت عامين، وتحصل أميرة على حريتها المصادرة بأمر الأهل، بموجب هذا الصك المسمى عقد زواج، لكنها يجب أن تنســـى هذه الأحداث المؤلمة رغم أنها محفورة بعمق على جدار عمرها الغض، الذى أُغتيل بلا رحمة فى أول نسمات ربيعه.

بيد أنها تصـــر بالفعل على إخراج تلك الأحداث من حدود ذاكرت اليوم، فلن تدع الفرصة لشئ مهما كان أن يشغلها أو يعكر صفوها.

فقط قفزت إلى أعلى نقطة فى ذاكرتها وتربعت على عرش تفكيرها تلك الصدفة الرائعة، التى جمعتها بنصفها الآخر، الذى كادت تجزم أنه مجرد حلم ساذج من أحلام زمانها الأول.

« أشكرك يا جدتى! لقد أتى الشاطر حسن، فلولاك ما عرفته، ولا انتظرته، ولا أتى!» تهمس فى نفسها ممتنة.

تمر ساعات هذا المساء كاللهيب على قلبها، والذكريات الجميلة تتجسد لها أطيافاً سرباً تلو الآخر.

ودائماً هناك مناسبة لابد للأمنيات أن تتجدد، ولابد للقلوب أن تسعد، ولو لبعض الوقت، فلابد لعماد أن يقضى هذه الليلة مع رفاقه بالسكن، لابد لهم أن يجتمعوا كالعادة منذ سنوات، ولابد لأميرة أن تسمع صوته هذا المساء، وتدفن روحها الثلجية فى حضن همساته الدافئة، التى اشتاقت إليها طويلاً.

تدق الساعة الثانية عشرة ودون تفكير تهرع إلى الهاتف، تضرب الأرقام فى عجل، فتستجيب زعراً، تسأل عن إسلام أولاً دون أن تهتم بمن يرد، وليس إسلام هو المقصود بالطبع، لكنها لا تدرى لم سألت عنه، تُحّدثه قليلاً مرتبكة متوترة، كأنها تريد أن تقول شيئاً ثم تعدل عنه فى اللحظة الأخيرة، لم تستطع التخلص من رغبتها الملحة، تتردد، تتلعثم، تسأل عنه بصوت متقطع، يصمت إسلام مصدوماً، يتلعثم،

لكنه لم يستطع أن ينكر وجوده، وسرعان ما داعب أذنها صوته الدافئ.

تتسلل نبراته الهادئة إلى أعماق قلبها، لتشفى ما به من جراح، وتعيدها إلى البداية.

- كل سنة وأنت طيب يا دكتور!

- وأنت بالصحة والسعادة وكل الخير يا أميرة!

- قد أكون أزعجتك، ولكن وودت فقط...

- بل أسعدتنى، يكفى أنك تتذكرين يوم ميلادى.

- صحيح يا دكتور؟!

- وهل لديك شك؟!

« وهل أستطيع أن أنسى يوم ميلادك يا أعز منى، كل عام وأنت حبيبى، كل عام ونحن معاً للأبد؟» تهمس فى سرها.

يستمر الحوار ودوداً ناعماً، كحلم وردى لا يود الإنسان أن يصحو منه أبداً، تزداد تعلقاً به وتنثنى فى لمحة عن عزمها بهجره، تخبره بوصول الديوان، يفرح كثيراً لدرجة تجعله ينسى كل مَن حوله، ويأخذ الهاتف إلى غرفته، ليتحدثا فى هدوء وحرية أكثر، تصرف عفوى منه لكنه أدرك بعد ذلك أنه ما كان يجب أن يتصرفه، حفاظاً على شعور

إســلام، لكنه أيضــاً برره بلباقته المعهودة، التى يقتنع بها الجميع دائماً،

تعده بأن ترســل له الديوان وبعض أوراقها الأخرى مع إســلام فى أول زيارة له للبلدة.

يتكرر الحوار بعد ذلك رغماً عنهما مرات قليلة على فترات ليســت بالقصيرة ولا بالطويلة بيد أنه المتاح.

من أى كوكبٍ لعالمى أتيتْ

جُبت أفاقى وبأيامى طُفتْ

عزفت لحناً للوفاءِ واقتربتْ

وبين ذكرياتى واثقاً تجولتْ

كأنى بعد الضلال اهتديتْ

وإذا بك قبل السلام ودَّعتْ

فلم يزل خلفك الخاطر سارياً

إقتفاءً لأثرك حتى تلاشيتْ

أتراك لدربك المنشود ضللتْ

وبحثاً عنه إلى الأبد رحلتْ

أم أنك طيفاً لى عرضتْ

ومن صنع الخيال البعيد أنتْ

إن يكن .. وأبداً ما كنت

أُشهدك أنى من الخيال برئتْ

ومع مرور الأيام وكر الحوارات، يزداد يقين أميرة رسوخاً بتغير عماد، فهو ليس أبداً عماد الذى عرفته أول مرة، كان يؤكد لها ذلك اليقين، وقوفه دائماً على حافة الحديث فى شئ بعينه، ونكوصه قبل أن يتفوه بالحرف الأول منه، وهذا بدوره يدفعها لسؤاله من جديد عن هذا الشئ الخفى، الذى تؤكده حاستها الخاصة جداً، ويجيبها من جديد بلا شئ،، تشعر مجدداً بأن البعاد قادم فى الأفق لا محالة.

« ترى ما هو هذا الشئ الذى تُخفيه عنى يا عماد؟ هل يستحق أن تُضيعنى من أجله؟ هل أنا بهذا الهوان لديك؟!» تكاد تقتلها التساؤلات.

الحزن الكامن بقلبى تغلغلْ
ما عدتُ يا رب أتحملْ

لحظاتٌ هى كل ما أبغى
الحزن فيها من أعماقى يترحلْ
فكلما شدَّ الرحال كأنه
يعز عليه فراقى فيتمهَّلْ
عهدتُ بالحزنِ وفاءً
ليت بعضه إلى البشر تسللْ
ليت الدنيا منه تتعلم
فتذوبُ قسوتها وتتحللْ
ليت الأيام تنسى كآبته
فلا تطول هكذا وتترهلْ
ليت وأنَّى تُجدى ليت
فتلك حكمةٌ لا تُعللْ

تزداد اتصـــالات إســـلام بها فى هذه الأيام، ويتعمد أن يلقى إليها بتلميحاتٍ جديدة، لم تعهدها منه قبلاً، وبطرق غير مباشرة، يحاول زرع بذرة الشك بداخلها تجاه عماد، وبخاصة مع تقلب الأيام، وتغير عماد الذى لم يكن له سبباً مقنعاً لديها.

معذورٌ إســـلام فالغيرة تفعل أكثر من ذلك، تُفقد الإنســـان عقله أحياناً، فهيامها بعماد مفضوحاً فى كلامها وتصرفاتها، وكان يجب عليها أن تمســـك بزمام نفســـها أكثر، لكنه الحب، الحب الذى يُفقد العاقل اتزانه.

تصـــرف غبى من إســـلام، وهو الذى طالما أســـهب فى الكلام عن عماد، وأطال فى المديح لصـــفاته النبيلة، وأخلاقه الملائكية، عندما كانت تستدرجه للكلام فى سيرته، ويعلم جيداً أنها لن تصدق فيه شيئاً مما يقول الآن، هل فجأة انقلب إلى النقيض؟!

أبعد كل هذا الحب الذى تحبه لعماد، والثقة به، التى تفوق ثقتها بنفسها ممكن أن تصدق فيه شيئاً؟ أبعد كل هذا التفرد، الذى اكتشفته فيه بنفسها يرجوها إسلام بأن تنساه، وتلتفت إلى حبه هو المحسوم منذ الصغر، والمحبوس داخل إطار الأخوة؟ شئ غريب لا تقبله فهل تقبله الأيام القادمة؟!

الفصل السابع
أشياء في الذاكرة

عندما ينأى الأحبة، تبقى الذكرى، يسترجعها المحب، يحن إلى كل شيء يتعلق بالحبيب، وبخاصة لو مرت به أحداثاً مشابهة، أو كلمات كان يرددها.

قد تكون ذكرى مؤلمة، لكننا نذكرها تماماً كما نذكر تفاصيل ذكرياتنا السعيدة، فهى على أية حال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعهده الجميل، قد ننسى ألمها لكننا لا نستطيع نسيانها هى ذاتها، فالحب يبدل تلك الآلام إلى أجمل إحساس ممكن ان يُحس، إذا ما لاحت صورة الحبيب فى وسط هذا الكم من الألم.

تبتسم أميرة بينما هى نصف شاردة، تداعب ذاكرتها مواقف جميلة بريئة، ضحكت لها من كل قلبها ذات يوم.

« يااااه! ليت الأيام تعود!» تهمس مغمضة العينين ذائبة.

تقفز إلى ذاكرتها فى التو تلك الصورة، التى رسمها لها إسلام عن حياتهم اليومية، بكل تفاصيلها، تعاملاتهم، صفاتهم، مميزاتهم، عيوبهم، حتى موديلات وألوان الملابس التى يفضلها كل منهم.

حتى المكان الذى يضمهم، تلك الشقة بالدور الخامس، وهو آخر دور بالعمارة حديثة البناء، وصــف لها محتوياتها بكل دقة قطعة قطعة، صــوّر لها بالتفصــيل كل غرفة من غرفها الثلاث، فكأنها رأتها بعينيّ رأسها، الصالة الصغيرة، الشرفة،المطبخ، حتى سيفون الحمام المعطل منذ فترة طويلة، ولم تفلح معه أية محاولة منهم لإصلاحه.

لم يكن بهذا الدور الخامس ســكان غيرهم، بالاضــافة إلى بعض السكان الآخرين بالأدوار الأخرى، فالحى كله حديث الميلاد، وسكانه عموماً قلة لم يزلوا.

يندهشــون جميعاً بشــدة، حينما تصــادف أياً منهم على الهاتف، ويدردش معها للحظات وتخبره بشئ قد حدث له أمس، أو ربما اليوم، أو حتى قبل لحظات.

« بســم الله الرحمن الرحيم، اشــتاتاً اشــتوت!» بمزاحٍ لطيف يقول رأفت، ذلك الشاب الأسمر النحيف إلى حد ما، وكأنها جنٌ يسكن أحد أركان الشقة، يراقب كل تفاصيل حياتهم اليومية دون أن يشعروا.

« دا الواحد يقعد بكامل ملابسه حتى فى الحمام» يقول أحمد مداعباً بمزاحة الثقيل، الذى اعتادته هى الأخرى، والذى اكتشــفت أنه طيب القلب جداً كما و صفه عماد من قبل، ذلك الشاب خمرى اللون، طويل القامة بعض الشئ فى ضخامة خالية من البدانة.

أما عادل هذا الشاب المعتدل القوام، أبيض البشرة باحمرار خفيف، أدعج العينين، بين البدانة والنحافة، دون إفراط فى الطول أو القصـر، جميل المحيا بكل المقاييس، فهو وحده حكاية وتعليقاته بديهية، سريعة جداً وقاتلة من الضـحك، يطلق عليه رفاقه « الظريف» لفرط خفة ظله بالفعل لا تهكما عليه.

أ ما عـماد فهو الوحيد ا لذى يعرف الحقيقة، فيضـحك بهدو ئه المعتاد، ثم يقول « منك لله يا إسلام!».

وإسـلام إنسـان طيب القلب إلى أبعد الحدود، لكنه لا يُحسـن التصرف، يُقحم نفسه فى حياتها بلا مبرر، ولا مراعاة لشعورها، لدرجة يمكن معها القول بأنه طفيلى لزج، لكنها تعلم جيداً انه من منطلق الحب الصادق والود الخالص.

ورغم كل شئ، ورغم كل ما يقوله القائلون، تتمنى أميرة من أعماق قلبها أن تدوم صـلتها بهم للأ بد، وحيدة هى، لم تعرف معنى كلمة « الأخ» إلا يوم أن عرفتهم، ليتهم يقدرون هذ ولا يخطئون فهمها، فهى تحبهم حقاً حبها لإخوتها، الذين لم تشأ الأقدار أن يطأوا عالمنا.

هم يعاملونها بالفعل معاملة الأخت، اعتادوا على طيبتها وحنانها وخوفها عليهم، أحبوها جميعاً حب كل غريب، لقلب عطوف حانى يحتويه، واعتادت هى عليهم وألفتهم، وغدا المستحيل بالنسبة لها، هو

أن يمر يوم دون أن تطمئن علي أخبارهم، حتى ولو عن طريق أحلام.

دامت على يقين من أنهم يشعرون بما فى قلبها نحو عماد، وأنها تتصل من أجله هو لا من أجل إسلام، ولكنهم لم يبدوا لها هذا مطلقاً،فليس من شأنهم، وهذا أجمل ما فيهم.

ما أعذبهم وأرقهم، يقضون أوقاتهم كلها فى مرح وسعادة، يحمل كل منهم حلماً أخضر بسيطاً، فى قلب أصفى من ماء النهر.

تزداد ابتسامتها قليلاً، تغمض عينيها، تهيم فى عوالم أسطورية جميلة، ترى إسلام يربط حول خصره «مريلة» المطبخ، وبيده فوطة وبالأخرى كبشة طعام، فهو أكثرهم مكوثاً بالسكن أثناء النهار، وهو المسئول تقريباً عن كل الأمور المنزلية.

يتصل بها دوما وهو يعد طعام الغداء، يدردش معها فى أمور كثيرة، تسأله عن الصنف الذى يعده اليوم، وتفاجئه بأن لديها طريقة خاصة جداً لهذا الصنف تحديداً، تجعلهم يأكلون أصابعهم وراءه، وتشرح له طريقتها العجيبة، وينخدع المسكين فى كل مرة، يسمع باندهاش كبير، ثم ينفذ فوراً وهو يكلمها حتى لا يخطئ فى شئ، وبعدها « تستاهل بقى اللى يجرالك يا سيد إسلام».

بعد هذا الغداء البشع يعاقبه رفاقه بمسح السلم أمام الشقة، وبعض الدرجات إلى أسفل، والتى تسمح لجيران الدور الرابع برؤيته وهو يقوم بهذا العمل، بينما هم يقهقهون ويحدثون جلبة طفولية مدوية.

« والنبى أمسحى كويس يا أم عبده» يقول رأفت غارقاً فى الضحك.

« ايوة يا شغّالة انتى، أصل المرة اللى فاتت كان وحش خالص» يردف عادل وهويشير إلي إسلام بسبابته بطريقة معينة، ويقلد صوت الليدى المزيفة فى الدور الثالث.

« خاللى بالك من السلمة المكسورة، لتنكسر رقبتك واحنا مش ناقصين» يعود رأفت قائلاً.

« والمية لتنزل عند الجيران يا ولية يا ام عبده» يقول أحمد وهو يضرب بيمناه على يسراه بشكل ساخر، مقلداً صوت سيدات الأحياء الشعبية، فيزلزل صوته الخشن الدرجات تحت أقدامهم جميعا.

أما إسلام فيرد عليهم بجملة واحدة لا تتغير «حاضر يا ست هانم»، بينما لا يستطيع عماد أن يمسك زمام نفسه من الضحك، فيدعوهم للدخول حتى لا يسببون إزعاجاً للجيران، ويدخل مسرعا.

ويُسمَع لضحتها رنين حزين، من ذلك المشهد الغريب لهذا الريفى الساذج إسلام، حينما تعطل تليفون الشقة، أخذ يذرع الصالة جيئة وذهاباً، يقتله الرعب كلما تصور أن والده سيتصل كعادته فى كل يوم، ولا يستطيع الرد عليه.

« يا وقعة سوده!» يحدث نفسه بصوت مسموع.

يفكر كيف يتصرف فى هذه الورطة، فوالده العمدة صارم جداً، ولم يسمع عن شئ فى الحياة اسمه التفاهم.

«وجدتها، وجدتها!» يسعفه تفكيره العبقرى أخيراً.

« ما هى التى وجدتها يا إسلام؟» يعجب رأفت ويحاول الاستفسار.

لم يجب إسلام بأكثر من « حل المعضلة» ثم نزل مهرولاً من فوره، طرق باب الجارة فى الدور الرابع، وليته أخبر رأفت بما انتوى.

يطلب من الجارة رقم تليفونها، ولم تنتظر السيدة الشابة أن يكمل كلامه، تصفق الباب فى وجهه بشدة، وهى تمطره بوابل من الشتائم، يشعر بارتجاج الأرض تحت قدميه من أثر الصفقة، يخرج رأفت وبعض الجيران الآخرين على الصياح والشتائم، ليصبح هذا الأخرق من وقتها أضحوكة الرفاق، ومضرب الأمثال فى البلاهة والعبط!

« تعال يا إسلام ادخل، ادخل» يقول رأفت وهو يمسك بيد إسلام، ويجذبه إلى الداخل.

« والله يا رأفت لم أفعل لها شيئاً!» يقول إسلام وقد هرب الدم من عروقه، وعلا وجهه شحوب الموتى.

- فلمَ تصب جام غضبها عليك هكذا، وتشنف آذان الجميع بهذه الشتائم المنتقاة؟

- فقط طلبت منها رقم التليفون.

وقبل ان يكمل إسلام كلامه، خر رأفت إلى الأرض من الضحك، وهو يضرب كفاً بكف ولم يستطع أن يملك زمام نفسه.

يغضب إسلام ويقسم أنه سيخرج حالاً، ولن يعود لو لم يكف رأفت عن هذا الضحك الجارح، يمسك رأفت بيده وهو يهم بالخروج فعلاً، بينما هو نصف مدرك، مفكك الأعصاب من شدة الضحك.

- اجلس يا إسلام لا تكن طفلاً صغيراً، أفهمني لمَ فعلت هذا؟

- حتى أعطى الرقم لوالدى ليتصل بى هناك.

لم يستطع إسلام أن يكمل كلامه، ورأفت على تلك الحال الهستيرية من الضحك فسكت لتوه، ثم انزوى فى غرفته لبعض الوقت.

يعود الر فاق الوا حد تلو الآخر، وبقدوم كل وا حد منهم تزداد الجلبة فى الشقة، وتعلو الأصوات المقهقهة حتى تصل عنان السماء.

لم يجد إسلام أمامه سوى الاندماج، مع تلك الأصوات العالية مثل كل مرة، بل والمشاركة فى ابتكار كلمات جديدة للتهكم.

«لديهم كل الحق والله يا إسلام، وهل هذا تصرف ؟ أم تحسب أنهم فى هذه المدينة الكبيرة طيبون مثلنا هنا بالبلدة؟ ساذج أنت حقاً يا إسلام!» تهمس أميرة فى نفسها ضاحكة.

أشياء وأشياء تكتظ بها ذاكرتها عنهم جميعاً، قصص وحكايات محفورة بأعماق و جدا نها، لا تخلو بالطبع من بعض الأ كاذ يب والمبالغات، هى على يقين من هذا، طالما أن الراو ية هو إسلام، والمصدر المباشر لتلك القصص والحكايات.

هى تقريباً تعرف قصة كل فرد فيهم منذ أن ترك قريته الصغيرة، وأتى لدراسة الطب بجامعة الأزهر، وسكن بهذه الشقة فى الحى العاشر بمدينة نصر.

تغيم الرؤية فى عينيها فجأة!

الشاطىء المهجور يسل

يا بحرُ أين السفن؟!

كيف ضلت ميناء الأمل؟!

يا بحرُ أين الأحبةَ؟!

أين الإياب المرتقب؟!

ذابت صخورُ المُلتقى

فلا بقاءٌ يحتمل

يا بحر

بكت السماء فما بقى

من القطرِ شيئاً للمقل

انهار حولك عالمٌ

من الروائع والمُثُلْ

بسطتَّ شراع المُتى

يابحرُ ألا ملل؟!

أيتها الغريقة تحت المطر

عودى

عودى إلى البشر

أيتها المستضيئة بالشهب

تطربُ لأناتِ السحب

تنشد درباً طمسته

أرجل النسيان

تبغى وفاءً فقدته

فى دنيا الإنسان

ترجو صفاءً ألفته

وتوحداً فى المكان

أيا رفيقة الألم

ما خُنتُ عهودك لكنى

لا أملك تجديد الذكرى

لا أقوى لعهودٍ أخرى

أيتها الغريبة على الرمال

أفيقى..

أفيقى يا أخت الخيال

قد أبقى

طائرٌ جريح

فى مهب الريح

وقد أغدو..

شهيد النسيان

الهجر..

الأحزان

لا تأسفى

هكذا بعد العناءِ يُرتَحل

أيتها الهاربة

عودى..

عودى..

لا هروب من القدر

تحتار أحلام كثيراً فى فى سر عزلة أميرة من جديد، واحتجابها هكذا عن كل ما فى الوجود.

- فقط بلِّغيها سلامى من فضلك يا ماما.

- انتظرى أوقظها تكلمك.

- لا، دعيها مستريحة، فقط كنت أطمئن عليها.

- والله يا أحلام حالها لا يسر هذه الأيام!

- هذا ما ألاحظه، لكن صدقينى يا ماما لا أعرف السبب.

- ظننتك الوحيدة التى تعرف، وأكثر من مرة حاولت أن أسـأل‍ك، لكنى فضلت أن تتكلمى أنت.

- خير يا ماما، إن شاء الله كل خير، اطمئنى واتركِ لى الأمر!

« هذا ما كنت أخشاه» تتمتم أحلام فى نفسها.

- تقولين شيئاً يا ابنتى؟

- هه؟ لا شئ يا ماما، لا شئ مطلقاً.

وتمر الأيام ومع كل اتصـــال لأحلام، تُبتكر تلقائياً حُجة جديدة لعدم رد أميرة عليها، لدرجة أن أحلام ظنت للحظة، أنها قد تكون أغضبتها دون أن تدرى.

لم تترك أحلام نفســها فريســة للظنون طويلاً، وكعادتها حين عودتها من القاهرة تمر بأميرة.

- توءم روحى وحبيبة قلبى أحلام!

- لو كنت حبيبة قلبك حقاً كنت ســألت عنى، أو حتى رددت على تليفوناتى.

- أعذرينى يا أحلام!

ولمعت عينا ها ببريق حزين، يبدو مقدمة لوصــلة جديدة من الدموع، التى مازالت بقاياها مرسومة على وجهها.

« أنا أموت من الجوع، أم أنكم صـــائمون اليوم؟» تبادرها أحلام ممازحة بسرعة.

- حبيبتى حالاً، ماما! ماما!
- بل نذهب سوياً إلى المطبخ ونجهز الطعام معاً.
- ربنا يستر!

وتردف مداعبة « اتصلى بهم من باب الاحتياط».

- من هم؟
- الإسعاف طبعاً.
- هكذا؟ سترين يا ست أميرة.
- أنت حبيبتى وأعرف جيداً أنك أمهر من أبلة نظيرة.
- شكراً! ولو أنى أشم فى كلامك رائحة تهكم حراقة.

تتبادلان المزاح طويلاً، تســترجعان أيامهما الخوالى، وقفشــاتهما اللذيذة، تجوبان آفاق الماضــى البعيد، أيام الطفولة الجميلة الرائقة، تعودان أدراجهما إلى أرض الواقع.

تطمئن أميرة على أحوال أحلام ودرا ستها، فلو أنها أكملت درا ستها الثانوية، لكانت معها الأن بالســنة الثانية بكلية الحقوق، لا، بل الآداب أو الفنون الجميلة، هى لم تفكر أبداً بالحقوق، لائقة تلك الكلية بأحلام أكثر، الأســتاذة أحلام، هـكذا تـناديها دو ماً، وهى تتخيلها بروب المحماة، فى قلب قاعة المحكمة، أمام القضاة والمستشارين.

مقنعة هى أحلام وواقعية، متزنة وعاقلة،لا تعرف الخيال مطلقاً، ربما هذا هو ســر راحتها الدائمة، التى تُعرف للوهلة الأولى فى وجهها الخمرى، الخالى من الشحوب دائما.

جميلة أحلام معتدلة القامة، تميل إلى القصــر قليلاً، رشــيقة، أنيقة، تُكَّون ملامحها المتناســقة، لوحة بديعة لوجه مصــرى أصــيل، تتراءى لأميرة دائماً ملكة فرعونية.

ورغم صعوبة السنوات الماضية على قلب أميرة، إلا أنها مرت على أية حال، وسنة وأخرى وتتخرج أحلام فى الجامعة أما هى...

« نعم، سأكمل دراستى يا عماد، وسأبدأ من الآن» تتمتم فى سرها.

- هيييييييه.. أين شردت يا توءمى العزيز؟

- إلى جامعة القاهرة، والقبة الأسطورية الرائعة، والساعة الشامخة إلى جوار كلية الآداب، حلمى القديم ،الكبير، أتذكرين يا أحلام؟!

- حقاً لابد أن تكملى دراستك يا أميرة!

- هذا ما انتويه الآن فعلاً، ولكن حدّثينى، هل جامعة عين شـــمس جميلة مثل جامعة القاهرة؟

- نعم يا أميرة هى جامعة رائعة أيضاً!

- لكنى أحب جامعة القاهرة أكثر، أشعر بقدسيتها وعظمتها، وتهزنى الرهبة بأكملى عندما أرى قبتها الرائعة فى التليفزيون، محراب للعلم حقاً!

يبدو أن الحديث عن العلم والدراســة قد راق لأميرة جداً، وزادها عزماً على تحقيق أمنيتها القديمة، وإنجاز وعدها لعماد، ولكنه لم يستطع أن يخلّص أحلام من حيرتها، ويمحو تساؤلاتها.

- قولى لى يا أميرة، هل أغضبتك فى شئ؟

- ما الذى جعلك تقولين هذا يا حبيبتى؟

- بعادك عنى فى الفترة الأخيرة.

تصمت أميرة قليلاً، تبتسم نفس الإبتسامة الهادئة ثم تهمس فى ود:

- أنت أعز وأغلى إنسانة لدى يا أحلام، ولا أريد أن أخسرك تحت أى ظرف من الظروف.

- لا أفهم قصدك!

- إسلام!

- أمازال يلاحقك؟ لست أدرى ماذا أفعل معه؟

- لا أريدك أن تفعلى شـيئا يا أحلام، فقط أعذرينى وقدِّرى موقفى ، فأنا مكتظة بالآلام، ولست بحاجة للمزيد!

- آ سفة يا أميرة! أرجوك تَقَبلى اعتذارى بالنيابة عنه، و سيكون لى معه كلام آخر، وأعدك بألا يضايقك بعد ذلك أبداً!

تحتضنها أميرة وقد لمعت فى عينيها العبرات، تربت على ظهرها:

- يا مجنونة ليس بين الأحبة اعتذار ، فلم أقل لك هذا الكلام لكى تعتذرى لى، يا عبيطة أنت تعرفين جيداً قدرك عندى، وحبى لك، فلا داعى لهذا السخف.

وتردف بنفس الحنان، محاولة تغيير دفة الحديث، الذى اتخذ منحى كئيباً، فتهمس قائلة:

- دعينا من هذه المهاترات، وأكملى الكلام عن أخبارك المملة يا مملة.

- أنا مملة يا قادمة من كوكب آخر.

تملأ ضــحكاتهما المكان، ويمر الوقت ســريعاً، وتضــطر أحلام للمغادرة قبل الليل، لكنها تنصــرف مرتاحة مطمئنة، على توءم روحها ونصفها الآخر أميرة.

« بس أما اشوفك يا اسلام» تهمس فى نفسها مغتاظة منه ومن أفعاله، وهى تســتأنف رحلة العودة إلى قريتها الصــغيرة، على بُعد كيلوات قليلة من بيت أميرة فى المدينة الصغيرة.

ترتاح نفس أميرة المتعبة القلقة شــيئاً برؤية أحلام والحديث معها، هى الوحيدة التى تفهمها وتقدر طبيعتها الرومانســية وحســاســيتها المفرطة، وإن كان هذا التقدير نسبياً بجانب فهم وتقدير عماد لها.

« بلسم أنت يا أحلام، ليتك تقر ضين بعض صفاتك تلك الر صينة وعقليتك الرزينة لإسلام، ألا يتعلم من رفاقه؟!» تهمس أميرة فى نفسها.

تطن بأذنها شكوى رأفت المُرة منه على الدوام، تـصرفاته الـصبيانية التافهة، ومعارفه المنحدرة من قاع المجتمع.

ماذا ينتظر إســلام بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره؟ هل هناك ســن للعقل بعد هذه السن؟!

لا أ حد يدرى ولا يعلم لمَ يتصــرف هـكذا، وهو ابن العـمدة ذو الحسب والنسب، صاحب الأملاك والأطيان والمال الوفير؟ ماذا

ينقصه ليكون كسائر رفاقه وينهى تعليمه، الذى أصبح عقدة العقد؟ لماذا فشل فى دراسته بكلية الطب من سنته الأولى بها؟ لماذا فشل فى كل الكليات التى تنقل بينها بعد ذلك؟ لا أحد يدرى بأى كلية هو الآن، ربما كلية التجارة، وليس أمام الجميع رغم عدم اقتناعهم، سوى تصديق زعمه بأنه بالسنة الثانية بكلية الصيدلة، ماذا ينتظر أكبر رفاقه سناً لكى ينهى دراسته بأية كلية والسلام؟!

- ما هذه الطرقات الهمجية على الباب ؟ ليست لأينا بالطبع، لحظة يا أميرة، ابقى معى على الهاتف.

يجرى رأفت مسرعاً نحو الباب، ليرحمه من هذا الطرق الهمجى ، الذى يبدو صاحبة من ساكنى الأدغال، ولم يمر به أى أدب أو لطف.

«إسلام موجود» يسأل طفل قذر الثياب والوجه، يبدو للوهلة الأولى صبى ميكانيكى، هكذا يُعرف من ملابسه المبقعة بالشحم والزيت، بينما يقف رأفت مشدوهاً، منحنياً إلى أسفل، كى يتمكن من رؤية الطارق، ومحادثته بشئ من اليُسر.

- اسمه الدكتور إسلام يا ولد!

- هو موجود، ما تخلصنا بقى.

- تأدب فى كلامك يا ولد!

- ييييييه، دا هيفلقنى.

- امش من هنا فوراً يا قليل الأدب!

- انا ماشى، بس قوله أمى عاوزاه.

- أمك؟!

- قوله أم بلية، سلااااام يا ورد.

يمسك رأفت بالسماعة مرة أخرى، وهو شارد تماماً، تشعر أميرة بوجوده فى الطرف الآخر، بيد أنها لا تتلقى كلمة.

- آلووو،آلووو!

يتنبه على صوتها يستحثه على الكلام:

- تصورى يا أميرة مَن كان بالباب؟ وعمن يسأل؟

- أتصور طبعاً.

- أنا لا أمزح، ولن تصدقى!

- بل أصدق يا دكتور.

- أتكلم جد.

- وأنا أيضا أتكلم جد، وأصدق أى شئ بالنسبة لإسلام.

- سمعت إذن؟

- ليس كل الحوار، ولكنى فهمت المضمون.

تضحك أميرة نصف ضحكة ذات مغزى، ثم تتساءل فى تخابث لذيذ وبرىء « مَن أم بلية هذه يا دكتور؟»

ويردف رأفت مغتاظاً، أكثر مما غاظه حديث ابن أم بليه هذا « تضحكين يا أميرة؟ معك حق، فمن يُصدّق أن هذه تصرفات إنسان ناضج كامل الأهلية؟!».

- ولكن لم تخبرنى من بلية هذا ومن أمه؟

- بلية هذا يا سيدتى من المفترض أنه طفل فى الثامنة من العمر.

« من المفترض؟» وتضحك نصف الضحكة، ذات المغزى البرىء إياه المتبقية من المرة السابقة.

- انتظرى يا سيدتى، فستضحكين أكثر عندما أخبرك من هى أمه، وفى أى الأماكن ينعم والده الميمون بإجازة مثيرة.

- وهل تعرف؟

- نعم يا سيدتى، فلقد سألت إسلام، وحكى لى الحدوتة، من طقطق للسلام عليكم.

- هو يعرفهم من زمن إذن؟

- يبدو هذا، فلقد جاءه بلية هذا مرات عديدة قبلاً وكانا يوشـوشـان بعضـهما، ثم ينصـرف الولد من على الباب، وبعده بدقائق يتسلل إسلام ، لكنه عندما كان يجىء وإسلام غير موجود كنت لا أخبره، حتى لو كان هنا وفتح أحدنا الباب، كنا نطرده دون أن يشعر إسلام.

- «هى وبعدين».

- الأمر ليس بهذه البساطة يا أميرة.

- أعلم يا دكتور، ولكنه كبير بما فيه الكفاية، إنه ليس معتوهاً أو سفيهاً على الأقل.

- صدقينى يا أميرة بدأت أشك فعلاً فى هذا!

- شنف آذانى بقصة بلية وعائلته التى يبدو أنها عائلة محترمة جداً!

- نهايته، أما أم بلية هذه فهى دلالة، وقال لى أنها تريد مساعدته فى عمل إنسانى.

يسكت رأفت كأنه يستنكر الكلام من جديد، وهو يستحضر الحوار الذى دار بينهما فى ذلك الوقت:

- إنسانى ؟ وما هو هذا العمل يا نصير الضعفاء، والإنسانية المعذبة؟
- لا تتهكم عليّ يا رأفت!
- قل يا إسلام.. قل فأنا أسمعك.
- تريدنى أن أذهب معها لأسهّل لها إجراءات الزيارة.
- الزيارة؟!
- زيارة زوجها فى السجن.
- ماذا؟ سجن؟ ابو بلية؟!
- لا تفهم خطأ يا رأفت، الرجل مظلوم فعلاً، أولاد الحرام دسوا له الحشيش فى بيته، وهو لا يعلم، ثم أبلغوا عنه.
- ياعينى وتلاقى أم بلية كمان ما كنتش تعرف!
- فعلا يا رأفت، لماذا لا تصدق؟

تدهش أميرة، تتحسر على حال إسلام:

- معقول يا دكتور؟! هل تدنى إ سلام إلى هذا الم ستوى؟ لو أن أحداً غيرك هو الذى يقول هذا ما صدقته أبداً.

- هى الحقيقة للأسف!

- مخطئ إسلام فى حق نفسه قبل أى أحد آخر.

ويستطرد رأفت فى سرد قصصه المؤسفة عن إسلام:

- أقرب شـــئ ليلة أمس، جاء متأخراً جداً، قال إنه كان عند محمد سستة، فى سهرة عائلية.

- ومن هذا أيضاً؟

- عاطل، فاشـــل ،متشـــرد، يدور على المقاهى المشـــبوهة، ونوادى الفيديو طول الليل، وبرغم أنه أخ لثلاث بنات، إلا أن الأمر لا يعنيه كثيراً، و كأن بيتهم ليس له باب، حتى أ مه إمرأة غريبة الأطوار، لعوب كبناتها تماماً، وكثيراً ما ينتظره أمثاله بال شقة، مع أمه وإخوته البنات دون أدنى حرج، والأغرب أن إســلام لا يجد غضــاضــة مطلقاً، فى أن يحضر لهن الخضار من السوق، ويدخل إلى المطبخ لإعداد الطعام، وهن يرحن ويجئن حوله وهو راضٍ وسعيد، هذا

- غير الســـباكين وعمال المحارة، وصِـــبية المقاهى الذين يعرفهم، وغيرهم من هذه النوعية.
- كلّمه يا دكتورمن فضلك! لا تتركه ضائعاً هكذا.
- تعبت من الكلام يا أميرة!
- جرب مرة أخرى لو لى خاطر عندك، فهو فى منزلة أخى، ويعز على نفسى جداً أن أسمع عنه هذاَ.
- سأحاول، سأحاول من أجل خاطرك!
- اشكرك يا دكتور!
- ولو أنى كنت قررت قبلاً ألا أتدخل فى أموره، فقد طلب منى ذلك، ولم يتقبل أدنى نصح، وسلى أحلام فقد شهدت نقاشنا أكثر من مرة.
- تكلمت معى أحلام فى هذا من قبل، ولكن لم نتعمق كثيراً، ولم اكن أدرى أن الأمر بهذا السوء.
- بل أكثر بكثير!
- كنت دائماً أسائل نفسى عن سر فشله، لكنى الآن فهمت!
- الفشل ليس فى دراسته فقط ، بل امتد ليشمل كل حياته.

- حقاً يا دكتور، هو الآن بأى كلية؟

- صـــدقينى لو قلت لك لا أعرف، ولا أحد فينا يعرف، حتى عماد أقربنا إليه!

- كيف؟ شئ عجيب حقاً!

- بل هى الحقيقة!

- يقولون هنا أنه بكلية الصيدلة.

- ربما!

- ولكن...

- فى الحقيقة لا احد يرى له كتاباً واحداً، ولا نراه يُذاكر مثل مَن هم فى مكانه، أو حتى يذهب إلى الكلية.

- ولكنهم هنا بالبلدة يعرفون أنه بكلية الصيدلة.

- هو يقول لهم هذا ويصدقون؟

- حتى أحلام لاتعرف؟

- أظن ذلك!

- مؤكد وإلا كانت أخبرتنى، فهى لا تُخفى عنى شـــئًيا مهما كانت خصوصيته.

عجيب أمر إسلام هذا، يبدو أنه هو الآخر حكاية، مَن هذا االإنسان الغريب؟ وكيف يهون على نفســه كل هذا الهوان؟ أحقاً قســوة والده ومسخه لشخصيته منذ الصغر هى السبب؟ ولكن كيف وصل إلى كلية الطب؟ كيف اســتطاع أصــلاً أن يتفوق فى دراســته الأولى، ويصــل إلى أروقة هذه الكلية المقدســة، المقصــورة على النوابغ؟ لابد أن الرعب الذى زرعه فى قلبه والده العمدة منذ أدرك الحياة هو الســبب، لابد أنها صرامته وحدته.

« لازم تطلع دكتور.. فاهم؟ لازم تكون أحســن منهم كلهم، انت ابن العمدة، عارف يعنى ايه ابن العمدة؟!» يقول والده فى حدة دائماً.

وهل يستطيع أحد تحمل عقاب العمدة، إذا ما سولت له نفسه أن يخالف أوامره؟ لا ينســى إســلام أبداً نظرته المرعبة، وهو يمســك بتلابيبه، ويبثه كرهه وحقده على إخوته، وأبنائهم الذى يجب أن يكون أفضــل منهم جميعاً، كره متوارث بين الأشــقاء عبر الأجيال، عائلة كبيرة جداً ومتشعبة، ضمن عدة عائلات قليلة معروفة وثرية بالمنطقة.

لا ينسى أبداً قبضته الحديدية، وهى تطبق على كتفه وتهزه فى عنف، والنظرة تزداد عمقاً، بينما تتســع حدقتا العمدة حتى تكاد تخرج مقلتاه، والشرر يتطاير منها متوعدة المسكين بشر مستطر، ويداه السمراوان الممتلئتان كجسده الضخم، تنذران بموت محقق.

«ألم تقل لك أحلام كيف يعطون له الأطعمة، وهو عائد من البلدة؟»
تعود كلمات رأفت تحاصرها.

بالطبع هى تعرف أن والدته الطيبة تقطع الآسـماك والطيور بعد تجهيزها بطريقة معينة، ليست لطيفة على أية حال، كى يتحرج من إعطائها لهؤلاء الذين يعرفهم ويستغلونه، بعدما حكت لها أحلام عن تصرفاته الهوجاء، وتدنى مستوى علاقاته ومعارفة، بيد أنه رغم كل هذا يأخذها كما هى ويعطيها لهم، ويخبرهم أنها أصبحت هكذا من طول السفر والزحام فى الحقيبة.

الأغرب من هذا كله هو دفاعه المستميت عن هؤلاء الدونيين، والإبقاء على معرفتهم مهما كلفه الأمر، ولمَ لا؟ فهو لا يشعر بوجوده إلا معهم، ويعود آخر الليل يتمطى، منتشياً، كأنه عنتر زمانه أو أبو زيد الهلالى، ربما يتعاطى شيئاً من تلك البلاوى التى يتعاطونها، بل مؤكد فالبانجو والحشيش فى جيوبهم مثل البنبون، وهو يدفع بالطبع!

الفصل الثامن
القدر الصعب

تنقضى أيام أحلام بالبلدة وتعود إلى القاهرة، وقبل ذهابها إلى المدينة الجامعية تذهب إلى إسلام، تجده وحده بالسكن، تُخرج الأطعمة التى أحضرتها معها، خارج الحقيبة حتى لا تفسد، تضع بعضها بالثلاجة ويأكلان سوياً ما تبقى.

خمس ساعات تمر بهما فى حديث طويل عن أميرة، وعلاقة أحلام بها، وأنها ليست مستعدة بعد هذا العمر الطويل، لأن تخسرها لأى سبب كان.

- أفهم قصدك يا أحلام، ولكنى...
- ولكنك ماذا يا إسلام؟!
- أحبها، أحبها يا أحلام!
- هكذا فجأة؟!
- بل طوال عمرى، وأنت تعلمين هذا جيداً.
- حب أخ لأخته، هذا ما أعلمه، وذلك لأننا تربينا معاً، وهذا أمر طبيعى.

- بل أحبها حباً حقيقاً، حب من نوع آخر، هذه هى الحقيقة يا أحلام.

- إن يكن، فأين كنت عندما تزوجت أول مرة؟ لماذا لم تنقذها؟

- ضيّعها منى حلم العمدة «أبو الدكتور»، لم أجرؤ وقتها على الكلام، فأنت أكثر العارفين بأبيك، ومن يجرؤ على مخالفة أمره؟

- إذن فأنت لا تستحقها!

- لا تكونى قاسية يا أحلام!

- ثم هؤلاء البنات اللائى تعرفهن؟

- كل هذا كلام فارغ، علاقات طيارى، لكن أميرة هى حبى الحقيقى والوحيد.

- بل قل أنك تغار من عماد، وتريد أن تفسد ما بينهما، إنها تحبه، تحبه يا إسلام!

يصمت إسلام وكأنما صُدم، لكنه لم يفاجأ بالقطع، فكل تصرفاتها تذيع هذا الحب بكل و ضوح، وها هو الآن تأكد من أحلام، يبدو كأنما يحاول جمع شتات نفسه، ولملمة مشاعرة المتناثرة:

- لكنى أعرفها وأحبها قبله، ولست مستعداً للتنازل عنها من أجل أى إنسان.

- لا يا إســلام، يجب أن تكون عاقلاً أكثر من هذا، ليس هذا لعب عيال.

- وهل فى الحب عقل؟

- وأين كبرياؤك؟ أين كرامتك؟!

- أحبها!

- لكنها تحب شخصاً آخر!

يســكت إســلام طويلاً، كأنما يفكر فى كلام أحلام، الذى يبدو أكثر منطقية وعقلاً.

« معك حق فعلاً يا أحلام» يهمس مختنقاً بالبكاء.

- يعنى أعتبر الموضوع انتهى؟

- هو كذلك يا أحلام، هو كذلك!

تدق الـساعة الخامـسة، تلملم أحلام أشياءها استعداداً للمغادرة، ويقوم إسلام ليوصلها.

تتصــل أحلام فى اليوم التالى بتوءم روحها، وصــديقة عمرها أميرة، لتخبرها بما دار بينها وبين إسلام أمس.

« الحمد لله! كابوس وانزاح!» تتمتم أميرة فى نفسـها، ثم تهمس بصوت مرتفع « تحيا أحلام! تحيا أحلام!».

وتمر الأيام الطويلة والأسـابيع، وإسـلام يحاول الإلتزام بكلامه، يرى أميرة فى المحطة بالمصـادفة أثناء رحلته إلى البلدة، وهى عائدة من بيت جدها بالقرية، يسـلم عليها بلطف وأدب، هو مؤدب وطيب لكنها شعرت بأنه أيضاً قد تغير بالفعل بسبب كلام احلام، وأن كل شئ على ما يرام.

« أخيراً تفهمت الموقف يا إسـلام!» تهمس فى سـرها، ثم تردف فى سرها أيضاً « شكراً لك ألف شكر يا أحلام!».

تشـعر بالراحة كثيراً لرؤيته على هذه الحال، يشـجعها ذلك على أن تطلب منه أن يسـلم أمانة لعماد، يوافق على مضـض لم يُبده لها، حتى لا يُفسد صورته الجديدة أمامها، يخبرها بموعد عودته إلى القاهرة، تنتظره بالمحطة، على بُعد أمتار قليلة من بيتها بالمدينة الصـغيرة، تعطيه لفة مزركشـة ، تبدو مزيجاً رائعاً من الألوان والورود، تغرى حاملها رغماً عنه بفتحها، أو حجبها كلية عمن أُر سلت إليه، يأخذها إ سلام مضطراً ويبدو أنها قد ا ستفزت مشاعره، بهذه الرقة المفرطة دون أن تدرى، فلم تقصـد أبداً إثارة غيرته ولم تتكلف شـيئاً ليس فيها، يبدو إسـلام واجماً عبوسـاً للحظة، يتذكر كلامه لإحلام فيكظم غيظه ويكتم غيرته، يسـلم عليها مودعاً، يغيب بسرعة البرق بين الزحام.

تمر الساعات بأميرة مليلة متعبة، تتصل فى اليوم التالى، لتطمئن على بعضـها المرسـل مع إسـلام، ولأول مرة منذ الصـدفة الأولى يرد عليها عماد دون وسيط، وبلا أية مقدمات.

- انتظر مكالمتك طول اليوم.
- وهل تعلم أنى سأتصل.
- لأنك أميرة، وأنا عماد.
- صدقت يا دكتور!
- لا أعرف كيف أشـكرك، على اهتـما مك وإرسـا لك ا لديوان والأوراق.
- تشكرنى؟!
- حقاً لا توجد كلمة تعبر عما بداخلى الآن، لكنى سأعبر مضطراً مثل كل البشر، مستخدماً تلك الكلمة التى أعرفها « شكراً!».

يـصمت برهة، ولم تعرف أميرة بما ترد، غير أنها سعيدة أكثر من أى وقت مضى فى حياتها، وأكثر من أى إنسان على وجه الأرض.

« شـــكراً للقدر مليون شـــكر الذى أتاح لى فرصـــة لقائك، ولو عبر الهاتف!» يردف هامساً.

- بل أنا التى أشـــكر القدر ملايين المرات، وأصـــلى لله طوال عمرى، لأ نه منحنى هذه الصـــد فة الرائعة، التى غيرت مجرى حياتى، وجعلتنى أعلم أن هناك مَن، أقصـــد ما يســـتحق أن أعيش من أجله بعد طول يأس واكتئاب.

يضـــع الأوراق أمامه، ينظر إليها بلا انقطاع ، يحتضـــنها ، يتشـــممها بعمق، تفوح رائحة عطرها الرقيق، من بين ثنايا الأحرف، تعبق المكان حوله، لم يشـــم فى حياته أزكى من هذا العطر، الذى يخلب لبه ويأخذه من مكانه إلى دنيا يفتقدها، يتمنى لو يرتمى تواً فى حضـــنها، يبكى كما الأطفال على صدرها، معتذراً عن أشياء كثيرة لم يفعلها، وذنوب جسيمة لم يرتكبها.

- أعادتنى كلماتك إلى ذاتى، كأنك تتحدثين بلســـان حالى، لم أتمالك نفســـى ولهفتى لقراءتها، رغم ما كان يحيط بى وقتها من ضـــغوط العمل، لم أ ستطع أن أفارقها قبل النهاية بكلمة واحدة، حملتنى كثيراً إلى لوراء، لأ جد نفســـى كم كنت جا فاً وربما حاداً، لكنى كنت مدفو عاً إلى هذا خو فاً عليك ود فا عاً عنك، و هذا كل ما أود أن تعرفيه، لكنى لن أسامح نفسى على أى قلق أو ألم سببته لك.

تسـمعه أميرة فى صـمت لا تسـتطيع الخروج عنه، وإلا نمَّ صـوتها الباكى المهزوم عما تعيش فيه من عذاب، ربما لا يكون هو بريء منه بالفعل.

- أين شردتِ ؟
- أسمعك يا دكتور!

يقلِّب فى أوراقها، تقع عيناه على كلماتها، التى تكاد تنطق بين يديه، تصرخ بمعانٍ ليست إلا منتهى العشق.

يا مليكى..

لستُ أنساك لحظة

ولديك ما بالُ الذكرى

قد هانت وأدمنت الهجرَ

أقصر كما شئتَ فإنى

لا أملك قصراً أو هجرا

يا مليكى..

خاب ظنٌ أوهمكَ

بأنى يوماً قد أنسى

أو أن الهجر سيحملنى

لرحيلٍ أو بتر الذكرى

يا مليكى..

عاهدت عيونك بالغيبِ

لا أسبحُ فى عيونٍ أخرى

واعتدتُ وفاءً لعهودى

لا أملُّ عزاءً أو صبرا

يا مليكى..

لست مجرد إنسانٍ

قد يُنسى فى زحام الوقتِ

أنت جذورٌ لفروعى

تسقينى الطيب والطهرَ

سجلُ يحملُ تاريخى

عقيدة لا تقبلُ شكا

حقيقة وحيدة فى زيفى

براءة أُقدسها العمرَ

يا مليكى..

أنت مكينٌ من قلبى

كطفلٍ مغفورِ الذنبِ

تهدينى سفرا

تهدينى هجرا

تهدينى عذرا

دمت لى قدرا

« شكراً وكفى، فدوائر فكرى متداخلة وصعب جدا التوحد فى إحداها، كما هو صعب أيضاً إيجاد ما يليق بهذا الكم الهائل من العطاء، شكراً وكفى، وكنت أتمنى أن أرقى إلى مستوى السمو الروحى، الذى تحتلين مكاناً فى قمته، شكراً وكفى لذلك الملاك الذى بداخلك

وشاءت ظروف غريبة الالتقاء به، ورنين صوته يتردد فى أذنى فى كل حين مثل وتر العود، فى ترنيمات حزينة جداً وجميلة جداً ، شكراً وكفى، شكراً وسلاما!» يقول ثم يغيب صوته عبر الأثير.

ودائماً هناك آخر، هناك دو ماً و قت فراق، و قد حان، و قد كان، ورغم كل الأ سئلة والا ستفسارات التى تكتظ بها أعماق أميرة، لم يكن أمامها سوى الإبقاء عليها كامنة بالأعماق ورد السلام!

ابتلعت أسـئلتها وهى تتمنى لو تعلم يو ماً، كيف أن بعاده عنها، وتغيره معها خوفاً عليها ودفاعاً عنها؟!

« لابد أنه شـئ ملفق لا يسـتحق منك كل هذا الحزن، الكامن وراء نبراتك الحنونة يا أعز وأغلى من صادفت، وعرفت، وأحببت فى حياتى» تهمس فى نفسها باكية!

لم يكن أ مامها سـوى الانتظار، ربما يفاتحها هو ويخبر ها يو ماً، ولكن الأقدار ظلت على عنادها.

يتباعد هو من جديد، وتتباعد هى من جديد، تعود للأيام كآبتها، تعود للمساء أوجاعه وآلامه، تعود للدنيا ملالتها وقسوتها.

«الشــئ الوحيد الذى يريحنى، هو أن أعرف ما هذا الشــئ، الذى من الممكن أن يبعدك عنى غير الموت؟ حتى الموت بكل جبروته لا يمكن أن يفرقنا!» تقول منفجرة بالبكاء، وتكاد الأفكار والتساؤلات تذرى بها.

تمضى أسابيع طويلة، والكآبة ترخى سدولها على عالمها، والحزن يسرق أيامها دون أن تدرى أو حتى تهتم.

عشت أحلم دوما

بربيعٍ يأتى يوما

تمضى الأيام دولاً

بجراحٍ يعقبها ألما

يراود جوانحى السُكنى

ويصارع بداخلى حلما

فأحيا بالعذاب زمنا

قلباً وعيوناً تدمى

تداعب خاطرى الذكرى

وتعبث بقلبى جما

عليك قلبى أم الدنيا

أم الأيام أُلقى اللوما

معذرةً فربما أنى

أحاول النسيان زعما

غدا رنين الهاتف يفزعها، حتى إن الألة فى حد ذاتها، باتت مصـــدراً لتلف أعصابها أكثر مما هى، ولو بدون رنين.

« مَن عســـاه يكون المتصـــل، ياربى أما من مجيب على هذا النفير ليريح أعصابى؟ أين أنت يا أمى؟ رحماك يارب!» تقول متبرمة من رنين الهاتف المزعج وتزفر زهقاً من الدنيا كلها.

- حسبت أن التليفون معطل من كثرة الرنين دون رد.
- أهلا إسلام!
- من فضلك يا أميرة أود أن تسدى لى خدمة!
- طلباتك أوامر يا إسلام.
- ستُحضر لك أختى أسماء بعض الأوراق، قابلينى بها فى المحطة، الثانية ظهراً، ضرورى جداً.

- أوراق؟

- أوراق مهمة تريدها إدارة الكلية، خاصة بالموقف من الخدمة العسكرية وخلافه، وقد اتصلت بهم فى البيت، وستحضرها لك اسماء ربما بعد دقائق.

- فهمت الآن، سأكون هناك فى الموعد إن شاء الله!

- اشكرك يا أميرة!

- لا شكر بين الأخوة يا أستاذ.

وبهذا يضرب إسلام عصفورين بحجر واحد، يرى أميرة وأيضاً يرحم نفسه من قسوة وفظاظة العمدة، ليته لا يذهب هناك مطلقاً!

يوبخه دائماً ولا أحد يدرى لمَ يفعل هذا معه؟ ولمَ يعامله بكل هذه القسوة؟!

تفهم أميرة ذلك ولم ترد أن تُحرجه أو تجرحه، فقط انتظرت الصغيرة أسماء القادمة بالأوراق.

«معذور إسلام، فوالده العمدة فظ غليظ القلب، ربما هو الآخر معذور فهو كأى أب يريد أن يرى ابنه الوحيد فى أعلى مكانة» تهمس فى نفسها.

« ولكنه يوبخه أمام الجميع على فشـــله فى الدراســـة، ويعيره بأبناء عمومته الذين هم أصغر منه سناً، وأصبح كل منهم يحمل لقباً محترماً قبل اســمه، فلقد تخرجوا فى الجامعة قبله وعملوا أيضـاً، ربما هو حقد أكثر من كونه أى شـــئ آخر، فهذه العائلة غريبة جداً، وليســـت مترابطة مثل كل العائلات الكبيرة الثرية، المعروفة فى المنطقة، فالعداء منصـوباً بين أفرادها على الدوام!» تردف مستنكرة.

ثم تقول بصوت عالٍ فيه بعض الحدة «مالى وهذا كله، لقد أصبحت أكثر سخافة وتدخلاً فى شئون الغير يا أميرة، لا، لا أحب هذا، مالنا نحن وشئون الآخرين؟!».

وعلى امتداد ســاعات الســفر، تدور بذاكرة إســلام أشـياء متداخلة مرهقة، فهو على أية حال ليس سعيداً اليوم، مثل كل الأيام التى كان يرى فيها أميرة، أو حتى يستعد لرؤيتها بعد أيام.

«ماذا أفعل أكثر من هذا لأجعلك بنى آدم وســط الناس» تمر فجأة بخاطره تلك الكلمات القاسية لأبيه العمدة.

تنتظره أميرة بالمحطة، المجاورة لبيتها بالأوراق المطلوبة، يلوِّح لها على البعد، يصـــافحها بحرارة، يجلس إلى جوارها على المقعد الخشـــبى العتيق، الكائن على الرصيف الأيمن للمحطة، ليستريح قليلاً قبل الشروع

فى العودة، بينما لم يتخلص بعد من حز نه ا لدفين، وكلمات العمدة القا سية، التى مازالت تذبح شرايينه، وتئد بداخلة كل محاولة للـ سرور فى مهدها.

يضع الجاكيت الجلد الأسود إلى جواره من الناحية الأخرى، يتصبب عرقاً رغم الجو الشتوى البارد، وسماء يناير الغائمة تُنذر بأمطارغزيزة، يبدأ هو الحد يث متسائلاً عن أخبار ها، تباد له نفس التساؤلات، يتطرق الحديث بقصد منها إلى سيرة عماد، يتمالك نفسه، يرد بدبلوما سية مكتسبة حديثاً من عماد على ما يبدو من طريقة الكلام، وأيضاً كيا سة دخيلة على طباعة من نفس المصدر، يتمادى بلا ضرورة فى سرد القصص والحكايات بينه وبين عماد، ربما ليبدى لها مدى صداقتهما وهذا بالطبع له مغزاه.

جعل يعدد صفات عماد الجميلة والنبيلة التى تفوق الوصف، كانت أميرة على يقين من أن عماد كما يصفه إسلام وأكثر بكثير، وأنه أبعد ما يكون عن هذا اللؤم الذى اكتشفته فى إسلام تواً، فعماد لا يعرف المراوغة ولا الطرق الملتوية كما هو إسلام الآن.

« جميل! آدام الله عليكما هذه المحبة!» تتصنع الاهتمام بكلامه.

يشعر إسلام بأن أميرة ازدادت عزما، وإصراراً على البعاد ألف مرة عن السابق، ولم تدر أميرة من أين جاءه هذا الشعور لكنها تركته هانئاً به.

« عماد ليس صديقى فقط، بل هو حبيبى، تصورى يا أميرة حدثته ليلة أمس عنك وأننا تربينا وكبرنا معاً» يتمادى فى سرد حكاياته أكثر وأكثر.

« صفه لى يا إسلام» تخرج عن صمتها فجأة، وكأنها لم تكن تسمع ما يقوله.

- هو إنسان عادى مثل كل الناس.

- بدقة أكثر، شكله، لبسه، طريقة كلامه.

- وهل هذا يهمك كثيراً؟!

- يعنى.

يصمت إسلام برهة كأنه يبحث عما سيقوله:

- هو أسمر، بدين جداً، لكنه طيب القلب كما تعلمين، وجهه عريض، به ندبات عميقة تشبه آثار الجدرى، ملامحه كبيرة بعض الشئ، عيناه سودوان ضيقتان بِحَوّلٍ خفيف، حمراوان على الدوام، لبسه عادى جداً، وطريقة كلامه تعرفينها جذابة ومقنعة.

لم يكن صمتها صدمة مفاجئة من ذلك الوصف، الذى وصفه إ سلام، وإنما لتهمس فى سرها « كذبت يا إ سلام إلا فى و صف طريقة كلامه وذلك لأنى أعرفها جيداً».

بينما هو يردف: « لكنه إنسـان وقلبه كبير ونظيف، وأنا أحترمه جداً وأحبه».

- هه؟ آه، أعرف، أعرف، يبدو ذلك بالفعل.

يعود يذّكرها بحديثه عنها مع عماد، وعن تلك الأيام الخوالى، أيام البراءة الأولى.

- كنت أحدّثه عنك، وشـريط طفولتنا يمر أمام عينى، وكأننى مازلت أعيشها، أيام جميلة غالية.. آهٍ لو تعود!

- أو مازلت تذكرها؟!

- بل أعيشها بكل ذرة من كيانى!

- ألهذه الدرجة؟!

- وأكثر بكثير يا أميرة!

« آهٍ يا إسـلام! آهٍ لو عدت لضـلالك القديم!» يعود القلق يلعب بقلبها، ثم تتنبه من شرودها على صوته.

- أتذكرين يا أميرة؟ طفلين كنا، بريئين، نلهو ونلعب فى صـفاء، نركض عبر الحقول، نطارد أشعة الشمس مثل الفراشات.

«ولكنك أكبر منى بأكثر من عشر سنوات، لا تنسى» تقولها مازحة، وهاربة من نظرته، التى رقت لدرجة خشـيت معها أن ينسى كلامه لأحلام، ويعود لسيرته الأولى.

- لم نكن وحدنا، أنسيت أحلام وحسين وعفاف، وبقية أطفال القرية.

- لم أكن أرى فيهم سواك.

« هذا ليس مطمئناً أبداً» تهمس فى نفسـها من جديد، ثم تردف بصوت مسموع.

- تبالغ أنت دائما يا إسلام، لا بأس يا سيدى.

- بل أصدقك القول، آهٍ لو تصديقنى!

تضع أميرة يدها على فيها وكأنها تذكرت لتوها شيئاً مرعباً:

- وعم شعلان شيخ الخفر، أتذكره؟ عين وأذن أبيك العمدة، كم كان منظره مرعباً؟ ضخم البنيان جداً، يبدو على البعد شبحاً عملاقاً، كالغول بهلول، أوالأ شكيف المخيف، الذى كانت تحكى عنه جدتى فى حواديتها، كم كان يرعبنى شاربه الكث؟ الذى يغطى معظم وجهه، الخشن الملامح ، الأسمر الضارب إلى حمرة محروقة من أثر الشمس، وزئيره الذى يزلزل الدنيا كلها!« ها، مين هناك»، يا ماما!

وتخفى وجهها بين كفيها، فى حركة طفولية لذيذة، ويبدو ان هذا الحديث قد راق لها بالفعل، وأدخل على نفسـها المحزونة بعض السرور، وأيضاً شغل إسلام عما كان ينحدر نحوه، فتردف مبتهجة:

- وعندما كنا نختبئ وراء السلاحليك ننتظر وردية عم أبو زيد.

- كنت تسرق بندقيته يا حرامى، بينما يغط فى نوم عميق كأنه ميت!

- كنت أخفيها تحت كومة القش خلف السـلاحليك، ثم نرقب معاً العجوز من خلف الحائط وهو يموت رعباً عندما يستيقظ !

كان العجوز يصيح ويولول « يا سنة سوده ياولاد أقول ايه لحضرة العمدة، ده هيقطعنى حتت ويرمينى للكلاب، دا سـلاح ميرى يا ناس ، دى حكومة يا عالم!».

وتكمل أميرة بنفس المشـاعر الجملية، الممزوجة بصـفاء وبراءة أسعد مراحل العمر.

- عفريت من يومك يا إسلام!

- ولكنك كنت دائما متعاطفة مع هذا العجوز، الذى أكل الدهر عليه وشرب وتكشفين أمرى فى كل مرة.

وبعد أن اعتاد العجوز تلك المداعبات الطفولية البريئة منهما، لم يعد يثور ثورته الأولى ، بل كان يبرطم «عملتوها تانى يا عفاريت، مش هتفلتوا من ايدى» وعندما يمسـك بهما يقبلهما بحب وحنان الجد، ويدعو لهما بالهناء وطول العمر!

- آه يا إسلام! وهل كل ذلك يُنسى؟!
- وما الذى تغير يا أميرة؟
- كل شئ فينا تغير يا إسلام، فقد كبرنا، كبرنا جداً.
- لكنى لم أتغير أبدا، فأنت كما أنت بقلبى!
- وأنت بقلبى أيضاً يا إسلام!
- صحيح يا أميرة ، أنا بقلبك؟!
- بالطبع يا أستاذ، أم أنك لا تعرف أختك أميرة جيداً؟
- أختى؟!

ويستدرك بسرعة:

- بل أعرفك أكثر من نفسـى، وأفعل أى شـئ فى الوجود من أجل الاحتفاظ بك.

ويردف بنفس النبرة الحنونة:

- غالية أنت يا أميرة ، غالية جداً، جداً!

- وانتم جميعاً يا إســلام بنفس المعزة فى قلبى، فمنذ أدركنا الحياة والصداقة تجمع بين والدتينا، فكأنهما أختين شقيقتين، ولقد أخذنا عنهما هذا الود والإخلاص.

- حقاً يا أميرة فأمى تعتبرك ابنتها الســادســة، وكذلك والدتك أماً لشيقيقاتى الخمس.

وبنبرة أكثر حناناً وهدوءاً تؤكد أميرة:

– هكذا أنتم جميعاً لدى، ويجب ألا تنسى ذلك أبداً.

- لم أنس أبداً يا أميرة، ولن أنسى يوماً، ولكنى...

- ولكنك ماذا يا أستاذ؟

- لاشئ، لا شئ!

- هذا هو أخى الغالى إسلام!

تعود لتساؤلاتها عن عماد، ويعود هو لمديحه وإطرائه لأخلاقه النبيلة، يمسك بالجاكيت الذى بجواره:

- أتعلمين جاكيت من هذا؟

- جاكيت الجيران، عجيب أمرك يا إسلام!

- ليس بالضبط، ولكنه ...

- ولكنه ماذا يا ظريف؟

لم تتوقع مطلقاً ما سيقوله، ولم يدر بخلدها لحظة «وهل هذا وقت تهريج؟»

- إنه جاكيت عماد.

يغيب صوت إسلام عن أذنيها تماماً، فلم تسمع بقية ما قاله عن إصرار عماد أن يعطيه الجاكيت، خوفاً أن تمطر الدنيا.

علق بصرها بالجاكيت وأبى أن يتحول، يبدو من مظهره الرائع وفخامته أن صاحبه يتمتع بذوق بديع، لا يمتلكه إلا إنسان فى مثل رقة عماد، كما يبدو أيضاً أن مقاسه أقل من مقاس إسلام بنمرتين، وهذا يحدد لها تقريباً أن عماد أقل من إسلام فى الطول بمقدار خمسة سنتيمترات، كما أنه ليس بالبدين مطلقاً، بل هو أميل إلى النحافة أكثر،

فإســلام بين ذلك فليس بالبدين ولا بالنحيف، طويل إلى حد ما، فطوله حوالى ثمانين سنتيمتراً فوق المائة.

« ذوق رائع وقوام معتدل، مؤكد الشكل هو الآخر مختلف، ليس أبداً كما وصــفه إســلام .. حتى ولو كان كما وصــف فلا يهم، إننى أحبه هو، روحه النقية، صــفاته النبيلة، رقته نادرة الوجود» تهمس فى ســرها، ثم تهب واقفة دون أن تدرى، تنسى كل ما كان، وكل ما قيل ،كل شئ، وأى شئ.

تضــم الجاكيت ضــمة ذات معنى، تنســيها حدود المكان والزمان، تحس بكل كيانها أنه هو الذى بين يديها، وأمام عينيها بشــحمه ولحمه، تكلمه وجهاً لوجه لا عبر الهاتف.

كانت كل أمنياتها أن تحاوره، ولو لدقائق قليلة على بُعد آلاف الاميال، ولم تجرؤ أحلامها بأن تخامرها بلقاءٍ مكتمل، يضــمهما ســوياً والمكان والزمان، أو أنها تلمس شيئاً يخصه، أو تراه فى يوم من الأيام.

ودون أن تدرى تُقبِّل الجاكيت، تســأله عن صــاحبه، تبكى، تعاتبه: «أنت أيها الجاكيت الأصم أقرب إلى حبيبى منى، تحضتنه ويحتضنك أوقات طويلة، تســعد بلمســاته الحانية، تذهب وتجئ وتترحل معه فى كل مكان دون قيود، ما أتعسنى! ما أصعب قدرى!».

يكاد يطير قلبها من مكانه، وتكاد تنطق كل ذرة فى كيانها، أحبه، أحبه! تكاد تيبس دماها فى عروقها من رهبة اللقاء، تكاد تشى أو صالها المرتعدة للعالم أجمع ،بعجزها عن تحمل الحنين.

يذهب الصبر من أعماقها بلا رجعة، تاركاً شفتيها ملتصقة بالجاكيت بقوة، لا تستطيع معها انتزاعها أو حتى تحريكهما عنه، بينما تذوب كل ذرة فى كيانها عشقاً.

« ما اجمل أن أكون مع بعضٍ يخصه، فكأنه تعويض القدر لى عن كل العذاب، الذى أعيشه فى بعاده، شكراً أيها القدر الرحيم!» تهمس فى نفسها غير مدركة.

يمر وقت طويل وهى شاردة، لم تدر كم؟ غير أنها لا تود أبداً أن تفيق:

- بلِّغ صاحبك وحبيب قلبى منى السلام، خبَّره أنى أذوب شوقاً وحنيناً وعشقاً، لا تفتن له عن دموعى وعذابى، لا تزعجه بأخبارى المؤلمة، طمئنه على الذكرى والوفاء، قبِّل لى ملائكيته!

تتنبه على صورة إسلام يتضاحك، وقد علا صوته بعض الشئ، يبدو أنه فعلها قبلاً ولم تفطن له، أو هى لم تره داعياً مقنعاً، لأن تترك عالمها وحبيبها وتهرول إليه، ولو حتى من باب الخجل، يجذب إسلام

الجاكيت بطريقة عصبية، يقصد مزاحاً مزعوماً لاحتواء الموقف، وتجاوزه سريعاً، لكن عينيه المليئتان بالغيرة تؤكدان عكس ذلك تماماً، فقد تضامنت مع ضحكاته الزائفة لكشف المكنون.

يتظاهر بعدم الاكتراث، ولم يعلق مطلقاً على ما حدث، يهرب مهرولاً إلى موضوع آخر، خشية أن تعاود الحديث عن عماد، اخترع موضوعاً آخر غير منسق التفاصيل، يفشل فى الاستمرار فى الكلام فيه، أمام شرودها هذا الرهيب، الذى ظل يسيطرعليها ويأخذها كليةً إليه.

- هل أكلم نفسى يا أميرة؟!

- هه؟ ماذا؟!

- يبدو أنك ذهبت بعيداً جداً!

- ألديه مناوبة الليلة؟

- مَن؟

- عماد.

ولم يســتطع إســلام إنكار الحقيقة أو تزييفها، فهو على يقين من أنها ستتصل لامحالة مهما أخبرها.

- بل بالشقة.

- أفكر فى الاتصال به، أريد شيئاً يخصنى لديه.

وما هذا إلا حُجةً لسماع صوته، بعد أن أصبحت مشاعرها مشحونة بهذا الكم الرهيب من الحنين، على إثر حديثها مع إسلام عنه.

يتغير وجه إسـلام تماما ويكسـوه الوجوم ، يثور ثورة عارمة لم تتوقعها مطلقاً، وبخاصـة بعد أن صـدّقت بالفعل أنه قد تغير، وأصـبح أكثر لطفاً وكياســة، ولكن يبدو أنه فاض به الكيل بالفعل، ولم يعد يحتمل، فجعل يعبرعما بداخله بهذا الانفجار المفاجئ:

- لا تفعلى يا أميرة، فلن يكترث بك، سيتجاهلك.

بينما تنظر إليه متعجبة، كيف غيَّر كلامه الجميل عن عماد منذ أن جلسا؟ يشعر بالخجل من رعونته، وتهدأ نبرته الغاضبة كثيراً.

- أخشى أن يجرحك بكلمة يا أميرة، وهذا مالا أحتمله.

تبتسم أميرة مستنكرة « مَن؟ عماد؟!».

ينصـــرف كلٌ إلى طريقه، وقد أيقنت أميرة أن تغير إســـلام ، وتفهمه للموقف، هو المســـتحيل ذاته، وســـاورها الشـــك فى أنه وراء كل هذا الهجر، الذى يخيم على سمائها، وأنه قد يكون السبب المبا شر فى تغير عماد، ثم تتذكر فجأة ذلك الشئ الخفى الذى يحجبه عماد.

« قد تكون مجرد ظنون، أرجو ذلك!» تحدث نفسها فى حيرة.

وعلى عكس المنطق تبدو عاذرة لإســـلام، ومشـــفقة عليه بصـــورة كبيرة، بيد أنها لم تُبد تعاطفها هذا له، حتى لا يعود ينسج أوهاماً، أو يبنى قصوراً على الرمال.

تفاجأ بمكالمة من إسلام، لحظة وصولها البيت، كان يتصل بها من المحطة، قبل أن يغادر.. جعل يعتذر لها منكسراً عما بدر منه، ويخبرها أنه سيحضر لها بنفسه ما تريد من عماد.

تمر الســـاعات تجتر بعضـــها البعض ببطء ورتابة، مليلة جداً، ثقلية جداً، لم تستطع أميرة تجاهل كلام إسلام، وتلقى به إلى حيز اللاوجود، تشعر فعلاً بالذنب الكبير، الذى ارتكبته دون قصد فى حق إسلام، الذى لا ذنب له إلا أنه يحبها كل هذا الحب، لم تفكر فى شـــئ طوال الوقت سوى مشاعره المجروحة.

«كانا صـــديقين قبل أن أعرف عماد، ويجب أن يظلا كذلك للأبد، مهما كلفنى ذلك، حتى ولو كان الثمن قلبى، وحبى، وحلم عمرى» تهمس حيرى ممزقة الوجدان.

«لا تخف يا إســلام فلن أبقى بينكما، ســأنســحب من حياتكما فى هدوء!» تردف باكية.

ودون أن تدرى أو تقصد، تفعل نفس فعلة عماد، وتقرر التضحية، ثم تغرق فى دموعها الملتهبة، كمياة جدول تحت شمس يوم قائظ.

الفصل التاسع
حمامة سلام

ويظل المرء يبحث دوما عن إجابة لتساؤلاته، وبخاصة عندما تؤرق قلبه وجفنه، ويغدو بلا قدرة على تحملها، ربما يضيع العمر وهو مازال يسأل ولا مجيب، وربما يأتيه الجواب فى صدفة، وبعد يأس وطرحة.

وتظل أميرة مشحونة بنفس الكم من المساعر والحنين، تحاول جاهدة أن تتحاشى محادثته، لكنها تفشل فى منع يدها من الإمساك بالهاتف، تود بلهفة أن تودعه وتسمع صوته لآخر مرة فى حياتها، وفى صمت دون أن يدرى!

وحده هو بالسكن ، تهادى إلى أذنها صوته، الذى اشتاقت إليه طويلا، لم تنطق بكلمة، واكتفت بالذوبان فى نبراته الحنونة!

« آهٍ لو تعود الأيام للصدفة الأولى! آهٍ لو تعلم كم أذوب فى ذاتك وأفنى! ليتنى ما عرفتك! ليتك لم تكن موجوداً ليلتها!» تهمس فى سرها، بينما تلمع عيناها بالعبرات.

موقفٌ للحياةِ منى
عهدٌ عليها تظلمنى

طريدٌ على دربها عمرى
لأيامٍ ممسوخةٍ تنبذنى

على أشلاء حلمٍ أمضى
مزقه الخطبُ وروعنى

تصحبنى فى سفرى شِقوة
وحزنٌ وفىٌ يألفنى

خلفى ماضٍ عذبنى
وأمامى حاضرٌ يرفضنى

حولى تحدٍ أوعدنى

ويأسٍ عن كثبٍ يرقبنى

أطلال روحٍ هى ذاتى

ينكرها حسى ويجهلنى

تتنبه قليلا لتدرك أنه لم يضع السماعة بعد، يمتلئ قلبه إحساساً بأنها هى، يتبادلان الصمت طويلا، يأمل أن ترد لكنها تصر على صمتها وعزمها.

« أميرة! أميرة ! ردى علىّ يا أميرة» يناديها باسمها.

تنساب دموعها فى صمت، وهى تحجز أنفاسها اللاهثة، وتحاول التماسك، تحتضن أذنها قدر ما تستطيع من همساته، لتكون عوناً لها على وحشة الأيام القادمة، ظل يهمس ويهمس وهى تجمع همساته زاداً وعتاداً للآتى.

« لا يمكن أن يكون هذا الصمت إلا لك أميرة» يهمس، وتجمع همساته.

يسكت يأساً، وتضع السماعة ببطء شديد، كأنه حشاشة نازع، يهمد بعده فيها كل حس.

عندما ُيسدل ستار النهاية

نقفُ..

على حافة التساؤل

ننزف الدمعَ

ننعى المشاعر

نناشد الأقدار جوابا

فتطغى الحيرة

وهيهات يُجابُ سائل

لتكون بداية

محض بداية

أيام طويلة تسلم بعضها بعضاً، وتنطوى على أية حال، لا تعرف ولا تهتم بأى شىء تمضى، ولا بأى شىء تأتى، غير أنه وجه واحد للدنيا، مكفهر عابس يطالعها فى كل يوم.

وذات مساء بعيد عن مساءاتهما الجميلة الحالمة، تتصل لتحاور إسلام قليلا، وما إسلام إلا مجرد جواز مرور إلى هذا المكان، الذى

شهد مولد قصتها مع حبيب عمرها عماد، ومولدها ذاته من جديد، مع هذه الصدفة الجميلة.

شـطبت تاريخ ميلادها من الذاكرة، بل محته تماماً فلم تعد تذكره، وأصبح لقاؤها الأول بعماد، هو نفسه تاريخ ميلادها، لم يعد يوم السابع من نوفمبر يعنى لها شـيئاً، و غدا بلا أدنى قيمة، قررت منذ اللحظة الأولى، لدخول عماد عالمها، أن تحتفل بهذا اليوم من كل عام عيداً لهما معاً، و بالفعل بدأت تحلم بهذا اليوم، تتصـور كيف سـيكون؟ جعلت ترتب فى القلب ساعاته، تملكتها الحيرة بشأن الهدية.

« أى شئ لن يعبر عن شعورى، ولو كان نجم من الـ سماء» دامت تحدث نفسها.

حلمت طويلا بهذا اليوم، وبكل بساطة انهار الحلم، وما عساها أن تفعل؟ يجب أن تحاول الحياة، وتغرق عن آخرها فى خضم الأيام، علها تصادف النسيان!

« انا خوفى يا حبى، لتصـير بعدك حبى ، ومتهيألى نسـيتك.. وانت مخبى بقلبى» تغرد إلى جوارها صاحبة الصوت الملائكى.

تمسك بالهاتف وتطلب إسلام، تتردد برهة فى الرد على رأفت، التى تألف صوته وترتاح للكلام معه، تسكت لحظات، تفكر أن تضع السماعة دون رد، فهى تتجنب الكلام معهم جميعا، إلا إسلام فى الفترة الأخيرة.

تخرج عن صمتها فجأة، وبعد تبادل السلام، يسألها رأفت بلهفة عن أخبارها، التى انقطعت فجأة، بينما يعلم جيداً أنها لم تحادث عماد منذ فترة طويلة، ويعلم السبب أيضاً، والذى لا تعرفه هى ذاتها، يقترب من سيرة عماد عن قصد منه.

« ارجوك يا دكتور رأفت لا داعى للخوض فى هذا الموضوع، لقد طويت هذه الصفحة من حياتى، ولا أريد أن يذكرنى بها أحد» تبادره فى أسى.

كلام لا لون له ولا طعم ولا رائحة، لكنها مضطرة لقوله:

- كنت أظن أنك تفهمين عماد أكثر من أى فرد فينا!

- لم أقل ما يعيبه يا دكتور، وكل ما قلته هو أننى أريد أن أنسى تلك الفترة من حياتى، وأظن أن هذا من حقى!

يصــر رأ فت على الغوص فى ذات الموضــوع أكثر، تحاول هى التجلد، يصــر أكثر، تقاوم بكل قواها الواهنة، يُصــر أكثر وأكثر، ينفجر بداخلها بركان، كانت أخمدته عنوة، حفاظاً على كرامتها، يبادرها:

- أنت مخطئة يا أميرة، هناك ســوء فهم كبير، عماد لم يسء إليك، ولو بكلمة واحدة، أقسم لك على ذلك!

- لم أ قل هذا أيضــاً يا دكتور، فأ نت تعلم كم أحترم دكتور عماد وأقّدّره، ولكن...

- بعاده، أليس كذلك؟

- هكذا ودون كلمة وداع؟ ما أرخص البشر فى هذا الزمان!

- لم يكن أمامه خيار آخر.

- آلمنى!

- مجبر هو صدقينى.

- معنى هذا أننى إنسانة عابرة فى حياته، يمكن أن يلقى بها وراء ظهره متى شاء، فكيف وهو يعلم جيدا أنه...

تختنق بالبكاء، ثم تردف بعد فترة صــمت طويلة، تســمح لها باستعادة بعض صوتها، التائه فى دوامة الأوجاع:

- لا كبريائى ولا كرامتى يســمحان لى بهذا الهوان أبدا يا دكتور، حتى ولو من عماد.

ولأول مرة يعرف رأفت مدى حب أميرة الجارف لعماد، يتيقن أنها مخلوقة معذبة، وهذا ما يجعله يصــر على إصــلاح الموقف بينهما مهما كلفه الأمر، ولكن أميرة مُصرة هى الأخرى على احترام ذاتها، ولم تتنازل عن قرارها، بطى هذه الصفحة من حياتها.

يفشل رأفت فى الحصول على رضاها، فلم يجد بداً من إفشاء السر، الذى اختصه به عماد دون سائر الرفاق:

- يبقى شئ أخير لابد أن تسمعيه.

- تفضل يا دكتور!

- الحقيقة أننى ما كنت أود مطلقاً أن أقوله، لكننى مضطر أمام صلابة رأسك هذه.

- اتعبت قلبى، تكلم من فضلك!

- إسلام سيدتى هو السبب!

- فهمت!

إنه ذلك الحديث الطويل الذى أسفر عن كل هذا الهجر:

- أميرة تقريباً خطيبتى، أحبها منذ الصـغر، حتى قبل أن يرحلوا إلى المدينة، ليكونوا إلى جوار عمل والدها.

- والمطلوب يا إسلام!

- أرجوك ياعماد لاتعطيها الفرصـة للتحدث معك، ابتعد عنها تماماً من أجلى، أتوسـل إليك باسـم الأخوة، التى جمعت بيننا، والعيش والملح الذى أكلناه سوياً!

- لا داعى لكل هذ يا إسـلام فأميرة أخت لى، و مادام كلامى معها يضايقك، فتأكد أننى لن أكلمها ثانية.

- صحيح ياعماد؟

- اطمئن يا إسلام سأفعل كل ما يرضيك، أعدك بهذا!

ليسـت مفاجأة لأميرة بقدر ما هى صـدمة، ودت لو أن شـكها فى إسلام هباءً منبثاً، لا أساس له من الصحة، ولكن الأقدار خيبت ظنها،

وأكدت شكها وصدق إحساسها، تافه هو إسلام منذ عهد الطفولة، فارغ العقل، أرعن لا يُقّدر عواقب الأمور مطلقاً.

« وماذا قال أيضاً؟!» تردف مذهولة!

- هه؟ لا شئ، لا شئ.

- تكلم دون حرج فلن أغضب سيدى.

- لا شئ ، صدقينى!

لكن لهجة رأفت وارتباكه يؤكدان أن هناك أشـياء كثيرة، ولِمَ لا؟ فربما وصفها لهم كما وصف عماد، وربما أسوأ، ليصرفهم جميعاً عنها، وبخاصـة عماد، وربما برر ارتباطه المزيف بها بحبه الشـديد لوالدته وتعلقه بها، وأنها هى التى اختارتها له، وهى فى اللفة، لأنها تحب والدتها جدا وتعتبرها أخت لها، ومؤكد أنه لم ينس أيضاً أن يخبرهم أنها ترفض كل الخطاب، الذين يتقدمون لها من أجله، وأنها تدرس بإحدى كليات القمة، وأن والدها ووالدتها لديهم يومياً بالبيت، كما أنه تعمد ألا يذكر شيئاً مطلقاً عن زواجها الأول.

« ياااااه يا إسلام ! ليت ظنى كان وهماً!» تهمس فى سرها معتصرة، ثم تتنبه لكلام رأفت وهو يسرد حكاياته على استحياء:

– ويوم أن أحضر له أوراقك...

يـ سكت قليلاً ويأتى صوتها مختنقاً، يـ ستحثه على الكلام فيـ ستطر د قائلاً:

- كان يغلى وهو يقدمها له، ثم ترك الشــقة كليةً، و بات ليلته عند صديق لنا بالحى السابع، وأخذ عماد الأوراق متأزماً، وذهب لتوه إلى المستشفى فقد كان لديه نوبتجية ليلتها، لكن ذهنه ظل شارداً فى حال إسلام.

- ثم ماذا يا دكتور.

- عاد إسلام حزينا مهزوما فى اليوم التالى، أسـياناً خجلاً، وكاد عماد يترك السـكن وقتها، لكنه تمهل حتى يتجاوز إسـلام حزنه، كان يحاول تهدئته، وجعل يعيد إليه ثقتة بنفســه أولاً، ثم به كصــديق يعرفه جيداً، ويعرف تماماً أنه لا يمكن أن يخون، حتى ولو ضـحى بكل ما يملك ، حتى لو روحه ذاتها.

- يااااه يا دكتور! آهٍ من جهلى وقسوتى وغبائى!

- معذورة أنت يا أميرة.

- بل تافهة.

- أنت إنسانة.

- وهل صدّقتم كلام إسلام؟

- بالطبع لا، ولكن لم يكن أمام عماد ســوى هذا، رغم يقينه بكذب إســلام، وبدون زعل لقد ســألنا أحلام ذات مرة عنك ،وهى فى زيارتنا، بينما كان إسلام يحضر شيئاً من السوبر ماركت، فقالت عكس كلامه ووصفتك لنا.

- ولَمَ لم يخبرنى عماد؟!

- إنها الرجولة، إنه الوفاء يا سيدتى!

- ولَمَ لم يخبرنى أحدكم؟!

- طلب عماد منا ذلك ووعدناه!

يدق الفرح باب قلبها من جديد، فسبب بعاد حبيبها، هو نفسه سبب حبها الكبير له وتعلق روحها به كل هذا التعلق، إنه الوفاء، إنه الصــدق، إنه احترام الذات، لكنها فى الوقت نفسه حزينة جداً، لأن شيئاً لن يتغير، فالقدر على هذه الحال صــعب جداً ولا يحتمل، ثم تهمس مختنقة بالبكاء:

- هكذا يا إســلام؟ أهذا جزائى منك؟ أنا التى فكرت يوماً أن أبتعد عن عماد، حتى لاتنجرح أو تتألم، سامحك الله! سامحك الله!

يشـــعر رأفت بالأســـى الشـــديد من اجلها، وقبل أن ينهى معها المكالمة، يقرر على الفور ما يجب عليه فعله، أما هى فتتقوقع على أحزانها، وتعكف على دموعها والذكرى.

تنازلنا مراراً يا قلبى

دون مقابلٍ أو ثمن مدفوع

فإلامَ نظلُ يا قلبى

نُرغم على تلك البيوع

إلام نُجبر على فراقِ

كل عزيز لدينا فى خضوع

إلامَ نتألم ولا نملك

لآلامنا إلا القموع

تتوالى أنباء النهار على قلبها موجعة « قتل طفل فلسـطينى برصـاص الإحتلال الإسرائيلى، وأصيب آخرون أثناء...».

تصــلى، تدعو من قلبها أن يجعل الله كيدهم فى نحورهم، يشــهد التاريخ أنا أهلها ويأبى اليهود لنا تركها، يصــولون ويجولون، يهدمون ويخربون، يوبخون ويحقرون!

« أماه قلبى على التعذيب صابر، ما خفت من قطعٍ ولا حرقٍ ولا نزع الأظافر، آمنت بالله العظيمِ وحق أمتى المضاعِ،إن مِتُّ يحمل مِشعلى فى السـوح آسـاد الصـراعِ، روحى ضـياء للرفاقِ، جحيم نار للأفاعى» كلمات تنبعث من شـريط مسـجل لأطفال الانتفاضـة أدارته لتوها، جعلت تردد معهم أناشيد الفجر.

أُماهُ دمعك فى فؤادى يقطرُ

بالدمعِ يا أُماهُ جرحى يكبرُ

آهاتك الحرى تُقَطِّع مهجتى

كونى صبوراً قد عهدتك أصبرُ

ودعتنى يومَ الرحيلِ وقلتِ لى

اذهب وكُن أسداً عقوراً يزأرُ

فمضيت يا أُماهُ أكتب من دمى
كل الملاحم كنت فيك أسطرُ

وجعلتُ من جُرحى العميقة مخباً
أحمى به كل الرفاقِ وأنصرُ

وجعلتُ من جسدى معابر للرجال
ومركباً جهزتهُ كى يعبروا

واليوم يا أماهُ قيدى مصقلٌ
وعزيمتى أُماهُ لا.. لا تُقهرُ

لا السجنُ يُرهبنى ولا تعذيبهم
كلا ولا لسعُ الكهارب يقدرُ

وليطفئوا نور العيون وما دروا

أن الفؤادَ لهُ عيونٌ تنظرُ

وليحرقوا جسدى بنار جحيمهم

سأُنير دربَ الآخرين ليُبصروا

زنزانتى يا أُم سوف أُحيلها

بابَ الجحيم على العِدا يتفجرُ

والقيدُ يا أُماهُ مهما أوثقوا

بالصبرِ والتصميمِ قيدى أكسرُ

فتجملى بالصبرِ يا أُماهُ إنْ

عزَّ اللقاءُ وطالَ ليلٌ أغبرُ

فلنا غداً نحيا به فى عزةٍ

فى دارنا والدارُ بنا تعمرُ

« لقد طال ليل الظلم، وطال ارتقابنا للفجر الجديد، وها هو الفجر يلوح ، لقد تلألأت أشــعته الأولى فى هذه القطرات الزكية من الدم المســفوح، إنها قطرات دمٍ عزيزة غالية، لأن وراءها قضــية طال عليها العمر، قضــية مرت بها السنون تلو الســنون، قضــية كانت فى حاجة إلى مستند لا يُنقض، وإلى حجة لا ترد، ولقد كتبت هذه الحجة الأزلية بلونٍ أحمر، هو لون الدم الطاهر الزكى، وإن هذه القطرات الطاهرة الزكية، من الدماء العزيزة الغالية، ستصبح أبداً ناراً مقدسة تحرق ونورا سماوياً يضــئ، ولن تُخمد الشــعلة أبداً بإذن الله، ولن ينطفئ النور أبداُ وهو من نور الله» يربط بين الأناشيد وبعضها، طفل طلق اللسان جميل الصوت، تهزها الكلمات وتقطع شرايينها، كأنها أنصال حامية، فهى لا تحتملها، ولا يحتملها كل ذى قلب وحِس.

يا طفلاً يهجر معهدهُ

لصفوف الثورة للتعبِ

لوعدوا العمر لما وجدوا

قد جاوز سناً للعبِ

ما أقسى تلك الكلمات، وما أوجع وقعها على القلوب! ما أبشع هذا الزمن!

ليل ذلٍ وفجر يومٍ دامِ

وحقوقٌ تداسُ بالأقدامِ

وزهورُ بريئةٌ وشيوخٌ

وثكالى تُساقُ للأعدامِ

جثةٌ تلو جثةٌ تتهاوى

عن رؤوس موؤدةِ الأحلامِ

والصراخ الرهيب يعلو ويعلو

تحت دبابةٍ وتحت ركامِ

يتعبها جداً هذا الاحساس، كما يتعب كل ذى نبض، تصرخ: « أين أنت يا صــلاح الدين؟ أين أنت أيها الفارس العظيم؟ القدس تناديك أيها البطل!».

ما تلكمُ الأهوال يا قدسُ

راياتنا أعلامنا نُكسُ

ما تلكم الأصواتُ فى وطنى

ممجوجةٌ وتعافها النفسُ

صهيون للميدان فارسه

ويطيعه الأعراب والفرسُ

وكتائب التوحيد أبدلها

بكتائب الإجرام تندسُ

والذل ياللهول كبّلنا

بقيوده وانتابنا النحسُ

وعقابنا نلناهُ مكتملاً

القتل والتعذيبُ والحبسُ

ما تلكم الأصوات فى وطنى

ونقيضها أصواتنا خُرسُ

يتصارع الكفار من زمنٍ

ليذوب فينا الدين والجنسُ

وقلوبنا تزداد تفرقةً

وتبلد الاحساس والحسُ

ياقدسُ طال النوم فاصطبرى

واشتدت الأرزاء والبأسُ

أيعود للإسلام قادته

وشعوبه فتحرر القدسُ

أيعود للإسلام شوكتهُ

أيطول هذا الحال يا قدسُ

تعود تصرخ: « أين انت يا صلاح الدين؟!».

تمر ساعات النهار عصيبة عليها، تتمنى لو تموت وتستريح من كل هذا، تنهار أعصابها تماماً، تصرخ بهستيريا، وهى تهشم زجاج النافذة بقبضتها اليمنى، تقفز الأم فى لمح البصر إليها وتحتضنها مفزوعة!

- أميرة! ابنتى! ماذا جرى؟ ما هذا الصوت؟

« دم؟!» تصيح الأم مرعوبة وهى تمسك بيدها.

تجرى بها مهرولة إلى الحمام تغسل يدها، بينما هى مسلوبة الإرادة، تمشى مع أمها وكأنها غائبة عن الوعى، لا تشعر بها، ولا حتى بالجروح المتعددة، التى تناثرت فى كفها، تطهر الأم الجروح وتضـــمدها جيدا، ثم تحكم الغطاء حول جسد الجريحة لتنام عميقاً.

تســتيقظ أميرة بعد فترة طويلة نســبياً ،قد تكون عدة ســاعات على صوت الهاتف، تفاجأ بيمناها ملفوفة فى االشاش، تدهش كثيراً، ورويداً رويداً تتذكر ما حدث، ترفع السماعة فى بطء وتثاقل:

- أهلا دكتور رأفت!

- صوتك نائم ، أزعجتك أنا.

- لا ، أبداً ، فقط مرهقة قليلاً!

- لابد أنه من حديثنا أمس، عموماً لقد حكيت لعماد عن كل ما دار بيننا.

ويردف فى فرح كبيرقبل ان تنطق بكلمة:

- انتظرى منه مكالمة الليلة بين لحظة وأخرى، فلقد تركت له رقمك!

لم تجد أميرة غير كلمة «مســتحيل» رداً على كلام رأفت، بيد أنه لم يطل بها هذا التعجب، فلم تكد تضــع الســماعة، حتى جاء ذلك الرنين المرتقب.

يجتمعان ثانية وفى نفس اللاموعد المعتاد من المساء، تعود همساته الدافئة تطير بها مرة أخرى إلى عالمها المفقود، ويعود حنانها يشــعره بوجوده، يهمس حانياً:

- حقا لا شئ فى الوجود يعدل راحة القلوب!

ويردف ممتناً:

- شكراً لك يا أميرة مليون شكر!

- علامَ يا دكتور؟!

- على كل شــئ، ســماحتك، رقتك، حنانك، نقاء قلبك الذى جعلنى أ شعر أن الدنيا مازالت بخير، وأن بها من يـ ستحقون أن نذكرهم فى كل حين، وألا نفرط فيهم أبدا مهما كانت الظروف، وأن نحمل لهم كل هذا الإعزاز والتقدير والود.

- مجاملة رقيقة كما هى عادتك دائماً يا دكتور!

- بل أقل من الحقيقة بكثيريا أميرة.

وكانت أميرة قد أرسلت مع إسلام، منذ أسابيع قليلة، مجموعة من أشـــرطة الكاســـيت، بها الكثير من الأغنيات والقصـــائد، التى تحبها وأحبت أن تهديها لعماد، بواحدة من طرقها الفريدة، الكثيرة جداً وغير المباشرة فى التواصل معه، من دون أن يدرى أحد.

كانت أميرة قد أعطتها لإســـلام، كى تســـليهم فى الســـكن، على أنها مجموعة قديمة لديها ولا تحتاجها، فأخذها إســـلام ،وأخبر رفاقه أنها هديه له من أميرة، اشترتها خصيصاً من أجله، بينما أميرة متأكدة من أنه لا يعرف قيمة تلك الكنوز التى يحملها، ولا يُقّدر هذا الجمال، الساكن هذه الأجسام الصلبة، وأنه لن يُقّدرها أو يعرف قيمتها إلا من أُرسلت إليه.

يعرف عماد للوهلة الأولى، أنها هدية له هو من دون الموجودين، ولكنه لم يُبدِ هذا حتى لأميرة ذاتها، ليحتفظ كل منهما بفهمه العميق لتصرف للآخر.

يتذكر عماد تلك المجموعة الرائعة، يرى من باب اللطف أن يحييها على ذوقها الخلاب، الراقى جداً، الناعم جداً، تدور بأذنه بعض الكلمات منها « أقبل الليل يا حبيبى، أقبل الليل ونادانى حنينى» كأن كل كلمة فى هذه الأشـــرطة مختارة بعناية وموجهة إليه هو، يتنه قليلاً إلى واقعه «آهٍ كم أتعبتنتى تلك الكلمات وبخاصة كلما أقبل الليل، ثقيل هو

المساء، لا يمر من دون أن أحاورك، وأذوب مع صوتك الحنون الدافئ».

يعود كليةً إلى الواقع ويحاول استئناف حديثه:

- ذوقك رائع يا أميرة!
- أشكرك يا دكتور!
- بل أنا الذى أشكرك على كل هذا الجمال والسحر!
- أوأعجبك؟
- بهرنى!

لم يكن اكتشافاً أن ذوقهما موحد، وإنما قد يكون تجديداً، لتلك الحقيقة المؤكدة على الدوام، تمر ساعات طويلة على بداية الحوار، ولم يشعرا بها كالعادة.

ولم يزل الكلام بينهما كأنه فى بدايته، ودائماً يظل للحديث بقية، يتركان اجتماعهما بعد ذلك للصدفة البحتة، دون تدخل منهما، وقلما جمعت بينهما صدفة.

رويداً رويداً تتسع رقعة البعد بينهما، ولكن دون غضب أو سوء فهم، فالقدر الصعب يبدو أنه لم يكن راضياً تماماً عن لقائهما، فقد ظل إسلام بينهما فى كل لحظة، وقلبه المجروح يدمى قلبيهما، رغم حماقة صاحبه ورعونته.

تمر أيام أميرة بين فرقة واجتماع، دون أن يغيرها شئ، ولا ظروف مهما كانت « ليس بالضرورة أن تكون معى، كى أذكرك يا أعز وأغلى منى ، فأنت معى، تسكننى، تحيانى، حتى ولو كنت فى آخر بقاع الأرض، اطمئن يا توءم روحى وحبيب عمرى، أنت الفارس الوحيد الذى خطف قلبى، وأسر روحى وعقلى» تهمس فى نفسها ذائبة فى العشق والحنين.

لم تكن أميرة حمقاء ولا رعناء، ولا حتى أنانية مثل كل المحبين، تلك الأنانية المسموح بها فى إطار العشق، بل تبدو مُقّدرة تماماً حساسية الموقف، الذى فجره إسلام بحماقته، راضية بقدرها ونصيبها مهما كان.

« إنه ليس مجبراً على السؤال عنى، وليس مطالباً بالوفاء لوعد وعدنى إياه ذات يوم، أو عهد قطعه يا قلب على نفسه حيالنا» تهمس بكل الرضا والنقاء.

بات كل ما ترجوه من القدرهو أن يسمح لها بحبه، حتى ولو لم يُقَّدر أبداً لهذا الحب أن يتوج باللقاء، لم تتمن ولو للحظة واحدة أن يكون لها وحدها، كما هى أنانية المحبين، تتمنى أن يكون سـعيداً وحسـب ومع أى بشر وفى أى مكان.

تحبه هى فوق الحب بمراحل، لدرجة جعلته رمزاً لا يرتبط بمكان أو زمان أو تصـرفات، رمزاً أعلى وأكبر من أن تُقحم نفسـها فى أموره الخا صة، لم تعط نف سها الحق يوماً فى محا سبته، أو حتى مجرد سؤاله عن شئ لم يبادر هو من تلقاء نفسه بإخبارها به، رمزاً أَجَّلَّ وأعظم من أن تـ ستبيح مرة إرهاقه بالحديث، إلا بقدر ما يـ سمح له ا ستعداده النفـ سى وواقعه العملى، لا تتصـور لحظة أن تُغضـبه أو تلومه أو حتى تعاتبه على شئ مجرد عتاب!

تغمض عينيها على تغريد تعشـقه « واللى اتذكر كل الناس فى الآخر ذكرنى».

الفصل العاشر
شرخ في جدار الروح

وما نفع السُهد والذكرى؟ هل يعيد ذلك ما مضى؟ هل يرجع الزمن إلى الوراء؟ أم خُلقت الذكرى لعذاب القلب والروح ليس إلا؟ ليت الأيام تعود بذلك المساء الأول، ولكن ما نفع ذلك أيضاً؟ أليس هو البداية لما هى فيه الآن؟!

« آهٍ من قلبى! آهٍ من ضعفى!» تزفر معتصرة.

يأتى الربيع بموكبه الجميل، تنتشر الفراشات الملونة البديعة، بين زهور حديقة المنزل الصغيرة، ترشف رحيقها وتداعب النسيم العليل، تطير إلى شرفة أميرة بالطابق العلوى، تتأرجح على نبات ست الحُسن، المحتضن الحائط إلى جوار الشرفة، تتنقل بين زهوره البفسجية الساحرة التى تعشقها، تمسك بالنبتة الجميلة:

- لماذا أسموك ست الحن؟ ألانك جميلة وحسب؟ أم روت لهم جدتى قصتها كما حكت لى؟ أنت جميلة حقاً! ترى هل أتى الشاطر حسن إليك؟ أم أنك مازلت تنتظرينه؟ أم رحل وتركك للأيام والدنيا مثلى؟!

تعشش الطيور، وتغرد على أشجار و شجيرات الحديقة من جديد، ترقبها أميرة وهى تناجى بعضها، ترصد طقوسها الفريدة فى بناء العش.

تمتلئ أشـجار الجازورينا والكافور العالية، الملاصـقة لسـور الحديقة بالأعشـاش والطيور، وكذلك شـجيرات الفواكه المختلفة، تضج الدنيا بالهديل والتغريد والغناء، والطيور تلهو وتلعب بين الأغصان الغضة الميادة.

تحب أميرة اكثر ما تحب طيور اليمام، يعجبها جداً هدوءها الرهيب، ورقتها الفياضـة، حالمة هى جداً، وفية جداً، تحب عشـها وأليفها وصـغارها إلى ما بعد الموت، ربما لأنها تشـبهها تماماً وهى لاتدرى.

تقف أميرة فى ظل الحائط، ترقب زوج اليمام، الذى عشـش على شجرة المانجو العالية، المقابلة لنافذة غرفتها، وطقوسه الغزلية الفريدة تخلب لبها.

«مَن علَّمه كل هذه الرقة والرومانسـية؟ مَن هداه إلى كل هذا الحب والوفاء؟ سبحان الله!» تحدث نفسها هائمة.

تصـحو على هديلة فى الصـباح، فتشـعر براحة كبيرة، ما أجمل الربيع حقاً، يجعل البيت يبدو على البعد كزمردة كبيرة، ما أروع سـحره ،لولا الحزن العتيق الكامن بالقلب.

تمر الأيام تتهادى مع القوارب واللنشات الصغيرة، التى تنتشر على صفحة النهر الجميل بالأحبة والمتنزهين، ولم تزل تراوغها الصدفة، حتى أيقنت أنه القدر المحتوم الذى لامفر منه.

تنزوى من جديد وتبتعد إلى أقصى ما يمكنها، لكنها لم تستطع أن تكف عن التفكير فيه لحظة، يهزها الحنين إليه فى كل حين، بيد أنها تعاند قلبها وتحافظ على بعادها، وتطوى الأيام الطوال فى ذاك البعاد القاتل، تتوالى عليها الأحداث مؤلمة قاسية، لا تجد فى كل هذا العالم الكبير على اتساعه، ما يمكن أن يعوضها عنه، وآهٍ من المساء والذكرى!

خمس ساعات لم تخرج من غرفتها، يمر النهار دون أن تشعر به، ولأول مرة فى حياتها، لا تهرع إلى الشرفة، لتودع الشمس الراحلة كعادتها فى كل يوم، تمر ساعتان أخريان، وهى لم تزل حبيسة الغرفة، تمضى ساعات أخرى، تدق الساعة العاشرة مساء وهى لم تزل محتجبة، هى عادتها لكن ليس كل هذا الوقت، يلعب القلق بقلب الأم طوال كل هذه الساعات، والتى كانت تطمئن عليها من آن لآخر، وتحدث نفسها.

« العشاء جاهز يا أميرة» تطرق الباب هامسة.

- ادخلى يا ماما.

- ثالث مرة أجهز لك العشاء، وتردين من خلف الباب بأنك غير جائعة.. ماذا بك يا ابنتى؟!

- لاشئ يا أمى ، فقط لست جائعة.

- لكنك على إفطارك يا حبيبتى، ولن أتركك حتى تأكلى شيئاً يقيتك.

- حسناً سأكل من أجل خاطرك.

تنظر الأم معتصـــرة لأبنتها الذابلة، التى يجف عودها يوما بعد يوم، ثم تهمس:

- صارحينى يا ابنتى هل يتعبك شئ؟

- اطمئنى يا أمى فأنا بخير، بل فى أحسن حالاتى، صدقينى!

- لا يبدو لى هذا مطلقاً يا حبيبتى، فأحوالك لا تعجبنى هذه الأيام، وأخاف عليك من هذه الوحدة التى تضعين نفسك بين براثنها!

- بخير أنا صدقينى يا أمى، لا داعى لكل هذا القلق، فقط كنت أكتب بعض الأشياء.

نشـــرت أميرة أوراقها التى طوتها لحظة دخول الأم مرة أخرى، جعلت تضع خطوطاً عريضة، وعلامات فى أماكن معينة.

- ما كل هذه الأوراق يا أميرة؟ هل كتبت كل هذا يا ابنتى؟!

- إنها قصة يا أمى!

- قصة؟!
- نعم، لكنها لم تكتمل، ويبدو لى أننى لن أكملها فى يوم من الأيام.
- لم يا ابنتى؟!
- هكذا أراد القدر يا أمى!
- غريبة أنت اليوم يا أميرة، لا أفهمك!
- لا تشغلى بالك يا ست الكل!،
- الله معك يا ابنتى!

وتردف وهى تهم بالانصراف:

- هل تريدين شيئاً قبل أن أنام حبيبتى؟
- شكراً يا أمى، الله لا يحرمنى منك أبدا!
- تصبحين على خير يا نور عينى!
- وأنت من أهل الخير حبيبتى!

تطبع الأم قبلتها الحانية على جبين الابنة الهائمة فى ملكوتها.

« تشعرين بى دائماً يا أمى، حتى دون أن أ شكو أو أنطق بكلمة» تهز رأسها قليلاً وتهمس مبتسمة بمرارة وألم.

ما أجمل أن يحيا الإنسان على ذكرى، وما أصعب أن تكون تلك الذكرى مجرد صدفة!

بينما تغوص أميرة فى أعماق الذكرى، تذهب الأم قلقة حزينة.

« حبيبتى يا بنتى صغيرة أنت على كل هذا الهم والحزن!» تهمهم الأم فى نفسها، بينما يلتمع بياض وجهها النضير تحت الضوء، وتتوهج وجنتا ها تحت قناع الحيرة، ثم تمضى متململة إلى غرفة نومها تجر أذيال الخيبة.

- هل رفضت؟
- رفضت ماذا؟
- المهندس محمد.
- آه، لم أفاتحها فى الموضوع أصلاً.
- ولِمَ يا زينب؟!
- يا محمود ابنتك ليست على ما يرام هذه الأيام، فكأنها تشعر بما أنتوى مفاتحتها فيه، فتبتعد عن مواجهتى تماماً، تتجنبنى قدر إمكانها وعادت لحبس نفسها فى غرفتها بالساعات من جديد، حزينة وشريدة طول الوقت!

وتردف متنهدة:

- أخاف عليها جداً من هذا، فما صدقت أن تنسى ما مضى، وتخرج من عزلتها، وتعيش حياتها مثل أى بنت فى سنها، لا أدرى ما الذى جعلها تعود لما كانت عليه؟!

وتغمض عينيها هرباً من الذكرى:

- لا أعاد الله تلك الأيام، كنا نظن أننا نعمل لصالحها، ضغطنا عليها حتى كادت تضيع منا، يااااااه! لا أريد أن أتذكر!

تجفف دموعاً تسربت من تحت جفنيها المغمضين:

- ليتك تؤجل الكلام فى هذا الموضوع فترة يا محمود، حتى تستعيد البنت صحتها وأعصابها، وثقتها بنا وبنفسها، وبالحياة كلها، فسوف تحتاج وقتاً طويلاً لاستعادة تلك الأشياء، أعطها الفرصة أرجوك يا محمود! فلست مستعدة أن تضيع منى كليةً.

يُنحَّى الوالد كتابه جانباً، ويشيح بنظارة القراءة بعيداً، عن عينيه البنيتين الداكنتين، لوجه قمحى اللون، صافٍ مريح، وملامح ريفية عادية، تنم عن رجولة فطرية، تخالطها بعض الصرامة، ويحدجها بنظرة ذات مغزى، ثم يسرع قائلاً:

- المهندس محمد خسارة يا زينب، ولن تعوضه طول حياتها.
- بنتى الأهم عندى يا محمود، والأفضل أن ننتظر فترة!
- يازينب، لقد مر أكثر من عام على طلاقها، والأفضل لها أن تتزوج.
- إنها ابنتنا الوحيدة يا محمود، أرجوك انتظر حتى تتخلص من تلك العقدة، التى سببناها لها بحبنا هذا الأعمى، وخوفنا المجنون على مستقبلها.
- إذا انتظرت أنا فهل ينتظر هو؟!
- لا يهم يا محمود هو وشأنه!
- يا زينب، فستكون إلى جوارك، ثم إن عائلته كما تعرفين من أفضل الناس حسباً ونسباً.
- وليكن!
- أنت حرة وابنتك، ولكن بعد ضياع الأشياء لا ينفع الندم.. تذكرى هذا جيداً!

وتمر الأيام، وأميرة عاكفة على كتابة قصة عمرها، وعماد غارق فى الذكرى لا يأخذه منها سوى عمله الذى يقدسة.

تستيقظ ذات صباح على رنين الهاتف القابع إلى جوارها، بعد أن هجر مكانه على الرف الأوسط للمكتبة، بين أشياءها الطفولية الجميلة، منذ الصدفة الأولى مع عماد،.

لا تهتم بالرنين، فليس الوقت مناسباً لأية مكالمة، من أى شخص سوى الطوارئ، حتى هذا أيضاً لا يهمها، تترك كالعادة مهمة الرد عليه لوالدتها، التى هى أقدر عليها بالطبع، يبدو أن الأم مشغولة جداً فلم ترد، ويلوح ضوء النهار الكالح، المتسرب من الجزء الضيق جداً، المفتوح من النافذة، التى نسيت أن تحكم إغلاقها قبل النوم مستفزاً، يحاكى تماماً حال المتصل، ترفع السماعة فى تثاقل رهيب، وهى تقاوم النوم بالتثاؤب المتقطع:

- آلو

- صح النوم يا أميرة، صباح الخير!

- من فضلك يا إسلام اتصل فى وقت آخر، فلم أنم إلا فى وقت متأخر وأحتاج لبعض النوم.

- ترى مَن سعيد الحظ الذى كان يشغل تفكير سيدتى الجميلة؟

- مع السلامة!

تضع السماعة وهو مازال يتكلم، لكنها ليست مستعدة لسماع كلمة واحدة منه، ويعاود الاتصال قبيل المغرب.

- أظن أن هذا ليس وقتاً للنوم.

- صحيح هو ليس وقت نوم لكنه وقت الغروب.

- وماذا يعنى هذا؟

- يعنى أنك تتصل فى وقت آخر، مع السلامة!

وتنهى المكالمة من جانبها، دون أن تترك له الفرصة، حتى ليسألها عن الموعد المناسب لاتصاله بعد ذلك.

يحاول الاتصـــال مراراً لكنها كانت قد ألغت تليفون غرفتها، لترد والدتها من جهاز الهاتف الرئيســى الموجود بالصـــالة الكبيرة، وكان يتحرج أن يسأل الوالدة عنها، ولا يجد أمامه سوى أن يسمعها مرغماً، تلك الصفارة الشهيرة عندما ينقطع الخط.

« قلة أدب!» تتمتم الأم فى كل مرة وهى تضـع السـماعة عقب كل صفارة.

وعلى الجانب الآخر تزداد الدنيا قتامه فى وجه إسلام، وتطغى ظنونه وحيرته:

- ترى ماذا حدث؟ ليست أميرة التى أعرفها أبداً! لابد أن أعرف ماذا حدث؟ وبأى طريقة.

ماذا لو رد على الأم؟ فليخترع سبباً لاتصاله إذن، ثم إن الأم تعرفه جيداً، فهو مثل ابنها وليس غريباً أن يتصل يسأل عن أحوالهم، وأميرة فى منزلة أخته تماماً، وكلهم يعرفون هذا، يقرر أخيراً الاتصال، يطلب فى وقت مناسب جداً لأهل البيت، ينم عن كل أدب ولطف، وبعد الكلمات المتبادلة المعتادة عن الصحة والأحوال يهمس متردداً:

- من فضلك يا ماما ممكن أكلم أميرة؟

ويردف مبرراً من دون داع:

- أريد أن أسألها عن أحلام، فقد تأخرت بالبلدة، وأخشى أن يكون حدث شئ عندنا بالبيت، اتصلت هناك مراراً ولم يرد علىّ أحد.

- خيراً يا حبيبى إن شاء الله! قد يكون التليفون معطلاً هناك.

- آسف يا ماما لازعاجكم!

- لا تقل هذا يا حبيبى، أنت ابنى وأخو أميرة، ربنا يطمئنك عليهم، أميرة معك.

تمسك أميرة بالسماعة مغتاظة فيبادرها قائلاً:

- لم أجد غير هذه الطريقة كى تسمعينى، بعد أن أضربت عن الرد على التليفون، أرجوك يا أميرة لدى كلاماً مهماً أود أن تسمعيه.

- ولا حتى هذه الطريقة تجبرنى على سماعك يا إسلام.
- أنا لا أجبرك ، بل أرجوك!
- صدقنى يا إسلام صعب جداً، على الأقل الآن، فلا يجب أن يطول حديثنا أكثر من هذا.
- أرجوك يا أميرة!
- أنا التى أرجوك! لاتجعلنى أشعر بالحرج أمام والدتى!
- لكنى لن أتركك حتى تسمعينى.
- ساسمعك يا إسلام، سأسمعك، لكن فى وقت آخر.
- مثل كل الأوقات السابقة يا أميرة؟!
- لا يا إسلام أعدك بهذا، وأنت تعرف أميرة عندما تعد، اتصل مساءً وقل وقتها ما شئت، مع السلامة!

تأتى الوالدة من المطبخ متسائلة فى قلق:

- خيراً يا ابنتى ماذا حدث لديهم بالبيت؟!
- لا شئ يا أمى، لا شئ.

وتردف وهى تتأمل وجه أمها الـ صبوح، وملامحها التى تـ شبه كثيراً ملامح الجدة الجميلة:

- لا تشغلى بالك يا ست الكل فهم جميعاً بخير.

- الحمد لله يا ابنتى! فلقد قلقت عليهم جداً.

يخطف بصـــر أميرة بريق عينى أمها الزرقاوين النجلاوين، كعينىّ الجدة الساحرتين!

«هكذا أنت دائماً يا أمى، مشـــغولة بأحبابك ومســـكونة بهمومهم، عظيمة أنت يا أمى!» تهمس فى حب وإكبار.

يأتى المـ ساء كعادته فى كل يوم، بعد أن يُجبر الـ شمس على الرحيل، يتصل إسلام حسب الاتفاق:

- لماذا تتهربين منى يا أميرة؟!

- وهل فعلت شيئاً يجعلنى أتهرب منك؟

- بالطبع لا. فأنت تعلمين قدرك عندى ومعزتك فى قلبى.

- فلمَ أتهرب منك إذن؟

- ولكنك...

- ولكنى ماذا يا إسلام؟

- يبدو أنك غاضبة منى بالفعل.

- وهل أ سأت إلىّ فى شئ؟ هل جرحتنى؟ هل شوّهت صورتى أمام رفاقك؟!

- كذب، كذب، أقسم لك!

- لا تقسم.

- من أوصلك هذا فهو كاذب ومنافق ، كلب، كلهم كلاب، كلاب.

- كفاك أخطاء فى حق البشر من فضلك!

وتردف كسيرة الروح:

- ترى ما فكرتهم عنى الآن؟ مؤكد يعتقدون أننى...

وتسكت أميرة فلم تستطع أن تُخرج تلك الكلمات الجارحة المهينة من حلقها، ترواغ البكاء ويراوغها، تبتلع دموعها ومرارتها:

- لهم العُذر حقاً فى أى شئ يعتقدونه عنى، إذا كان أقرب الناس هو الذى يشوه صورتى، فلا لوم إذن على الغرباء لو أساءوا الفهم أو ظنوا الظنون، صحيح هم يعرفون كم هى سعة خيالك وصدرك، لكن...

تـصمت برهة بعد أن تعجز عن احتواء دموعها، ثم تـستطرد بمرارة ليست جديدة عليها منذ عرفت الحياة والبشر:

- ومن يدرى ماذا قلت لهم أيضاً؟ وكيف قلته؟

تختنق بالبكاء:

- لِمَ يا إسـلام؟ لِمَ ظلمتنى هكذا؟ هل آذيتك فى شـئ؟ أنا التى أعتبرك أخاً لى منذ أدركت الحياة!

تحتبس الكلمات الباقية بداخلها، وبصعوبة شديدة تحاول إخراجها:

- أشكرك إسلام! أشكرك على كل هذا الذى تكنه لى! أهذا هو قدرى عندك؟ أهذه أنا فى قلبك؟ خسارة يا إسلام، خسارة، مليون خسارة!

تختلط الدموع بالكلمات:

- على العموم الغلطة ليست غلطتك.

تـصمت طويلاً لتـسترد أنفاسها الهاربة، وتلملم شتات نفسها، ثم تردف ببعض الحدة التى لم تعتدها فى حياتها:

- من فضـلك يا إسـلام انس هذا الرقم إلى الأبد، لا تتصـل هنا مرة أخرى، وانس أيضاً أنك كنت تعرف إنسانة اسمها أميرة فى يوم من الأيام، هذا أقل ما يمكن قوله، فلا تضطرنى لأكثر من هذا.

- اسمعينى يا أميرة، أرجوك!

- فات الوقت يا إسلام ، فات الوقت!

تضع السماعة، وهى تجفف دموعها التى انفجرت سيولاً عارمة، لدرجة أخفت معالم وجهها الجميل، الحزين أبداً.

يتصل إسلام ثانية فى نفس اللحظة، ويعاود اتصاله مراراً، لكنها كانت قد حسمت الموقف تماماً، فليست قادرة مطلقاً على تقبل كلمة واحدة منه، أو حتى سماع صوته.

لم ينبس إسلام ببنت شفة، وتسمر بمكانه واجماً مسود الوجه، بدا مأخوذاً كأن كارثةً لحقت به لتوه، ورأفت يردد أسئلته دون جدوى كأنه أصم أعمى، لا يسمع ولا يرى:

- هل أسرتك بخير؟ هل حدث شئ هناك؟ ماذا حدث؟!

ولم يزل إسلام ذاهلاً لا يلتفت لكلام رأفت، أو هو لا يسمعه من حال الأصل، يمضى خارجاً من المكتب والمستشفى بأسره فاقد الشعور والادراك!

« كان يغنى لحظة مجيئه من فرط سعادته!» يحدّث رأفت نفسه مندهشاً.

وكان رأفت قد ترك له مكتبه بالمستشفى الاستثمارى، الذى يعمل به بعدما أنهى فترة الإمتياز مؤخراً لكى يتحدث بحرية.

يمر، ولا يدرى إسلام كم قطع فى المواصلات، من الدقى حيث المستشفى إلى شقتهم بالحى العاشر بمدينة نصر، يمشى فى الشارع الفرعى المؤدى إلى العمارة، الكائنة فى آخره، لا يستطيع التركيز فى شئ، تتداخل كل الأفكار، وتتزاحم كل الأشياء على خياله المشوش، وتتصاعد الاتهامات فى رأسه.

يقف أمام مدخل العمارة قليلاً، ليتأكد إن كانت هى المقصودة أم لا، يلتقط بعض أنفاسه الهاربه، ثم يعتلى درجات السلم الخرسانى، فليس للعمارة مصعد كهربائى يريحه من هذا العناء، آهٍ لو كان صاحب العمارة جعل لها مصعداً، كالعمارات التى يراها وأحياناً يدخلها! تباً لهذا الهرم البخيل! آهٍ كم أقدامه ثقيلة! يعانى وهو يرفعها كأنه يزرعها ويقتلعها فى كل خطوة، وقبل أن يغيب ما تبقى له من أنفاس مجهدة يصل إلى الدور الخامس.

« ماذا لو كان لها مصعداً أيها المأفون الهرم؟ لمن تترك كل هذه الثروة التى جمعتها؟ لابد أنى قاتلك ذات يوم!» يهذى بصوت مرتفع،

ثم يضغط على شفتيه بأسنانه مستكملاً كلامه« وهل لمثلك لزوم فى هذه الحياة؟ وهل لى أنا؟ وهل لأى أحد فى هذه الدنيا.. صــحيح دنيا! تفوووه عليكِ يا دنيا!».

وقف بباب الشقة يكلم نفسة:

- أنتم؟ أنتم يا من خلف هذا الباب؟ أنتم؟!

يطرق الباب ببطء وتثاقل، كأنه يحمل أطناناً من الرمال، لا جســداً بشرياً عادياً، ينسى كليةً أن المفتاح بجيبه، ينفتح الباب سريعاً، يدخل إلى غرفته دون التفات، ودون أن يلقى السلام، أو حتى ينطق بكلمة.

يغلق عادل باب الشقة وراءه مندهشاً، ويعود إلى مجلسه بالصالة، فلم يكن سواه موجوداً بالشقة فى ذلك الوقت!

« ليست عادتك يا إسلام، أين عاصفة الصداع التى تزلزلنا بها؟» يهمس فى نفسه، ثم يعرب عن عدم مبالاته بمد شفته السفلى إلى الأمام، ويستأنف فى جد مشاهدته للتليفزيون.

الفصل الحادي عشر
الهدوء الذي يسبق العاصفة

تتعالى دقات الكفوف على بعضها البعض، وتضج الصالة الصغيرة، بسيطة الأثاث بالمراهنات الكلامية، مَن يكسب هذا الشوط من الشطرنج؟

- أراهن أنه عماد.

- بل رأفت.

يستدير عماد إلى المتراهنين:

- كفاكما عناداً كالأطفال يا عادل أنت وأحمد.

ويهمس عماد فى أذن رأفت بسؤال، تلتقطه أذن الرفيقين الآخرين بنفس الدقة، ويرد رأفت قاصاً عليه ما حدث أمس بالمستشفى، ويُكمل عادل البقية.

وقبل أن يحار تفكيرهم، أو حتى يُخّمن أحدهم أى شئ،، يخرج عليهم إ سلام الذى تلذعه ضحكاتهم، وتكاد تهدم رأ سه دقات أكفهم، ينهى فجأة عُزلة دامت ليلة أمس واليوم بأكمله ، يصرخ فيهم:

- أيكم فعل بى هذا؟ أيكم خبّرونى؟!

ولم يستطع السيطرة على دموعه، يسرع إليه عماد يجلسه إلى جواره، يمسك بيده ويربت على ظهره:

- إهدأ يا إسلام، أفهمنا ماذا حدث؟ وعم تتكلم؟ فلم يسء أينا إليك، ولا يمكن أن يحدث هذا أبداً.

- بل حدث يا دكتور.

- كيف يا إسلام ؟ تكلم من فضلك!

وبخبرة الإنسان أولاً، ثم الدكتور ثانياً يدرك عماد أنه لم يأكل منذ فترة طويلة، تركت آثارها على وجهه المصفر وقواه الخائرة، يسرع إلى المطبخ يعد له كوباً من عصير الليمون على الفور، بعد أن رفض أن يبتلع ذرة واحدة من الطعام، يهدأ قليلاً ثم ينفرد به عماد، وبصعوبة بالغة يقص عليه إسلام ما حدث، يبتسم عماد قليلاً:

- وتظن أنى مَن أخبرها!

- قطعاً لا يا عماد، صدقنى لم أقصدك بكلامى مطلقاً، أعلم أنها ليست طباعك، ولم أشك بك لحظة.

- مَن تقصد إذن؟

- أى أحد فيهم ممكن أن يفتن لها.. لا أستبعد هذا!

- وهل عشرتنا الطويلة تسمح بهذا يا إسلام؟

- ومن أين أتت بهذا الكلام إذن؟!

- ومَن فى صالحة أن يشى بك لديها إ سلام؟ ولِمَ؟ تعقل يا صديقى، ولا تتهم رفاقك جزافاً هكذا، انس الأمر مطلقاً، ولا تفسد علاقتك الجميلة بهم من أجل وهم فى رأسك وحدك.

ويردف بود شديد واشفاق عليه وعلى تلك العشرة:

- أنت أطيبنا يا إسـلام وكلنا نحبك، ثم إننا نعيش معاً أكثر مما نعيش فى بيوتنا، التى ولدنا وتربينا بها، استعذ بالله يا صـديقى من هذا الشيطان، الذى يركب رأسك ويسيطر على أفكارك!

ويستطرد بطريقته الحنونة اللذيذة، التى لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يقاومها ويتمسك بغضبه:

- كفاك عبطاً وجنوناً أيها الولد المدلل الصغير هيا ابتسم! لن اتركك حتى تبتسم، قلت ابتسم، تماما هكذا، الآن عدنى بأنك لن تفتح هذا الموضوع مرة أخرى.

- سأحاول.

- بل وعد صريح.

يسكت إسلام تهرباً، ويهمس عماداً حانياً:

- ألیس لی خاطر لدیك؟
- لك بالطبع عماد..فأنت تعلم قدرك عندى.
- إذن عدنى.
- أعدك!

تمر ساعات طويلة، ويهدأ الموقف المحتدم فى الشقة، فلباقة وحكمة عماد تداركت الأمر، وجّنبت إسلام ورأفت مواجهة، كانت ستفقدهما بعضهما لا محالة.

شيئاً شيئاً تعود الحياة إلى طبيعتها بينهم، يعود إسلام إلى غرفته فى صمت، بينما الباقون يشاهدون التليفزيون، ويتبادلون التعليقات العابرة، والمناقشات العادية حول الأخبار.

يمر يومان على هذا الحدث، ثلاثة، يخرج إسلام من عزلته كليةً ،ويعود إلى رعونته وصخبه.

يبقى عماد حزيناً حائراً، تكاد تفتك بأعصابه الأفكار:

- أعلم أن أميرة لا تهمك يا إسلام كإنسانة بها ما بها من رقة و صفات نبيلة، بقدر ما يهمك ألا تخسـر مغامرة أمام رفاقك، أحمق أنت يا إسلام لكنى أشفق عليك وأُبقى على عشرتنا، مساكين نحن البشر!

يبدو رأفت واجماً لحظة أن أسر إليه عماد، بأنه سوف يترك الشقة فى أقرب فرصة ممكنة، فقط أراد أن يطمئن عليهم.

- إلى أين يا عماد؟!

- سكن المستشفى مع الأطباء المقيمين.

- لكن...

- لكن ماذا يا رأفت؟ يكفى ما حدث، فلست مستعداً أن أخسر أحدكم، سأبتعد حتى تبقى الصلة بيننا طيبة ومتينة.

- ليس ذنبك يا عماد.

- ولا ذنبك يا رأفت، ولا ذنب أميرة أيضاً، إنها الأقدار الصعبة يا رأفت!

ويردف فى مرارة:

- وجودى هنا يخنقنى، ولن أستريح إلا إذا ابتعدت، ثم إن المستشفى ليس بعيداً إلى هذه الدرجة يا كسـول، فركة كعب من هنا إلى مصـر الجديدة.

وتهدأ نبرة صوته حتى تكاد تغيب:

- لن ينقطع الود أبداً يا رأفت، فأنتم فى بالى دائماً، و هذا المكان سيبقى فى قلبى وعقلى إلى الأبد، إنها عشرة سنين يا دكتور ولن تهون أبداً.

- أفهم من ذلك أنك مُصّر على قرارك؟

- إن شاء الله يا رأفت، فإن لم نخرج من التجربة بصديق، فلا يجب أن نخرج منها بعدو، ومن أجل هذا أفعل أى شئ، مهما كان قاسياً على نفسى، حتى ولو كان البعاد عن أناس أحببتهم، وعشت بينهم أجمل أيام عمرى.

ويردف بشئ من الأسى والحساسية المفرطة:

- وجودى هنا يضايق إسلام، وإن أبدى عكس ذلك، مؤكد رؤيتى فى كل حين هكذا تخجله، لا، لن يدوم هذا الحال يا إســلام اطمئن يا رفيقى، هو الرحيل ليس غيره.

ما هى إلا أيام قلائل، وغادر عماد السكن فى هدوء، ودون أن يودع أحداً، فما أصعب على قلبه من لحظات الوداع، وفى اليوم التالى لرحيله، يتصل رأفت يُخبر أميرة بما حدث.

مفاجأة حملتها على وجه الســرعة لانتكاســة صــحية كبيرة، تحاول الاتصال به بالمستشفى كل مساء لكن القدر لم يشأ لها أن تصادفه، وتظل عبارة «غير موجود»، التى يرددها موظف الســويتش فى كل مرة ،هى الرد الدائم عليها ، حتى غدت تكره تلك العبارة كراهة تحريم، ولو ســمعتها صــدفة فى أى مكان أو أى موضــع، صــارت تتوقع تلك العبارة البغيضة الشهيرة، حتى قبل أن ينطق بها الموظف، وكيف يكون موجوداً؟ وبأى قلب أو مشاعر يرد عليها؟!

يجدد عماد وصيته لحامد، موظف السويتش فى كل يوم، بألا يحول إليه أية مكالمة مهما كانت، لو حتى من الفيوم، ويســتجيب حامد ابن بلدته، الذى شاء القدر أن يعمل معه فى نفس المستشفى، مع اختلاف المواقع بالطبع، وقدراً أيضاً توافقت فى أغلب الأحيان ساعات عملهما الليلية.

كان حامد يعتقد أن أميرة هى الأخرى من الفيوم، وكان لطيفاً معها جداً حين تتصـــل، ويعرف صـــوتها للوهلة الأولى، فكان يبادرها على الدوام، وقبل أن تنطق بكلمة:

- أهلاً آنسة أميرة! مرحباً بالبلديات!

دامت أميرة سعيدة جداً بهذا الاعتقاد، لدرجة أنها كادت تصدق أنه حقيقة بالفعل.

تعيد اتصـــالها مراراً دون جدوى، وكل مرة لا يجد حامد بُداً من أن يُسمعها تلك العبارة التى تكرهها، رغم أ سفه الـ شديد وحرجه لكن ما بيده حيلة، وفى المرة الأخيرة تشـــعر أميرة بخيبة أمل غامرة لم تغزها من قبل:

- ممكن أترك رسالة أستاذ حامد؟

- طبعاً أنسة أميرة تحت أمرك!

« أميرٌ أميرٌ عليه الندى.. جوادٌ بخيلٌ بأن يجودا» تُملى فى أسى.

- اعتبرى الرسالة وصلت يا آنستى الجميلة.

- الآن من فضلك!

- لكنه غير موجود بالفعل.

- أقصد حين يعود.

- من عيونى!

يضع حامد السماعة، ويترك مكانه على الفور لأحد أفراد الأمن الساهرين إلى جواره، يبحث عن عماد فى شتى أرجاء المستشفى، يجده أخيراً فى الحضَّانة مكانه الأثير، لم يعجب حامد كثيراً حينما لم يشعر عماد بوجوده، فهو يعلم كم يحب عماد عمله وهذه النبتات الجميلة، يهمس برفق:

- تفضل يا دكتور!

وأمام شروده الرهيب اضطر أن ينبهه بصوت مرتفع قليلاً:

- دكتور عماد! دكتور عماد!

- هه؟ أهلاً حامد، خيراً!

- رسالة لك.

- يفتح عماد الورقة الصغيرة ثم يبتسم مهزوماً:

- – خسارة يا أميرة! ألف خسارة! لكنه قدرنا ولا هروب من القدر!

يتنبه على همسات مريبة:

- مَن؟ سماح؟!

- مَن أخذ بالك غيرى لا يهنأ به أبداً، لِمَ تطوى الورقة منى هكذا؟

- لا شئ، لا شئ.

وقبل أن يكمل كلامه تحاول الإمساك بالورقة، فيجذبها منها بقوة، فتزداد لهجتها رقة وميوعة:

«هل هى من الحبيب المجهول؟» وتفتعل بعض الضحكات ذات المغزى السئ.

ثم تردف مسرعة:

- ولكن قل لى هل هى فى جمالى؟ لا أظن أن هناك مثلى!

وتقترب منه بوجهها المضئ كالبدر ليلة تمامه، وشعرها الطليق يتماوج حوله، فيبدو كـ صفحة نهر داعبتها نـ سمات العـ صارى اللعوب، ثم تهمس بنفس اللهجة المريبة:

- بالذمة ألست جميلة؟ هل رأيت هذا الجمال من قبل؟ أستحق؟ أليس كذلك؟

يضــطرب عماد ويتلون وجهه، ربما خشــية أن يدخل أحد فجأة فيســىء الفهم، أكثر كثيراً من ارتباكه من الموقف فى حد ذاته، والذى لم يتوقعه مطلقاً لكنه يتماسك، يدفعها بقوة إلى الحائط المقابل، يصرخ في وجهها، وقد استجمع قواه ودمه الهارب من هول المفاجأة:

- اذهبى من وجهى وإلا قتلتك!

تخرج الممرضة سماح من الحضَّانة مذعورة:

- ماذا سيفعل هذا المجنون الغبى؟ ترى كيف سيتصرف؟ كله يهون إلا أن أفقد عملى، أمى، إخوتى الصــغار، لا، لا لن يفعل هذا، بل يفعله، غبى، غبى ، كنت أظن أن هذا التدلل منه صــنعة، لكنه غباء مترسخ فى شخصيته، وهل يوجد رجل بمثل هذا الغباء الآن؟ مَن أنت يا عماد؟ هل أخطأت التقدير؟ هل تخلى عنى ذكائى هذه المرة؟ هل فقدت جاذبيتى، التى طالنا ألقت بالعشــرات تحت أقدامى؟ هل وهل وهل...؟

تكاد تقتلها الأفكار رعباً من العاقبة، فلأول مرة يخرج عماد عن شــعوره، ويزايله هدوءه هكذا، مؤدب هو على الدوام فى كلامه، وتصرفاته مهما حدث، حتى يوم كوب الشربات لم يكن هكذا.

يعود عماد إلى مكتبه مستشيطاً غضباً، يجلس مرتبكاً يحدث نفسه:

- لم أعد أحتمل تصـــرفات هذه المجنونة ، لابد من أخذ إجراء رادع نحوها، وإلا ستفسد سمعتى بتصرفاتها الوقحة.

يهب واقفاً وقد قرر الذهاب على وجه السرعة لرئيسة الحكيمات:

- خيراً يا دكتور عماد!
- أطلب نقل الممرضة سماح من القسم.
- فهمت يا دكتور.
- لا، لم أقصد شيئاً.
- اعتبرها نقلت من الآن دكتور.
- أشكرك يا ريسة!

ويردف بعفوية شديدة:

- ولكن من فضلك دون أذى، فهى تعول أسرتها و سوف يضرها أى جزاء!
- هكذا أنت على الدوام يا دكتور عماد إنسان وقلبك كبير!

وتردف مس تماضر رئيسة الحكيمات فى حدة وتقطيب:

- وإن لم تلتزم فى القسم الجديد، فلسوف أُصعِّد الأمر للمدير، ليتخذ بشأنها قراره!

- أرجو ألا يحدث هذا أبداً، يكفى فقط أن تبتعد عن القسم.

ويحجب كلمة «وعنى» ثم يستكمل ممتناً:

- أشكرك يا ريسة! ألف شكر!!

يغادر عماد مكتب السيدة تماضر مستريحاً، هامساً فى سره « أخيراً انزاح هذا الكابوس!».

تمر الأســابيع الطوال بعد آخر مكالمة من أميرة، والتى تركت له فيها الر سالة إياها، تحاول هى الحياة خلالها، وغارق هو إلى آخر طاقته فى العمل.

لم تتصل هى ولا مرة واحدة بعدها، ولم يحاول هو الاتصال بها، بيد أن شوقاً لا ينضب، وحنيناً جارفاً داما بينهما، يسيران بهما فى كل مرة إلى حافة الضعف والانهيار، ولكن سرعان ما يتذكرا قدرهما الصعب، تقفز صورة إسلام بينهما، فيعودان أدراجهما إلى الواقع المر، إنه الوفاء ذلك المضنى العظيم!

يدور همس ودود بالطابق السفلى ، سلامات تكَّيل وقبلات تطبع، تهرع أميرة مسرعة إلى ذالك الهمس الذى تعرفه جيداً:

- أحلام، أهلاً توءمى العزيز!

ولكنها تردف مندهشة:

- غريبة! عدت بهذه السرعة؟ فلم يمض على سفرك أيام!

يجعلها صمت أحلام وملامحها المقطبة العبوسة، التى تشى بوقوع مكروه ما تستطرد فى كلامها:

- هل أنت بخير؟!

تمسك بيدها وقد زادت حيرتها وقلقها:

- اجلسى يا أحلام، طمئنينى عليك حبيبتى، ماذا بك؟!

وقبل أن تكمل كلامها تنخرط أحلام فى بكاء عميق، وتبنرى أميرة تبكى هى الأخرى دون ان تعرف السبب، تنادى أمها التى دخلت إلى المطبخ تواً، بعدما ا ستقبلت أحلام ورحبت بها مثل كل مرة، تربت الأم على ظهر أحلام وهى تحتضنها بقوة:

- ماذا حدث يا بنيتى.؟ تكلمى يا أحلام!

وتغرورق عينىّ الأم بالدموع:

- كفى يا بنيتى عن هذا البكاء، طمئنينى عليكم، لا احتمل يا حبيبتى.

تنشج أحلام ويعلو نحيبها ويضيع صوتها:

- ماما!

- ماذا بها يا أحلام، تكلمى يا ابنتى أرعبتى.

- مريضة، مريضة جداً.

وبيدها الحانية تمسح الأم دموع أحلام وهى تهمس بحب:

- يا طفلتى أمك بخير، لا تكونى هشة هكذا.

وتردف مبتسمة:

- كنت أزورها منذ يومين وكانت بخير، كلها أيام وتقوم يالسلامة إن شاء الله، هى قالت لى هذا.

يحتبس صوت أحلام برهة وبصعوبة تقول:

- ليت الأمر كذلك يا ماما! ليته كذلك! ولكن...

تعود للنحيب والبكاء المرتفع وتقول خلال بكائها:

- ولكن الاشعات والتحاليل، التى نصح الأطباء بعملها أكدت عكس ذلك تماماً.

ثم تتلعثم ويتقطع صوتها ثم يغيب كليةً، لم تستطع أن تكمل كلامها، ولم تستطع أميرة وأمها تحمل الصدمة.

تبكى أم أميرة بحرقة وشريط حياتها يمر أمام عينيها:

- سعاد؟ رفيقة عمرى؟ صديقتى وأختى وحبيبتى؟ شريكة أفراحى وأحزانى؟ أسـرارى وذكرياتى؟ لحظات ضـعفى وقوتى؟! لا، لاااااا!

ويعلو نحيبها رافضة ما يقال:

- لا، لا يا أحلام، أنت مخطئة يا ابنتى، والأطباء أيضـاً لا يعرفون شيئاً، أنتم لاتعرفون سعاد، أنا فقط التى أعرفها جيداً، سعاد قوية وحمولة وسـتتجاوز المحنة بإذن الله، وسـيكتشـف الأطباء أنهم مخطئون.. مخطئون.

تعلم أم أميرة أن كلامها هذا هو الخطأ عينه، والهراء أيضاً، لكنها لا تستطيع تصديق تلك الحقيقة المُرة.

لمحت فى عينيها نظرة ،فى الزيارة الأخيرة منذ يومين كأنها الوداع .. كذَّبت عينيها وإحسـاسـها لحظتها، صـدَّقت فقط كلام رفيقة عمرها، لأنها بالفعل ترفض تصديق غيرها.

- أنا بخير يا زينب، صدقينى يا أم أميرة.. كلها أيام وأ ستريح من كل هذا الألم، كلها أيام يا زينب، كلها أيام!

تتردد فى أذن أم أميرة عدة مرات كلمات المريضة، تفشل فى كبح انهيارها، تهرول إلى الداخل مسرعة.

تستدير أميرة إلى حبيبة روحها أحلام ذاهلة:

- لابد أن هناك حلاً ، أليس كذلك يا أحلام؟!

- يصر أخوالى على نقلها إلى مستشفى كبير بالقاهرة، لتكون تحت إشراف المختصين ولقد جئت اليوم...

وتكمل كلامها بكاءً.

- سآتى معكم.

- لا يا أميرة أنت مريضة يا حبيبتى وكفاك ما بك!

- هى أمى أيضاً، مثلك تماماً!

- أعرف يا حبيبتى، أعرف.

- ولكن...

- يفعل الله ما يريد يا حبيبتى، سنعود الليلة إلى القاهرة

- .طمئنيني بمجرد وصولكم يا حبيبتي.

- إن شاء الله! إن شاء الله!

عشرون يوماً تقضيها أم أحلام بالمستشفى القاهرى، وعلى امتداد تلك الفترة، تتصل أميرة يومياً أكثر من مرة، للاطمئنان عليها، تطمئنها أحلام مرة ومرات تبث إليها شكواها ومخاوفها، بينما يجد إسلام فى ذلك فرصة سانحة لسماع صوتها، والحديث معها بعض الوقت، قبل أن يعطى السماعة لوالدته، وربما تكون الوالدة نائمة، أو فى الحمام، أو وحدة العلاج الكيماوى، أو تحت وطأة ظرف ما يمنعها من الرد، ولم تكن أميرة يوماً بهذه الصفاقة حتى تعاملة بحدة فى مثل هذه الظروف.

عشرون يوماً تعانى الأم الرءوم من آلام هذا المرض الفظيع، تموت فى اليوم والليلة عشرات المرات!

فجأة يهدأ القلب النابض بالحب والحنان والخير، تسكن الروح الطيبة الصبورة، تغيم العينان اللتان طالما شعتا بالتسامح والرضا، رغم كل عذابات السنين والجراح، يهمد فى لحظة ذلك الجسد المتفانى بتراكمات الحياة!

تضـــيف الأيام لوناً جديداً من ألوان الحزن، لأحزان أميرة الكثيرة والمتعددة، حزينة هى تعيش أيامها، جريحة مهزومة!

تبقى بخاطرها الذكرى، تسترجعها فى كل لحظة كشريط سينما لا ينتهى، تطفو على سـطح أحزانها صـورة مشـوشـة لأيامٍ كئيبة وعالمٍ هارٍ يحتضر.

الفصل الثاني عشر
أوجاع القلوب

يرتفع الصوت قليلاً وتتغير قسمات الوجوه، يبدأ الضجر يغلف الردود ويسود التبرم، تحتد المناقشة:

- لست وصياً على تصرفاتى يا عادل.
- إنها سمعتنا جميعاً يا إسلام، وقبلها سمعتك ومستقبلك.
- أنا أدرى بنفسى، ولست بحاجة إلى نصائح من أحد، لست صغيراً يا دكتور.
- المصيبة أنك لست صغيراً بالفعل!
- من فضلك يا عادل!
- يا إسلام هذه البنت تلعب بك وتستغلك، كل تصرفاتها تؤكد هذا، صدقنى يا إسلام!
- إنها تحبنى يا دكتور.
- بل تحب هداياك ونقودك، تسلى وقتها يا إسلام فهى غريبة هنا.

- وفر نصائحك يا سيد عادل.

- لا فائدة منك إذن!

- هو كذلك بالفعل.

- حسناً، سأثبت لك صحة كلامى، وفوراً.

ويردف فى غيظٍ شديد:

- هل هى تعرف عنوان السكن هنا؟

- ماذا تريد يا عادل؟

- فقط أجبنى.

- لا تعرفه يا سيدى.

- اطلبها حالاً.

- لا أفهم شيئاً.

- ستفهم حالاً.. فقط اطلبها.

ترتعد يد إسلام، ويخطئ أكثر من مرة فى ترتيب الأرقام، يكاد يموت رعباً!

«أمل تحبنى بصــدق، وســأثبت لك يا عادل» يحدث نفســه بينما ينجح أخيراً فى ترتيب الرقم.

- أهلاً إسلام!

- أهلاً حبيبتى!

يشير عادل إشارة معينة فيردف إسلام فى عجل:

- لحظة حبيبتى أفتح الباب.

يمـ سك عادل الـ سماعة، بعد عدة ثوان تكفى لدخول طارق الباب، يهمس عبرها متعمداً:

– هل عماد الذى يتحدث؟

تبادره بضــحكة ذات مغزى، قبل أن يطلق كلمته الأولى عبر الأثير، ثم تهمس قائلة:

- وإن لم يكن هو ألن تكلمنى؟

يشــعر وهو المحنك فى هذه الأمور بوقاحة مترســخة فى طريقتها، فيرتدى قناع اللؤم والخبث على الفور.

- آسف يا آنسة، أم مدام؟

- وهل هناك فرق؟
- كبير طبعاً.

تـ ضحك بطريقة فجة ،لا تدع مجالاً لل شك فى أنه كان محقاً مليون بالمائة فى ظنه بها، ثم تردف:

- خبيث أنت جداً يا...

وتردف شاهقة:

- ولكن ما اسمك يا حبوب؟
- دكتور عادل، صديق إسلام الروح بالروح.
- معه فى نفس السكن؟
- لا، بل أسكن وحدى بعيداً عن هنا.
- جميل!
- ما هو الجميل يا قمر؟
- أمل يا حبوب.
- جميل!

- ما هو الجميل يا عادل؟
- اسمك طبعاً، وصوتك أيضاً.

تهمس بنبرة خافتة جداً:

- هل إسلام بجانبك؟
- ذهب إلى السوبر ماركت.
- أفضل كثيراً، ولكن أخبرنى عندما يعود.
- طبعاً طبعاً!

يتبادلان الحديث بوقاحة طويلاً، وإ سلام لم يزل يخدع نفسه، رغم أنه يسمع كل الكلام من السماعة الآخرى.

يمليها عادل العنوان، بينما إسلام لا يكترث بكل ما يدور، كأنه مغَّيب.

« لابد أنها تريد أن تلقنه درساً فى الأدب، هو كذلك بالفعل، تستاهل يا أخ عادل» يهمس إسلام فى سره.

أبله هو إ سلام دائماً، ينخدع فى كل مرة، لكنه لا يثوب لر شده، ولا يعى الدرس أبداً، أحمق هو أرعن، ضاع وضاعت معه أحلام أناس لا ذنب لهم، سوى أنهم يعرفون جيداً معنى الوفاء.

يفرغ عادل من مكالمته، ولم تســأل هى عن إســلام مطلقاً، يبدو أنها نسيته من حال الأصل، يستدير إلى إسلام:

- أسمعت يا عم إسلام؟ أم تنتظر أن ترى؟!

- أنت مخطئ يا عادل.

- أمازلت تكابر؟!

- لن تأتى يا عادل، انا متأكد من هذا.

- سترى يا إسلام ، كلها نصف ساعة فقط.

يذرع إسلام الصالة الصغيرة جيئة وذهاباً، مرتبكاً مضطرباً، يخبط رأسه فى كل حائط يقابله أو باب.

« لن تأتى يا عادل، لن أصــبح أضــحوكة الجميع مثل كل مرة، أمل تحبنى، فلطالما قالت لى هذا، ثم إنها لابد أن تسافر إلى بلدتها اليوم، هى أخبرتنى بهذا» يحدِّث نفســه فى جنون، وظلت تراوده الأفكار الســوداء وتستعبد مخيلته، بينما هو يغلى ويهمس فى نفسه بلا انقطاع.

تمضــى نصــف الســاعة المعقودة أو يقل قليلاً، يدق جرس الباب، ومعه تداخلت طرقات خفيفة متواصــلة، يدخل عادل متململاً إلى غرفته، تاركاً إسلام فى مواجهة حقيقية، مع نفسه أولاً قبل أن تكون مع تلك القادمة.

ببرود عتيق لديه يفتح إسلام الباب، وتزلزل صفقة الباب بعد ولوج الطارقة العمارة بكل طوابقها الخمس، بينما انبرى إســلام هائماً على وجهه بلا هدى.

تقوم عواصــف وتهدأ، وتأتى الرياح دوماً بما لا تشــتهى الســفن، تنقضى ثلاثة أشهر كاملة على آخر حوار لأميرة مع عماد، تنزوى مكتئبة فى ركنها المعهود، بأقصى يسار الشرفة إلى ساعة متأخرة من الليل.

«ثلا ثة أشــهر يا عماد! كنا فى أوائل ابريل، ونحن الآن فى أوائل يوليو!» تهمهم فى نفسها، وتصمت قليلاً ثم تردف دامعة:

- ترى كيف حالك الآن؟ ترى هل تغيرت عن زمان؟ هل ما زلت تذكرنى؟!

تختلط الكلمات بالدموع:

- ترى هل لنا مع القدر نصيب مرة أخرى؟

تنظر إلى النيل السارى أمامها دون توقف، ونسمات الصيف العليلة تداعب خد الماء، تشــرد بعيداً، يســتيقظ بداخلها حلم جميل طالما راودها، قارب صــغير يضــمهما على صــفحة هذا النهر الرائع، فى ليلة صيفية كهذه، يستقبلان سويا أول خيوط الفجر، ويسمعان وحدهما أول

طائر يحرص على أن يسبق الطيور الآخرى، ليصدح منفرداً بنشيد الشروق، وتردد خلفه الطيور جوقة عذبة التغريد، تعلم جيداً أنه مجرد حلم لن يتحقق فى يوم من الأيام، لكنها كانت سعيدة جداً به، مسكينة هى!

يرتفع صوتها بالبكاء، تحدق بعيون ملأى بالدموع إلى القمر السابح فى عليائه :

- أيها الصديق الوفى! يا من تشهد على حالى، يا مَن تعش معى آلامى وأحزانى، يا من تواسنى فى الليالى الطويلة، يا من تبكِ معى وعلىّ، بلِّغ حبيبى منى السلام، ذكِّره بمساءاتنا الدافئة معك، خبِّره أنى أشتاق إلى كل لحظة منها، سله عن الحب، عن الذكرى.

وتردف ذائبة فى الحنين:

- ترى هل مساء الصيف معه بنفس روعة مساء الشتاء؟ ربما أروع؟ لن أنام حتى تعود.

يتهادى إلى أذنها صوت كروان تألفه، يمر بها كل ليلة، يهديها السلام ويطمئن عليها، يظل صداه يتردد حولها وفى أعماقها إلى أن يعود مرة أخرى.

يمضى القمر مودعاً، تطول غيبته ويطول انتظارها، يترهره فى عينيها السراب، يرسل الفجر أول خيوطه.

تدور الأيام دورتها بالجميع، تمد يدها الكليلة بالفرح لحظات إلى هذا، وتغدق بالحزن الوفير على ذاك، تحمل أنباء مكرورة للبعض، ومفاجآت سخيفة وأحيانا مفجعة مريرة للبعض الآخر.

يضـع رأفت سـماعة التليفون فى تبرم وضـيق، يبدو آسـفاً جداً مستنكراً:

- لا يا أحمد، هذا حرام فعلاً، ماذا فعلت سـوزان لتتهرب منها هكذا، وتضطرنى للكذب؟

ويردف بزهق:

- كنت أشعر أنها متأكدة من وجودك، وأننى أكذب عليها، لكنها بنت مؤدبة ولطيفة ولم ترد أن تحرجنى، فمالك بكل هذه الصـفاقة وقلة الذوق؟ ماذا دهاك يا أحمد؟!

- أرجوك يا رأفت لا تفتح معى هذا الموضـوع ثانية، فقد قفلت بابه للأبد.

- ولمَ يا أحمد؟!

- لم يعد مناسباً الإبقاء على تلك العلاقة الآن؟

- قلت لى مراراً أنك تحبها.

- كان منذ زمن، أيام الدراسة بالبلدة، ولقد قررت إنهاء هذا السخف.

- بهذه البساطة؟!

- لقد كبرنا يا رأفت وتخرجت وأصبحت طبيباً، وعلى التزامات وواجبات، بصراحة يجب أن التفت لعملى ودراساتى القادمة.

- كبرت فجأة يا أحمد؟ أدركت ذلك الآن فقط؟ أم لأنها ممرضة؟!

- ليس الأمر كذلك بالضبط.

- اشرح لى يا دكتور يا كبير، يبدو أننى لم أعد أفهم.

- من فضلك يا رأفت!

- من فضلك أنت يا أحمد، لا تترك البنت معلقة هكذا، تصرف معها كرجل، كن شجاعاً وواجهها، رُد عليها بنفسك، صُدها أنت إن استطعت، لكنى لن أكذب عليها ثانيةً.

- صددتها مراراً لكنها تُصر على ملاحقتى.

- كن صريحاً معها أكثر يا دكتور، قل لها أنك لم تكن جاداً معها طوال كل هذه السنوات الماضية، قل لها لم أكن أقصد أن أحبك «سورى»، خسارة يا أحمد ظننتك رجلاً!

- رأفت!

- ماذا؟ أوجعك كلامى أيها الفلاح الشهم الأصيل.

- كفاك يا رأفت كفاك.

يترك أحمد المكان غا ضباً، يبدو أن الجميع تغير بالفعل، كنت اللبنة المكملة للبناء يا عماد، هذا واضح جداً، انتزعت نفسك من الواجهة فصار المبنى شائهاً كريهاً، تعافه العيون وتشمئز منه القلوب وتنفر الأرواح.

لم يعد أحد يحتمل كلاماً من أحد، ولم يعد أحد حري صاً على شعور أحد ، تلا شت البساطة التى كانوا يتعاملون بها، و صارت حياتهم أكثر تعقيداً وكُلفة.

ترى لِمَ كل هذا؟ هل غيَّرهم اللقب مؤخراً؟ و هل هذا معقول؟ فالكل ينادونهم بلقب دكتور، من أول يوم التحقوا فيه بكلية الطب، فماذا جرى إذن؟ بل تمزق الثوب الجميل الذى كان يسترهم، برحيل

الملاك الذى كان يتم نقائصهم، ويقيل عثراتهم، الملاك الذى رحل ولن يعود!

شئ محير بالفعل، أين ذهبت بشاشتهم؟ أين اختفت ضحكاتهم المجلجلة؟ أين المرح والصفاء؟ أين ذهبت أيام مسح السلم والقهقهة وأم عبده؟ أين كل هذا؟ أين، أين؟ لمَ أُغتيلت أحلامهم الخضراء البسيطة؟ ولصالح مَن تجهمهم، وجموحهم هذا المجنون نحو التباعد والقطيعة؟ أسئلة تدور برأس رأفت، ولم يجد لها إجابة حتى لدى عماد، الذى يؤمن بالسلام الشامل والدائم والكامل، مع الله ومع النفس ومع الآخرين، ومع الحياة ذاتها بكل ما فيها من أوجاع، بشوش هو على الدوام متفائل، عسى الأيام ألا تخذله، ويعود الود المارق بين الصحبة!

تتساءل أميرة وهى تُحدِّث رأفت:

- ماذا حدث لكل هذا يا دكتور؟
- لم أعد أدرى شيئاً يا أميرة، صدقينى لو قلت لك أننى صرت لا أفهمهم، أو ربما لم أفهمهم من البداية.
- سحابة صيف يا دكتور، تمر سريعاً إن شاء الله!
- أدعو الله يا أميرة!
- وأخبارك أنت طمئننى عليك.

- توى عائد من طنطا، ولدى نبأ سار لك.

- ترى؟

- خمّنى!

- سامحك الله يا دكتور!

- ماذا؟!

- فأنت تعلم كم قلبى موجوع ومتعب، بل ومتهالك وليســت لدى القدرة على التخمين.

- ما كل هذا يا بنتى؟ صمتاً صمتاً، سأتكلم فوراً.

- آه لقد عرفت، تمت الخطبة، صح؟

- صح يا ذكية، أقصد يا أميرة، وتقولين أنك غير قادرة على التخمين؟

ويردف بفرحٍ كبير:

- اسم غال يا أميرة!

- طبعاً يا سيدى، يا بختها!

- يخلق من الشبه أربعين، ومن الأسماء أيضاً، بل آلاف!

- ألف مبروك يا دكتور!

- عقبالك يا أميرة!

تسكت برهة ثم ترد بلا حماس:

- متشكرة جداً!

- تسكن بعينيها صورة مُتخَيَلة لعماد منذ أن بدأ رأفت كلامه معها، تحاول أن تزيح عن قلبها بعض الهموم المطبقة عليه، فتتمادى فى حديثها مع رأفت بلا هدى، على الأقل تقطع حدة الوقت وكآبته.

- ليكن فى علمك أنا التى أتصدى لك لو زعلتها.

- هكذا؟

- طبعاً، ولا تقل هى ابنة عمى وأنا وابن عمى على الغريب، لأننى أقرب إليها فهى تشاركنى فى اسمى.

- موافق يا سيدتى ، ليت كل البشر فى رقتك ولطفك يا أميرة.

- تجاملنى كثيراً اليوم ، طبعاً يا عم راحة البال لها مفعول السحر.

- حسد ده؟

- لا سمح الله دا قر!

- يا غلام، البخور يا غلام!

- أضحكتنى كثيراً اليوم ، من فضلك كفى أتعبت قلبى.
- غريبة! أول مرة أعرف أن الضحك يتعب القلب، جديدة هذه!

ويرف مازحاً:

- آه، نسيت أن سيادتك غاوية نكد، أكيد هو الذى يقوى قلبك.
- شكراً سيدى!
- لا شكرعلى واجب سيدتى، أية خدمة، مستعدون لتوصيل الطلبات للمنازل!
- يبدو أنك وحدك بالسكن فقلت أتسلى على أميرة!
- عفواً أميرة، ثوان أفتح الباب.
- لا، بل سلام الآن نتكلم فيما بعد!
- مُوافقون! مع السلامة!

« مزعجٌ أنت يا إســلام دائماً، ومفرق الجماعات » يتمتم رأفت، وهو يغلق الباب بعد مروق إسلام ثم يهمس متردداً:

- لم تطل المكوث بالخارج كعادتك؟

يقاطعه قائلاً:

- جئت لآخذ شيئاً وأعود فى الحال.

بينما يتبادلان الحديث ملياً على مضض، يعاود جرس الباب صليله، فيطلب رأفت من إسلام أن يفتح الباب، بينما يتوجه هو إلى المطبخ ليطفئ شعلة البوتاجاز، وينقذ القهوة من الفوران، لكنه يفشل مثل كل مرة، خسارة!

« لابأس وهل ستفرق» يهمس فى نفسه ضاحكاً.

لكنه فكر للحظة، لو كان فتاة من الزمن الغابر كانت ستفرق كثيراً جداً، ومن الممكن أن تكون هذه القهوة التى من غير «وش» سبباً فى فرار العريس منها، وجعل يضحك ملياً من تفكيره هذا الفنتازى، بينما يعود إلى الصالة حاملاً فنجانه العجيب.

« مَن يا إسلام؟» يقول متسائلاً عن الطارق منذ قليل.

يجيب إسلام متلعثماً:

- آنسة تسأل عن أحمد.

- ماذا؟

وترد الواقفة على الباب على استحياء:

- أنا يا دكتور رأفت.

- أهلاً تفضلى، تفضلى!

ويستدرك حينما لمح الدهشة تكاد تذهب بأفكار إسلام بعيداً:

- آنسة سوزان، قريبة دكتور أحمد.

ثم يحول يده إلى إسلام قائلاً:

- دكتور إسلام زميلنا.

- تشرفنا يا دكتور!

- الشرف لى يا آنسة سوزان!

يهمس رأفت فى أذن إسلام:

- من فضلك عصير ليمون لآنسة سوزان!

- حالاً.

- أشكرك يا دكتور! ليس له لزوم.

- بخيلة أنت إذن؟

- فقط لا أريد أن أتعبك.

- أبداً، أبداً.

يلتفت رأفت إليها:

- أردت أن تكونى على حريتك فى الكلام.

- خيراً فعلت والله يا دكتور.

- ولكن قولى لى، هل أنت هنا فى زيارة لأحد؟

- أنا قادمة من البلدة.

- يا خبر! من كفر الدوار؟ كل هذه المسافة؟!

- كله يهون يا دكتور، المهم أصل إلى حل مع أحمد.

- لست ادرى ماذا أقول لك يا سوزان؟

- لا تقل شـيئاً يا دكتور فالذنب ذنبى والخطأ خطئى، أحببته ووثقت به، الدكتور الذى يتهرب منى الآن.

«الليمون» يقطع إسلام عليهما الحديث.

«أشكرك» ترد سوزان مرتبكة.

يجلس إسلام ويهمس إليه رأفت بصوت مسموع:

- آنسة سوزان ستكون معنا على الغداء اليوم، أرنا همتك يا بطل، نريد طعاماً تقسم أنها لم تذق فى حياتها مثله.

«طبعاً، طبعاً، بإذنكما!» يهمس إسلام ثم ينصرف إلى المطبخ، وقد منعه قدوم سوزان من الخروج ثانية تأدباً، حتى لا يبقى رأفت معها وحده، وهذا لا يصح من وجهة نظر الجميع، فكلهم ريفيين ويعرفون الأصول جيداً، وبخاصة مع اللاتى تربين عليه مثل سوزان.

يعود رأفت يهمس فى قلق بالغ:

- أكملى يا سوزان، ما الأمر؟ أوقعتى قلبى!

- لا، لا، ليس الأمر كما فهمت، أنا اقصد حياتى المعطلة من أجله، وتضحياتى بفرص لا يُفرِّط فيها عاقل، فلطالما قال لى انه سيعوضنى عن كل هذا، فقط يتخرج وبعدما تخرج نسى كل شئ، لم يفكر إلا فى نفسه وحسب، لم أكن أعرف أنه بهذه الأنانية من قبل.

وتردف باكية:

- لكنى أحبه، أحبه!

- لا تبكى يا سوزان، سيأتى أحمد بعد قليل، وحتما لن يرضيه هذا، مؤكد هناك حل.

- وضعى حرج يا دكتور بين أهلى والجيران والمعارف، تزوجت أصغر شقيقاتى من أسابيع، ووالدى يصرعلى تزويجى من ابن عم زوجها المحامى، الذى تقدم لخطبتى مؤخراً.

- لن يحدث هذا أبداً، أرجوك كفى عن البكاء! ماذا يقول إسلام؟!

« تسأل عن أحمد ويوزعنى رأفت ثم تبكى، ترى ما الحكاية؟» تلعب الأفكار الخبيثة برأس إسلام، وهو يعد أصنافه المميزة من الطعام لأجل الضيفة.

يعاود جرس الباب صليله بينما هدأت سوزان، فقد نجح رأفت فى إخراجها مما هى فيه مؤقتاً، يفاجأ بها احمد فيتلون وجهه بألوان عديدة متتابعة، ويقطب حاجبيه:

- أهلاً!

يســتأذن رأفت بحجة مســاعدة إســلام فى المطبخ، ويدور الهمس خفيضاً بينهما:

- كيف تأتين إلى هنا؟ ماذا أقول لهم الآن؟ هل جُننت؟ ألا تفهمين؟
- ســامحك الله! عموماً جئت لأذّكرك أنى مازلت عل قيد الحياة، وأعرف ســبب تهربك منى، ثم إن رأفت ليس غريباً، فهو يعرفنى جيداً ويعرف قصتنا.
- وهل تســمين لعب العيال هذا قصــة؟ لقد كبرنا على هذا، أفيقى يا سوزان.
- أول مرة تنادينى بهذا الاسم!
- أو ليس اسمك؟
- كنت تنادينى دوما بســوســو مثلهم عندنا بالبيت، ولكن ماذا تعنى بلعب العيال هذا؟
- أعنى ما فهمت؟
- تقصد...
- بالضبط!

- ليس من حقك وحدك يا أحمد.

- دكتور أحمد لو سمحتى!

- لا أصدق أذنى!

- بل صدقى.

- وحبنا؟!

- قلت لك لعب عيال.

- ووعدك لى؟!

- لست مستعداً لهذا المشروع الآن، حتى وإن فكرت فيه سأرتبط بدكتورة مثلى.

- مشروع؟ دكتورة مثلك؟!

- أظن كفاية!

- كفاية جدا يا دكتور، بل أكثر من اللازم بكثير، كثير جداً، جداً جداً!

تظل تردد كلمة «جداً» وهى تستدير إلى الجهة الأخرى، تتحسس طريقها نحو الباب.

« سوزان! أين أنت ذاهبة؟ انتظرى الغداء جاهز» يقول رأفت وهو يحمل أطباق الطعام قادماً من المطبخ، ويبادره أحمد فى صفاقة:

- دعها يا رأفت فالمســافة طويلة كما تعلم، ويجب أن تعود قبل الليل.

يُصــدم رأفت من موقفه، وأســلوبه الفظ فى الكلام، لم يرحه هذا مطلقاً، ولم يشــجعه على تقبل ذلك العذر الواهى، الذى علل به أحمد ذهابها على هذه الحالة، وأمكنه بالطبع استنتاج ما حدث.

« هل انت بخير يا سوزان؟!» يهمس رأفت إلي سوزان، وتنظر إليه دون أن تنطق بكلمة، فقط تومئ برأسها علامة الشكر لله على كل حال.

«انتظرى لحظة أبدل ملابســى لأوصــلك إلى المحطة» يقول رأفت وهو يتجه مسرعا نحو غرفته.

لم تجبه لا بكلمة ولا بحركة، وأسرعت تغلق الباب خلفها وتمضى بلا هدى.

يتبعها رأفت مسرعاً دون أن يبدل ملابسه، فلم تكن سيئه جداً ولا غير ملائمة لنزول الشارع.

الفصل الثالث عشر
الأمل المستحيل

ما أصعب الحياة على أميرة، بعدما سلبها جهل وغباء البشر حب عمرها، ما أتعس الأوقات التى تمر عليها، ما أقسى الخطوب التى تطالعها!

«نحسٌ هو يوم ميلادك يا أميرة، ليتك تفارقين الحياة حتى تستريحى وتستريح منك الحياة، لا النوم يأتينى فأنسى ولو لبرهة، ولا اليقظة ترحمنى من الذكرى» تهمهم فى نفسها مكتئبة.

وتستطرد بنفسى الروح المنهزمة المجروحة:

- مال هذا الصباح قاتماً بوفرة؟ ماله كئيباً بلا رحمة؟ وهل فى القلب موضع لجرح جديد؟ يالروحى المعذبة! يالشقائى الأبدى!

تفتح النافذة كعادتها كل صباح، لتطمئن على ذكر اليمام الذى أصبح وحيداً كسيراً مثلها، بعد أن راحت أنثاه ضحية لطفل عابث، يضرب بنبلته فى كل اتجاه غير مبال بالعواقب، أيام طويلة مضت وهو على هذا الحال.

« ياللمسكين! ينكمش حزيناً! ماذا أفعل لأخفف عنه؟!» تقف بالنافذة تحدث نفسها.

وتردف بنفس الروح الكسيرة:

- لو كان الأمر بيدى ما تركتك هكذا تذوى يوماً بعد يوم، مالك لا تعبأ بى؟ أمللتنى أنا أيضا كما مللت الحياة؟!

جعلت تحملق داخل العش، والطائر مستلق بلا حراك، بقيت عينها معلقة به طويلاً، لكنه لم يعبأ بلهفتها عليه وظل كما هو، يساورها الشك والقلق فتجرى إلى والدتها:

- ماما! الطائر لا يتحرك! لا أعرف ماذا أصابه؟

تصـعد الأم لتراه بوضـوح ،من نافذة أميرة بالطابق العلوى، وهى مقدرة تماماً مدى حب ابنتها لهذا الطائر وا شفاقها عليه، تنظر إلى العش بتمعن ثم تتلعثم:

- إنه...

- إنه ماذا؟ ماما أرجوك تكلمى!

- ما.. ميي .. ميت يا ابنتى!

- لا، لا، لا يا أمى ، حرام! حرام ! لمَ يحدث لى كل هذا؟ لمَ كل هذا العذاب ياربى؟!

يتعلق بصرها بالعش وقد انهارت تماماً:

- حتى أنت أيضاً تتركنى؟!

تحتضنها الأم متألمة:

- لا تقولى هذا يا ابنتى، استغفرى ربك يا أميرة، هذه سنة الحياة يا حبيبتى!

وتردف بخبرة الحكيم المجرب:

- ثم إن هذا شىء حتمى يا حبيبتى، فاليمام مثل الحمام تماماً فى صفاته، يحزن لفقد إلفه حتى الموت، فلا يلبث أحدهما بعد فقد الآخر حياً طويلاً.

وتضمها الأم إلى صدرها اكثر:

- هو يكون سعيداً لرحيله يا حبيبتى، فالموت أهون لديه من الحياة بدون الحبيب، ليس كلاماً يا ابنتى فهذه هى الحقيقة، ولقد مر علىّ ذلك كثيراً وتعودته، ويجب أن تعتاديه أنت ايضاً يا طفلتى الكبيرة!

- صعب جداً يا أمى! مستحيل! مستحيل!

تبكى بحرقة على صدر أمها، وتتمتم خلال دموعها:

- الفراق شئ بشع يا أمى! بشع!

- هكذا الدنيا يا نور عينى!

تنصرف الأم لأشغالها بالطابق السفلى، ولم تزل هى واقفة تحدِّق فى العش، الذى طالما ضج بالهديل والعشق، تتذكر أيامها الخوالى، وهى ترقب الحبيبين، تتورم عيناها من البكاء، ولم تزل عيناها نازفة بلا انقطاع، تتردد فى أذنها كلمات أمها.

- الموت أهون من الحياة بدون الحبيب!

تهمس فى شرود وتمزق:

- صدقت يا أمى! حقاً الموت أهون، ولكن حتى الموت يعاندنى، كما هو كل شئ فى الحياة!

تتسلق الشجرة وهى غارقة فى دموعها، تأخذ الجثة، تتوقف قليلاً كأنما ليودع الطائرعشه الجميل وداعاً أخيراً!

تكاد تنزلق قدمها لولا أن تنبهت فى آخر لحظة، تحفر له تحت نفس شجرة المانجو وتتركه فى سلام ينعم بلقاء الحبيب.

تصعد الدرج ممزقة آسفة على كل الأحبة، الذين تفقدهم الواحد تلو الآخر، وهى لا تملك إلا ان تودعهم بقلب بين الضلوع ذبيح، وأنهار لا تنضب من الدموع!

تمر الأيام وهى تزداد اكتئاباً وحزناً، تضحى ناحلة الجسم، شاحبة مرهقة، تعيش على الذكرى.

رحماك ذكراه ترفقى

إلامَ للقلبِ ترهقى

افترقنا منذ زمنٍ فما

جدوى الأوهام لتُغدقى

أشمسٌ أنت قُدر لك

على القلب أبداً تُشرقى

إن يكن.. بالله ربكِ

أسألك رحيلاً فأخفقى

احجبى عنى ذاك اللظى

قد عشنا العمر نلتقى

خلّى آفاقى وارحلى

وبذاك الوفاء تصدقى

أنت الأسيرة أم أنا

ما عدت أدرى فاشفقى

غير سوطٍ متى هوى

صادف عن عمد تشوقى

حطمى القيود واهربى

وكفاك أسرى تعشقى

وإن كنت الأسيرة أنا

فجودى أنت واعتقى

ليت قلبها يكتفى بالذكرى، بيد أنه من حين لآخر يعاود إلحاحه عليها، بأن ترحم عذابه وضعفه، تهرب رغم تمزقها وتتركه فى مواجهة عارمة على الدوام مع الكبرياء، الذى ينتصر فى كل مرة، ويبقى القلب كسيراً مهزوماً، تكاد تذوب ألماً من خصامه المستمر، وغيابه عنها غير مبال بأنها تحمله بين جوانحها، كأنه يعاقبها على تفريطيها فيه من قبل فيأبى الرجوع، أو هو لا يملكه بالفعل، يعز عليها حال قلبها الذى لم تعد تربطه بها أية صلة سوى أنه يسكنها، تتوسل إليه بحبيبه الذى يهجرها من أجله، يلين على الفور القلب الذى طال تمرده، فلا يستطيع أن يرد متوسلا جاء بحبيبه شفيعاً!

وتمر الأيام ويعاود القلب خصامه، وتعاود هى البحث عن بديل له، وأخيراً تُجبر على أن تبادر بالصلح، تكاد تجن، تموت فى الليل مرات ومرات، صعبة هى الحياة عليها، بل مستحيلة، تبكى ، تشكو، تصرخ، تناشد الأيام العفو، تتوسل إلى الأقدار ترجو الرحمة!

مرتعٌ للأوهام قلبى
خصيبٌ ياله خطبى

بين الحينِ والحينِ يزوى
متجاهلاً كونه بجنبى

يهتك أستار الغيبِ
ويهرول للذكرى يلبى

يجوب آفاق الماضى
ويضلُ فى العودةِ دربى

فأشقى فى البحثِ عنه
وإذا به زاوياً عن قربِ

يبكى أطلال الهوى

شارداً وحده دون السربِ

يشكو آلاماً تضنيه

وضيقاً بذاك العالم الرحبِ

وعمراً بالرغم يطويهِ

فى شتاء مطير السحبِ

تشيحُ الأيام بوجهها

معربة عن كل الغضبِ

معاقبةً إياه على الشغبِ

وترقع ما هتكَ من حُجبِ

ليبقى وادياً خصباً

غريباً مجهول النسبِ

تغزوه أسراب الوهمِ

ويُغدق عليها كل نَصَبِ

ما كل هذا أحبنى

وفاءً أم عقاباً قلبى

فالويلُ للنفس كل الويلِ

متى كان الوفاءُ بذنبِ

شهور طويلة انطوت وهى كما هى، والذكرى هى الذكرى، والقلب هو القلب عنيد مرهِق، تقرر أن تكتب له أولى رسائلها.

على يقين هى من أن الرسـالة سـتصـل طريقها إليه، وتضـيع عبر المجهول، لكنها لم تسـتطع منع مشـاعرها الاطمئنان عليه، ولم تعد تقو على معاندة قلبها أكثر من هذا.

تنفجر دموعها، المسـتترة بالبريق منذ أول لحظة أمسـكت فيها بالقلم، لتسطر له أحرفها!

وبعد تردد دام طويلاً، تطير الرسـالة، على عنوان المسـتشـفى غير الدقيق، تتلقفها أيدى الغرباء الواحدة تلو الأخرى، ومَن يهمه ما تحوى تلك الور قة الصـغيرة، القابعة دا خل هذا المظروف المغلق أو حتى صاحبتها، مَن يشعر ومَن يُحِس بها وبأوجاعها؟!

يمر أ سبوع لا تعلم شيئاً عن ر سالتها، ولا أين م ستقرها الآن، ولم يتصل هو بها:

«ربما لم تصل، فلو كانت وصلته كان أخبرنى أكيد» تحدث نفسها.

لم تسـتطع التخلص من رغبتها الملحة فى معرفة مصـير رسـالتها، وذات مسـاءٍ تالٍ ألحَّ بها الفضـول، لدرجة لم تحتملها ولم تسـتطع معها السيطرة على أعصابها، ودون أن تدرى عبثت يدها بالأرقام، ويالسرعة ما أجاب القدر وأذن بأرق صـدفة، ومن دون أن يُسـمعها حامد عبارته الشهيرة المملة، التى كانت تتوقعها بنسبة ساحقة، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة بعد السلام يبادرها:

- رسالتك وصلت يا سيدتى!

ويردف بسرعة:

- ولست إنسانة عابرة فى حياتى، بل أنت علامة فى حياتى!

ويكمل دون أن يترك لها فرصة مطلقاً للكلام:

- تأخرت مكالمتك كثيراً، أنتظرتها طويلاً، وسألت عنها حامد فى كل ليلة.

« لهذا إذن لم يُسمعنى رده الشهير، معقول يا عماد، أنت فعلاً تحبنى، وتذكرنى، وتنتظرنى؟» تسكت أميرة برهة تحدث نفسها سراً.

- فيما سكوتك أميرة؟!

- هه؟ لا أبداً، أسمعك!

- إحساسى وشى بك لدى، قال إنك ستتصلين، ولكن تأخرت كثيراً.

يكاد قلبها يتوقف من شدة الفرح، وبصعوبة بالغة تنطق:

- رفقاً بقلبى دكتور! أرجوك فلا أحتمل كل هذا دفعة واحدة! رويدك يا طبيبى.

وتحجب كالعادة كلمة « وحبيبى» ثم تكمل:

- فقلب مريضتك كما تعلم جريح هش!

- لست أجاملك، صدقينى يا أميرة! فأنت عزيزة على قلبى وروحى، لدرجة أقف أمامها عاجزاً عن التعبير، وأود أن تدوم الصلة بيننا إلى آخر عمرى.

يستجمع شجاعته ومشاعره المتناثرة، ثم يهمس بنبرة لا يخفى على سامعها أنها منتهى العشق:

- وأقسم لك أننى كتبت رداً على رسالتك، وما أثنانى عن إرساله إلا أننى لا أعرف العنوان بالضبط!

لم تعرف أميرة بما ترد على رقته ولطفه الذى فاق الوصف، كل ما تعرفه أنها سعيدة وحسب.

ويطول الحديث كالعادة، وينتهى سريعاً كالعادة أيضاً، وتعود أدراجها إلى الواقع ،بيد أنها الآن فى قمة سعادتها، فأخيراً وبعد أشهر طويلة تسمع صوته مرة أخرى، تذوب فى همساته الدافئة من جديد، بعدما تصورت أنه المستحيل!

لم تكن ســعادتها لأنه قال لها ما قال، فهى تعرف كم هو رقيق ولطيف، ولم تتوقع منه أقل من هذا، ولكن ســعادتها فى عودتها إليه، إلى الحياة، الشعور، الادراك، إلى صوته الحنون الدافئ!

حبيبى كم من مرةٍ

ودعنا وداع مفارقٍ

وغدونا على دربِ النهايةِ

نخطو خطى مُتسرعٍ

يسوقنا الكبرياءُ أمامهُ

أسرى غباءٍ مروعٍ

حتى إذا بلغنا المنتهى

بدأنا شوطاً آخرَ

وعُدنا بحرّ الأدمعِ

نلقى سلام مودعٍ

فهلا حبيبى مرةً

على درب الحب نلتقى

بلا وداعٍ موجعِ

وذبيحٍ بين الأضلعِ

سرِّح حبيبى خطى المرجعِ

وابقَ معى

ابقَ معى

تمر أيام بعد هذا المكالمة الفاصلة، تسافر أميرة مع أسرتها إلى الأسكندرية، كالعادة فى يوليو من كل عام، تجوب كل الشواطئ والأماكن، تجد نفسها تمر بشاطئ ميامى، ترى شقتهم القديمة دون أن تتذكر تلك الصدفة المريرة، التى جمعتها بخالد ذات صيف حزين، وسببت لها كل هذه الآلام، وحملتهم جميعا إلى المعمورة، هرباً من وجه الذكرى، الذى كان يرعبهم فى كل لحظة.

«كأننى أرى هذه الأماكن لأول مرة فى حياتى، مالها جميلة هكذا؟ ومالى سعيدة بها هكذا؟ تغيرت هى أم تغيرت أنا؟!» تمضى تحدث نفسها.

ثم تستدرك:

- آه، إنه الشاطر حسن، نعم هو مصدر كل سعادتى وجمال الدنيا، اشتقت إليك كثيراً يا عماد، ترى ماذا تفعل الآن؟

وتزجر نفسها برفق ولين:

- وهل هذا سؤال؟ لا تؤاخذنى حبيبى، فأحياناً تتوه منى الأشياء، مؤكد أنت فى بستانك الأثير، ترعى زهورك الجميلة، ليتك معى الآن فالجو هنا رائع والدنيا جميلة والبحر ساحر، ما اكثر ما به من أسرار!

تكتب اسمه على كل شاطئ تطأه قدماها، تعلم أنه سيمحى سريعاً، وربما محى بالفعل قبل أن تفرغ من كتابته.

« أعشقك أيها البحر الرائع، ألهذا الحد تحافظ على أسرارى؟ آهٍ من رقتك وأنت تمتد حانياً لتحتضن اسم أعز مخلوق لدى، حتى لا تطأه قدم عابثة، أو تقع عليه عين لاهية، شكراً لك!» تهمس ممتنة.

صيف ممتع هنا ورائع، وفى ثالث أمسية لها فى هذه المدينة الساحرة، يخطفها طيف تألفه من بين الساهرين، يحلق بها آفاق بعيدة تعرفها جيداً، يدعوها إلى حديث ناعم معه، تستجيب دون مقاومة، لكنها تتردد لحظة أن تمسك بالهاتف، وترتعد يدها!

«البئر العميقة، ما الذى جعل هذه الرؤيا المرهقة تعاودنى؟ إنها كابوس خانق، ترى ما الذى جعلنى أذكرها الآن؟ ما أبشع هذا وفى هذه اللحظة بالتحديد؟ لطفك يارب! تلوح لى حتى فى اليقظة؟ كانت قد جافت مضجعى منذ شهور، وها هى تعود بصورة لم أعد أحتملها، ترى ماذا تعنى البئر؟ وجدتى الواقفة بقاعها ماذا تفعل؟ لمَ تنادينى نحوها وتصر على ذلك؟ لمَ أنا مشدودة إلى الذهاب إليها؟ لمَ تنزلق قدمى بقوة، وأصحو من نومى قبل الخروج من تلك البئر؟!».

ينقبض قلبها، تجلس تلتقط أنفاسها الهاربة، ولكنها لم تستطع أن تؤجل رغبتها فى سماع صوته، حتى ولو كان القدر لديه المزيد لأجلها، تضرب الأرقام مضطربة، يخبرها أنه اعتزم الرحيل عن أرض الوطن، مجرد قرار لم يدخل حيز التنفيذ بعد، لكنه حاسم وأخير، تختنق الكلمات فى حلقها، تذوب فى بحار الصمت، تحس أن كل معنى راقٍ وجميل فى الوجود سيتلاشى بمجرد رحيلة، وأن الحياة ذاتها أضحت من هذه اللحظة بلا معنى أوقيمة، تحاول جاهدة ألا تبدى ما بها، تتظاهر بالهدوء والتجلد حتى ينتهى الحوار.

«آهٍ جدتى! لم يعد لدى مبرر للحياة، لم يعد لدى ما يجبرنى على البعد عنك، الشاطر حسن راحل فلمَ أبقَى إذن؟!» تحدث نفسها باكية بجنون.

تعتزل الجمع على الفور، تلوذ بوحدتها، تحاول النوم، وفى كل مرة يصطدم الجفن بدمعات متحجرة تكاد تشقه، تُحايل عينها حتى تُمطر وابلاً من الدموع يدوم طويلاً.

- حتى هنا أيضاً يا أميرة.
- ماذا يا أمى؟
- هذا الحزن يا حبيبتى، وهذه الوحدة، لو أنى أعرف ماذا بك؟!
- لا شئ يا أمى، هى أمور عادية.
- كنت سعيدة حال قدومنا، فهل ضايقك أحد يا حبيبتى؟!
- أبداً يا أمى أنا بخير، وسآتى معكم إلى الشاطئ.

تخمد بها شعلة المرح، تخبو ابتسامتها التى ما صدق الجميع أن تعود، تكتئب من جديد ولكنها تبرر تغيرها المفاجئ هذا بشئ عارض قد انتهى.

تعانى كثيراً من أجل التظاهر بأنها طبيعية، بينما قلبها ذبيح، تنتهى فترة المصيف، تمرض أكثر من أى و قت مضى، مرض له طعم مختلف، وأعراض مختلفة، وأو جاع مختلفة لا تحتمل، وكيف لا تمرض وهمسه الدافئ سر حياتها؟!

«شفائى فى وجودك معى فى نفس الحدود التى تضمنى، تحت نفس السـماء التى تظلنى، على نفس التراب الذى يقلنى، حتى ولو بعيد عنى كل البعد كما أنت الآن، حتى وإن لم نلتق يوماً، ولكن ربما تصـادف قدمى يوماً بصمات قدميك على الطريق، فتتعانقا دونما موعد كما كانت الصدفة الأولى.

يا حبيبى أتيت المكان

فلا البحر بحرٌ

ولا الشطآن شطآن

غير أنه المكان

تغربتُ حبيبى على درب الآمال

جهلت أرجاءهُ المقلتان

مُزقتُ حبيبى بين غربتى والحنين

وأُغتيلَ الوجدان

مضيت أفتش فى أطلال الزمان

عن صرحٍ

عن اسمٍ

عن عمرٍ هنا كان

وإذا يا حبيبى بنا

سكنا مدينةً بلا عنوان

وبنينا قصةً بلا جدران

وبحروف الفناءِ نقشنا اسمنا

على أعتابِ النسيان

فيا جهل الأنسان!!

والآن

الآن

كلانا يا حبيبى غريبان

غريبان

غريبان

فى هذه الأيام تصارع أميرة المرض، الذى استمرأ الإقامة فى جسمها، ويأبى الرحيل، حتى وهنت قواها تماماً، ونحل جيدها الجميل، أو الذى كان جميلاً ممشوقاً قبل المرض.

وبعيداً عن كل هذه الآلام المضنية تقرر أن تحادثه كثيرا، وألا تضيع لحظة واحدة يمكنها فيها محادثته دون أن تفعل.

يتوحدان أكثر وأكثر، وتمتزج روحيهما أكثر وأكثر، المنطق يرشدها دوماً إلى أنه يجب أن يعدل عن قراره، يخامرها الأمل، تسأله فى كل مكالمة، وتجده مُصّراً لم يزل على قراره، ورغم كل تلك الغيوم الرابضة فى سماها، إلا أنها مستمرة فى أملها، ولولا هذا الأمل لعجل المرض بشطب اسمها من سجل الأحياء.

تقاوم بكل ما تملك من قوة، لكن المرض يشتد فى طغيانه وجبروته، تخور قواها شيئاً شيئاً، تبدو شاحبة كأن عروقها ليس بها نقطة دم واحدة، زائغة العينين شاردة الذهن، كأنها تبدلت بمخلوقة أخرى تماماً، لا يربطها بأميرة سوى مجرد اسم، وملامح ذابلة خط عليها الفناء أول حروفه!

الفصل الرابع عشر
حلاوة روح

تمر الأيام سريعاً، وكلما مر يوم جديد تزداد حالة المريضة سوءاً، ينتهى أغسطس سريعاً، ويتم عماد كل الاجراءات والأوراق اللازمة للسفر، لم يتبق سوى إخلاء طرفه من المستشفى، يؤجله، يتمهل، يعود الفرح يطرق باب قلبها الموجوع على مهل فتنتعش قليلاً.

«قد يكون قد عدل عن قراره، لابد أنه ينتوى التراجع فالغربة ليست سهلة، وبخاصة على إنسان مثله، ليته يفعل، ليته يرحمنى!» تهمس فى نفسها.

تتصل كعادتها فى كل مساء، منذ أن علمت بقرار سفره، يتحدثان قليلاً ثم يطلب منها ان تتصل به فى الغد لدى رأفت، الذى أصبح وحده بالشقة، بعد أن تركها الرفاق وتفرق الجمع، واتجه كل إلى طريقه، وراحت إلى غير رجعة، تلك الأيام الخوالى والضحكات العذاب الصافيات.

ترك إسلام السكن مرغماً، وعاد إلى البلدة بأمر أبيه العمدة، بعد أن رسب هذا العام أيضا، وتم فصله من الكلية لتكرار سنوات الرسوب، خاب أمل العمدة فيه، لكنه استسلم لخيبة الأمل هذه المرة، التى كانت

بمثابة الفرصة الأخيرة لكليهما، وأعد له مكاناً إلى جواره، ليته يفلح فيه، ولو أن العمدة على ثقة من أنه لم ينجب رجالاً.

« خلفك كله بنات، جتكو البلاوى» كان يصـيح دائما فى وجه الأم الراحلة، ويعيرها كما لو كان هذا واقعاً بالفعل، وليس أمام المسكينة المغلوبة على أمرها سوى البكاء!

كانت تحاول جاهدة تسديد الثغرات وراء هذا الولد، الذى تمنت كثيراً لو كان فى عقل ورزانة واحدة من أخواته البنات!

وكبر إسلام وكبرت أخطاؤه، حتى تمنت الأم لو يعود الزمان فتربيه من جديد، ولكن هيهات هيهات! لم يسمح لها القدر حتى بتقويمه، بل لم يمهلها فرصة البقاء لمساندته أمام جبروت العمدة.

الآن وبعد رحيلها، لم يعد أمام إسلام سوى الإنصياع لكل أوامر العمدة والخنوع دونما ذرة تلكؤ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور!

أما أحمد فقد عاد إلى مسقط رأسه كفر الدوار، حاملاً شهادته المميزة، عمل بالمستشفى العام هناك، وقد ثاب إلى رشده مؤخراً، بعدما كادت سوزان تُزف إلى غيره، وتضيع منه إلى الأبد، أسرع لخطبتها نادماً على ما بدر منه وينتظران موعد زفافهما، الذى سوف يحين بعد عام تقريباَ.

أما عادل الظريف فقد تزوج بفاطمة، التى يحبها بجنون منذ أن وقعت عينه عليها فى أحد دهاليزالجامعة، حين كان فى زيارة صديق له هناك، وكانت تتبختر بين زمليتين لها، وأشعة الشمس الذهبية المتسربة من فتحات المبنى، تعكس آيات من النور والجمال، على وجهها الأبيض المستدير، وعيناها العسليتان تلتمعان فى ضوء الشمس كالجوهرتين.

عرف أنها بالسنة الثانية بكاية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، وتولدت بينهما قصة حب رائعة تكللت مؤخراً بالزواج.

لا ينسى أبداً ذلك اليوم ، كان بالسنة الخامسة بكلية الطب آنذاك وكانت دراسته تتطلب الجدية والحضور اليومى، لكنه كان يتسرب من بين زملائه، ويطير إلى ذلك المكان المعتاد، إلى جوار ساعة الجامعة الرابضة بجانب كليتها، وقد قطع مسافات طويلة ومعاناة رهيبة من أجل الوصول إليها، والإفلات من حرس الجامعة، الذين صادقهم جميعاً بعد ذلك، وأصبح يدخل ويخرج وقتما شاء!

أيام جميلة يتذكرانها الآن سوياً بين أحضان عشهما السعيد بمكرم عبيد، وقد رسم القدر لعادل طريقه كأحسن ما يكون، فقد أهداه فرصة ذهبية، للعمل بمستشفى استثمارى كبير بالقاهرة كما تمنى وطمح، ورحمه من فكرة العودة والإقامة فى بلدته «طوخ» كما أراد له والده!

وبقى رأفت بالشــقة وحيداً، فقد رتب حياته على البقاء بالقاهرة بحكم ظروف عمله، وانضم إليه شقيقه ياسر، الذى يعمل مضيفاً بفندق خمس نجوم بالقاهرة ويقيم به، والذى كان يأتى لزيارته هو ورفاقه من آن لآخر قبل أن يتفرقوا.

تتصل أميرة فى الموعد المحدد، لتجد عماد بالشقة وحده فى انتظار مكالمتها، فرأفت الآن بالمســتشــفى وياســر بعمله بالفندق، يهمس مرتاحاً بعد أن رحب بها:

- الآن نتحدث على راحتنا بلا ضغوط عمل أو وسيط فى الخط.

- معك حق دكتور، هنا أفضل كثيراً وأهدأ!

- خبرينى بحالك أميرة، طمئنينى عليك، أرجوك لا تخفى عنى شيئاً، فأنا قلق عليك جداً، وأشعر بالذنب الكبير تجاهك!

- أنا بخير يا طبيبى!

وتبتلع صوتها بكلمة « وحبيبى» ثم تكمل:

- اطمئن علىّ فلم تكن يوما سبباً فى متاعبى بل على العكس.

- أشكرك أميرة، ولكن...

- ولكن كلمنى أنت عن نفسك، طمئننى على أخبارك!

وتردف بمرارة:

- لمَ كل هذا الحزن المخبوء وراء نبراتك؟!

يتنهد بحرقة:

- ياااااه! أشياء كثيرة جداً!

- ألهذة الدرجة؟!

- وأكثر يا أميرة!

- وهل هناك شئ فى الحياة يستحق منك كل هذا الحزن؟!

- أنت!

- أنا؟!

- أقصد ما حدث لك بسببى، وموت صديقى دكتور أسامة بين يدى بالمستشفى، وأنا عاجز عن فعل أى شئ، تصورى أميرة اسمى آخر شئ نطق به، لا أستطيع نسيان نظرته الأخيرة لى، كأنه بهذه النظرة يرسخ حبه لى، ويؤكد أننا أصدقاء إلى الأبد حتى بعد الرحيل، ثم دفن رأسه فى صدرى، وغاب عن كل شئ!

يسكت فجأة كأنما ليوارى تهدج صوته ثم يردف قائلاً:

- لقد كرهت وجودى بالمستشفى، وهل هذا قليل؟!

ويستطرد بعد لحظات صمت قليلة:

- أيضـــاً أجد فى بؤرة أحزانى، خيبة أمل كبيرة فيمن أحببتهم وكانوا أقرب البشر إلى قلبى.

يسكت ثانية لنفس السبب ويواصل قائلاً:

- كل هذا شكّل لى ضغوطاً نفسية فوق طاقتى، ولم أجد أمام كل هذه الأحزان، التى تجتاحنى وتتلف أعصابى سوى السفر، لعل الغربة تنســينى بعض آلامى، واحســاســى بالذنب تجاه من أحببتهم ولم أجلب لهم إلا التعاسة.

- لا تقل هذا دكتور.

- الغربة هى الحل صـــدقينى وليس غيرها، ربما أجد بديلاً لقلب العصفور، الذى احمله فى صدرى ويعذبنى!

- أرجوك!

- هذه هى الحقيقة!

- ليس صحيحاً أبداً، فأنت مصدر كل سعادة لأى أنسان تعرفه.
- أشكرك أميرة!
- لست أجاملك حتى تشكرنى، هذه هى الحقيقة المجردة!
- ملاك أنت يا أميرة!
- ليس على الأرض ملائكة يا دكتور، ألم نتفق على هذا من قبل؟
- باستثناء أميرتى.
- يااااااه! لم تنادينى بها منذ زمن!
- حقاً أنت الوحيدة القادرة على تخفيف آلامى وهمومى.

ويردف مشفقاً:

- لكنى أيضاً لا أحتمل أن أضيف إلى ما عندك هموماً جديدة.
- مازلت تعتبرنى غريبة، سامحك الله!
- فقط أشفق عليك عزيزتى!
- لو أنك حقاً تعلم قدرك عندى ما كنت قلت هذا أبداَ، آهٍ لو تعلم!
- كذلك أنت يا أميرة وأكثر، لكنى...

- لكنك ترى أننى لست جديرة بمشاركتك همومك.
- كيف تقولين هذا؟!

ويردف بنبرة أكثر دفئاً ليس لها مسمى آخر سوى قمة الحب:

- بل أخاف عليك خوفى على عقيدتى، وليس لدى أغلى منها.

ويكمل بنفس النبرة:

- وأرانى لا أستحق كل هذا الكم الرهيب من عطائك!
- أى عطاء هذا دكتور، أنت أعز وأغلى بكثير!
- تصورى يا أميرة صار غريباً فى هذا الزمان أن يتعامل الإنسان بشئ ولو بسيط جداً من الشفافية، ويراها من متطلبات التعامل بين البشر بل ومثير للضحك!
- عادى جداً لا عجب يا دكتور، ولا دهشة من عالم ليس عالمنا، وأناس ليسوا منا!
- صدقت أميرتى ليس عالمنا ولا أناسه منا!

يصمت طويلاً وتغوص معه فى بحار الصمت، تلك اللغة التى اختاراها للتعبير عن كلمة الحب، التى عجزت كل قواميس العالم عن

احتوائها، فى حين يطفو على سطح الصمت تنهدات مكتو مة، وآهات حرى تود لو تخرج من قمقمها، لتصول وتجول عبر الأسلاك!

يضع السماعة بين كتفه وعنقه، رفقاً بها من حر أنفاسه وآهاته المكتومة، وعيناه السوداوان المشعتان بنبل أصيل فى طباعه وذاته، تدور فى أركان الغر فة، بحثاً عن شاغل يخفف تلك الآلام، ووجهه الجميل المنقوع فى سمرة أبناء النيل، بملامحه الفرعونية الأصيلة، التى تنضح بالرجو لة والنضج يقطر حز ناً وعتا باً على الظروف التى لم ترحمهما!

آهٍ من الأحاسيس التى لا تحملها الكلمات، آهٍ من عجز المرء عن التعبير عنها أو ترجمتها، فلو تُرجمت إلى كلمات تُنطق فقدت نصف ما تعنى، ولو كُتبت فقدت كا مل معنا ها وقيمتها، فى هذه الحا لة ليس أصدق فى التعبير عنها من الصمت.

يعود عماد من صمته هامساً:

- لكنى لن انساك أبداً، فأنت نسمات الصيف الوحيدة التى مرت بعمرى!

ينخلع قلبها لتلك الكلمات وتهمس بفزع:

- كأنك تودعنى دكتور، هل حان موعد السفر؟!

- ليس بعد عزيزتى!

ويجذب بســرعة كلمة «حبيبتى» من على طرف لســانه، بعدما فر الحرف الأول منها هارباً إلى مسامعها، لم تعلق فليست مفاجأة وليست بحاجة إلى تلك الكلمة، لكى تتأكد من شعوره نحوها، وإحساسه بها، ثم إن تلك الكلمة أقل كثيراً مما يســكن قلبيهما، فلا توجد كلمة فى الوجود تفى بهذا الإحساس، الذى يحمله كل منهما للآخر.

بقيت مشحونة بإحساس غريب، لم يستطع رده هذا أن يمحوه من داخلها، تهمس دون أن تدرى بأبيات وليدة الموقف، وبطريقة عفوية:

همساتك هذى ترهبنى

بفراقٍ دانٍ تشعرنى

تجعلنى حطامٌ مشتعلٌ

خوفاً لو أنت تودعنى

قد تكون ولا أدرى
آخر كلمات تسمعنى

إيذانٌ لرحيل أبدى
وغداً بالحتم ستتركنى

حتى لا أملك من أمرى
سوى دمعاتٍ تحضرنى

لكنى أبدى غاضبةٌ
اعلم لو حقاً تجهلنى

لن أغفر يوماً ما دمت
كلماتٍ باتت تخدعنى

تغزونى الأفكار وتغدو

تنثرنى تارةً وتجمعنى

تعبث بشتاتى لاهيةً

فالصبر قبلك ودعنى

وغدت كلماتُ تحيينى

والأخرى منك تقتلنى

يختنق صـوتها بالبكاء، ثم يخبو فى زحام الدموع، يرد عليها بنفس الصوت المخنوق:

- الله! رائع يا أميرة!
- هل ستراسلنى يا دكتور؟!

تقول وهى تبكى بحرقة، ولم ستطع الإجابة، لم يكن أمامهما سـوى التوقف عن الكلام لفترة، بعد أن فشـلت كل محاولات التجلّد، والتظاهر بالهدوء.

الفصل الخامس عشر والأخير
وانطفأ الشعاع

ينظر عماد إلى الهاتف القابع بين يديه، هذا الجهاز الصغير الذى صادف عبره أميرة، وهو غارق فى آلامه، يحاول التراجع عن قراره لكن الوقت فات، فقد أنهى كل أوراقه وتحدد السفر بعد أيام لا تُكمل الأسبوعين، لكنه لم يخبرها حتى لا يصِّعِّب عليها الحياة، وبخاصة مع تدهور صحتها على هذا النحو.

تبكى أميرة بهستيريا حتى تفقد الوعى، تفيق فى حضن أمها بعد أن أفرغت عليها زجاجة عطر كبيرة، تهمس بصوت خافت جداً، مجهد جداً:

- ماذا حدث يا أمى؟!

- دخلت أعطيك الدواء وجدتك هكذا.

وتردف مسرعة:

- سأتصل بالطبيب فوراً.

- أنا بخير يا أمى، اطمئنى، صدقينى!

رويداً رويداً تهدأ أميرة، تتذكر بعناء حديثها الذى لم يكتمل مع عماد، تهمس إلى أمها:

- صرت أفضل كثيراً الآن، صدقينى يا أمى! كل ما أحتاجه هو بعض النوم فقط.

- ولكن يا ابنتى...

- صدقينى يا أمى!

- خذى دواءك أولاُ إذن، بالشفاء يا نور عينى!

وتهمس حانية:

- دعينى أساعدك حتى تعتدلى فى فراشك، تماماً هكذا، نوم العافية يا نور عينى!

«نور عينى» تردد كلمة أمها ثم تهمس متنهدة:

- آااه! كم اشتقت إليك يا صاحبة هذا النداء، أذوب شوقاً جدتى!».

ساعة ونصف الساعة مرت بين الإغماءة والإفاقة، وحديث الأم الحنون المكلومة، يعلو الرنين يزلزل قلبها فتهمس متعبة:

- كانت أطول ساعة ونصف مرت بعمرى.

- وكذلك مرت عليّ، ولكن صوتك متعباً لم يزل، بل أكثر تعباً من ذى قبل!

- لا تشغل بالك يا دكتور، دعنا نعيش اللحظة فلربما لا تتكرر.

- صحتك أهم يا أميرة!

- ألا تستطيع أن تنسى أنك طبيب ولو لدقائق؟!

- صارحينى عزيزتى أرجوك!

- أنا بخير ما دمت مع، صدقنى!

- لكن صوتك يقول غير هذا، لا تهوَّنى علىّ الأمر.

- صدقنى يا طبيبى أنا بخير! لا تقلق عمر الشقى باق.

- أمد الله فى عمرك، لاتقولى هذا!

يقولها كأن لسعته عقرباً.

- دعك منى وخبّرنى أنت ما بالك حزين لم تزل؟!

- المهم أنت أميرتى!

- يعاودها الاختناق، وتسيل فى صمت دموعها من جديد، يشعر بها فيخترع حديثاً لإخراجها مما هى فيه، ينجح كالعادة فى جعلها مفتونة به، ففى كل الموضوعات يتحدث، فى كل العلوم يعرف، فى كل القضايا له رأيه السديد، وبرقتها المعهودة، والتى جعلها المرض أكثر عمقاً وجمالاً تهمس:

- عظيم انت يا دكتور، ما أجمل كلماتك وتعليقاتك!

تمر ساعات طويلة وهما غارقان فى خضم اللقاء، ذائبان فى الحوار، لم يعيا شيئاً حولهما كالعادة، أو يدركا كم من الوقت مضى، تطلب منه أن يتصل بها حتماً قبل السفر، وتردف باكية:

- هل ستذكرنى وسط مشاغلك القادمة؟هل ستكلمنى حقاً قبل السفر؟!

يدس كل كيانه داخل برج الصمت، والذى يلوذ به كلما عجز عن الكلام، ثم يهمس بعد فترة طويلة:

- عاجز أنا أمام كل هذه المشاعر النبيلة، وكل هذه الأحاسيس الراقية، قد تبلغك الأيام بما بداخلى، والذى لا أستطيع ان أبوح به، أو قد أكون قد تحررت وقتها من هذا العجز، فأقوى على توصيل أحاسيسى هذه إليك، والتى أخفيها حتى عن نفسى حتى لا ينجرح بها أحد سواى!

ويردف فى شبه همهمة:

- ويظل الحلم الباقى ، حلماً، يحمل صفة الأحلام!

يســكت فجأة، وهى تزداد يقيناً كلما طال الحوار بأنه يعلم موعد السـفر، ويخفية عنها حتى لا يؤلمها، تســأله مراراً على امتداد ســاعات الحوار ويطمئنها:

- مازال الوقت أمامنا طويلاً، وســنتكلم كثيراً إن شـــاء الله، أين نحن والسفر؟!

- صحيح يا دكتور؟!

- صحيح يا أميرتى، صدقينى!

يهمس مختنقاً بالبكاء:

- لا إلاه إلا الله!

وتهمس منفجرة بالبكاء:

- محمد رسول الله!

تبقى م شحونة بذاك الإحـ ساس الغريب، وكلها يقين أنه آخر حوار لها معه وأنها لن تسمع صوته للأبد.

يا راحلاً بقلبى اتئد

رويدك

لحظات من عمر الفراق نسترق

دع فرصةً لآمالى تحتضر

بين يديك

لتذوب أحلامى فى عينيك

حرام هى بعدك على أحد

بعضى

كلى يحترق

إذا ما خمدت نيرانى

اقترب

فتش عن بقايا إنسانٍ فى رمادى

ضم إليك أطلالى

ودّعنى

لملم أشلاء أمنياتى فى راحتيك

ازروها فى مفترق

كبل المساء

اطفىء القمر

اسبى نسمات الربى

أغرق أيامى جليداً ومطر

ابتر أسباب الهوى من أعماقى

امض لاتكترث

ضل الدروب واهتدِ

غب ما شاء القدر

ستعود يوماً لتجد

أسطورةً أبدية

ووفاءً يحكيه البشر

في اليوم التالى، تتصـــل فى نفس المكان على أمل ان تجده هناك لم يزل، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فقد رد عليها صــوت جديد تماماً على أذنيها:

- دكتور عماد موجود؟
- فى الحقيقة لا.
- ويردف مسرعاً:
- أميرة؟
- نعم، أو تعرفنى؟!
- أعرفك جيداً، من خلال دكتور عماد بالطبع.
- فرصة سعيدة جداً!
- ياسر، أخوك ياسر!
- هذا شرف لى بالطبع، هو حدثنى عنك كثيراً!

ثم تردف فى ود:

- قال إنكما صديقين جداً.
- وحدثنى عنك كثيراً أيضاً.
- ولكن أين هو الآن؟
- بالفيوم.
- الفيوم؟!

وتُعَقِّب مسرعة:

- كنا نتحدث أمس ولم يخبرنى بأنه ذاهب إلى هناك!
- لم يرد أن يُحزنك.
- هل هو مسافر قريباً؟
- أسبوعان تقريباً، فى الرابع عشر من سبتمبر الجارى.
- قل شيئاً آخر يا ياسر ، قل أنك تمزح معى!
- هذه هى الحقيقة.

- ومتى يعود؟

- بعد أسبوع.

تمر أيام هذا الأ سبوع عليها كأنها عمراً كاملاً، يـ شتد عليها المرض فلم تعد تحتمله، تلزم الفراش تماماً ويوشك أن يفنيها الهزال.

تبدو أطلال إنـ سان وبقايا روح للناظرين، لم تعد عيناها قادرتين على تمييز أى شـــىء أو أى شـــخص، تُحدّق طويلاً فى الأشـــخاص قبل أن تتذكرهم، ورغم مرضـــها هذا الشـــديد فهى تتصـــل بالمســـتشـــفى يومياً والرد فى كل مرة:

- دكتور عماد فى إجازة بالبلدة.

تجلس مكتئبة باكية!

دقت أجراس الرحيل

وها أنت

تستعد لسفر طويل

وها أنا

مازلت أراود المستحيل

مازلت آمل

أحلم .. أتمنى

أدعو

أومن بأشياء عدة

أقسم أن لدينا البديل

رغم يقينى

أنك آتٍ تودعنى

أو كعادتك تخدعنى

بكلمات رقاق

تظل إياها تُسمعنى

حتى أستسيغ الفراق

أشكرك لك عطفاً

أو لطفاً

إذ ليس هذا الترياق

فلستُ موجةً ضالة

تجتاز خضم أحلامك المنيع

قُدر لها حتما

تتحطم

تتناثر

على صخور شاطئك

تبحث عمن يلملمها

يجمع شتات أواصرها

ولازلت

أسألك البقاء

رغم يقينى

أنك آتٍ تودعنى

لكنى

سأظل أراود المستحيل

سأظل آمل

أحلم .. أتمنى

أدعو

أومن بأشياء عدة

أقسم أن لدينا البديل

حتى

وإن دقت أجراس الرحيل

وغدا بقاؤك مستحيل

بل

وبعد الرحيل

أخيراً يخبرها موظف الســويتش، أنه لم يلبث خارجاً، حاملاً حقيبة ملابسة، تفهم أنه أخلى طرفه من المستشفى، تضع السماعة دون أن تنطق بكلمة.

تبيت فى أســوأ حالاتها، تغدو هى والمســاء وحيدين، أما هو فلا تعرف شـيئاً عنه، فقط تتحسـس أخباره عن طريق إحسـاسـها الغيبى به تارة، وتارة أخرى عن طريق يا سر، الذى ربطت بينهما صلة قوية، وود متبادل منذ اللحظة الأولى.

حملتها تلك الأحداث من انتكاســة لأخرى، باتت تمتلىء بكم لا طاقة لها به من الأحاسيس المتضاربة، وصلت بها إلى حافة الجنون.

- ترى هل كل هذا حدث بالفعل؟ أم أنه مجرد خيالات من تلك التى تترنح فى مخيلتى، التى دمرها المرض؟ هل أحلم كعادتى؟!

وتعود وهى واثقة من أن تلك الأحداث قد جرت بالفعل:

- نعم نعم، فهاهم كل من شــاركوا فيها، مَن هم ذووا أهمية، ومَن ليســوا بأدنى أهمية، كلهم على أرض الواقع، يذهبون ويجيئون، يغيبون ويحضرون، بيد أن الغائب الوحيد إلى الأبد هو حبيبها!

وتهمس بصوتٍ عال:

- إذن أنا متيقظة تماماً، فلست أحلم وليست خيالات مرضية.

هى متيقنة الآن وليست نادمة على أى إحساس وهبته إياه، وترفض أن تصدق إلا إحساسها الذى لا يخدعها أبداً.

«عماد يستحق أكثر من هذا، ليتنى أملك المزيد!» تحدث نفسها بصوت مسموع.

لديها الحق بالفعل ألا يستحق الشاطر حسن، الذى عا شت العمر تنتظره أن ترحل روحها وأحاسيسها برحيله، إنه الشاطر حسن!!

«شاءت الأقدار أن نبتعد وما اقتربنا، وأن نفترق وما التقينا، وان تنتهى قصتنا إلى هذا الحد، لا ذنب له ولا ذنب لى!» تهمس فى نفسها بكل الرضا.

غدت تقترب فى كل يوم خطوة نحو الفناء، فلم تبرح طريحة الفراش، هزيلة واهنة، لا تقوى يدها على حمل كوب الماء إلى فيها، الشىء الوحيد الذى يشدها للحياة، هو ذاك الهواء المعطر بأريج أنفاس حبيبها، الذى مازال بين أحضان نفس الحدود التى تضمها.

تقضى معظم وقتها متسائلة مع نفسها، تحدق مشدوهة إلى أشياء وأشخاص لا وجود لهم، تتمتم بكلمات غير مفهومة، تبكى، تبتسم، تصرخ!

«أحقاً هذه هى النهاية يا شاطر حسن؟ لا أصدق يا فارسى، أبعد كل هذا التوحد ننشطر؟ أبعد كل هذا الهدى نضل؟ أنضيع من جديد؟!» تحدث نفسها فى جنون.

يتقطع صوتها:

- أبعد الفراق حياة؟!

كأن قدرها كمن فى تلك الأبيات، التى ألقاها عليها فى حديثهما الأول، وغدت كل حياتها بعد ذلك ترجمة حرفية لكل ما تحويه تلك الأبيات العشرة من معان.

ريمٌ على القاع بين البانِ والعلمِ

أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحرمِ

رمى القضاءُ بعينيّ جؤذرٍ أسدا

يا ساكنَ القاعِ أدرك ساكنِ الأجمِ

لما رنا حدثتنى النفسُ قائلةً

يا ويحَ جنبك بالسهمِ المصيبِ رُمى

جحدتها وكتمت السهم فى كبدى

جُرحُ الأحبةَ عندى غيرُ ذى ألمِ

رُزقت أسمح ما فى الناس من خلقٍ

إذا رُزقت إلتماس العذر فى الشيمِ

يا لائمى فى هواه والهوى قدرٌ

لو شفك الوجدُ لم تعذل ولم تلمِ

لقد أنلتكَ أذناً غيرَ واعيةً

ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ فى صصمِ

يا ناعسَ الطرفِ لا ذقت الهوى أبداً

أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنمِ

أُفديك ألفاً ولا ألو الخيال فدى

أغراك بالبخلِ مَن أغراه بالكرمِ

سرى فصادف جُرحاً دامياً فأسى

ورُبَّ فضلٍ على العشاقِ للحُلمِ

كل ما تعرفه أنها لاشىء بدونه، لاقلب ولا روح ولا كيان، لكنها لن تقول وداعاً، ستنتظر اللقاء ولو كان موعده الحشر!

تتردد فجأة همهماته الغامضة فى الحوار الأخير تملأ عليها المكان:

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام

تهمس كأنها تسائل نفسها مستكملة:

والأقلام؟

يا ويح الأقلام!

هل تغضب؟

هل تنضب؟

هل تسكن مقبرة الأيام؟

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام؟

والأحرف؟

يا ويل الأحرف!

هل ترضى؟

هل تبقى؟

هل يهدأ شوقٌ فينام؟

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام؟

والآلام؟

ما بال الآلام؟

هل تسلو؟

هل تغدو؟

هل ترحم جرحاً ما التام؟

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام؟

لتُخمد نارٌ مُستعرة

لتبقى الدمعةُ مستترة

لتُقبر بجنانى القصة

لا أحد يدرى

لا أحد يحوى

ما يحوى صدرى

لتذوب الجثة

داخل أوردتى الهشة

تتوزع

قطرات حياة أخرى

لتعيد الكرة

لينبض قلب

ليدمى

ليصير حطام

تجف دماء

تيبس آمال

ليسود الصمت ويغتال كلام

ويظل الحلم الباقى

حلماً

يحمل صفة الأحلام!

وفى فراش المرض، الذى أضحى جاثماً على جسدها، ويأبى النهوض إلا بآخر أنفاسها، تجمع أميرة كل أيامها، تمعن فيها النظر كأنها تراها للمرة الأولى فى حياتها، تطرح منها كل الأحداث، كل المحن، كل الأمل كل البشر، لم يتبق سوى بضعة أشهر هى كل عمرها مع عماد، تحاول جاهدة تصنيف هذه المدة القليلة من عمر الزمان تحت أى مسمى، أو تقسيمها على الجزيئات السالفة، فترفض بعنف وتنشق عن سائر أيامها، لتكتشف أن هذه الأشهر القليلة هى كل عمرها فى الحياة، كتلة متحدة لا تقبل التجزئة، فتنثر كل ما مضى قبلها فى مهب الريح.

تمضى لا تحمل من العمر سوى تلك الأشهر، التى عاشتها مع توءم روحها و فارس أحلامها عماد، طفلٌ هى لا يفقه كثيراً أو حتى قليلاً مما حوله!

يتسلل إلى أذنها فى تلك اللحظات صوت ملائكى يهمس فى هدوء شديد « بديت القصة تحت الشتى، بأول شتى حبوا بعضن، وخلصت القصة بتانى شتى، تحت الشتى تركوا بعضن» يهزها هذا الصوت الذى تعشقه، والمنبعث من جهاز التسجيل الرابض أبداً إلى جوار سريرها، تهمس متألمة:

- بل قبل أن يأتى الشتاء الثانى « تركوا بعضن!».

تبكى بحرقة وهى تستكمل همسها الموجع:

- لم يكتمل العام، لم تكتمل القصة، لم تكتمل الفرحة!

تهجم عليها جيوش من الخيالات المفزعة، وتتضاعف نوبات الهلوسة، يدوم غيابها عن الوجود إلا أوقات قليلة، تعيش أيامها معه بأثر رجعى، تحاوره وترد على نفسها، متخيلة أنه يحاورها ويرد عليها، وتفيق لحظات قليلة من كل هذه الهلاوس، تبكى حتى تغرق فى دموعها، تناجى طيفه بمشاعر منهارة:

- لمن أحيا بعد ذلك، وما فائدة أن أكمل دراستى، كنت شعاع النور الوحيد فى هذه الحياة، وعدتنى أن تظل بجانبى طول العمر مهما حدث، أحببت الدنيا من أجلك، واليوم ترحل؟ بكل بساطة هكذا؟ ارحل كما شئت ولكن بعمرى، لا تتركنى وحيدة فى الحياة، غريبة بدونك كما كنت قبل أن ألقاك، هديتنى إلى ذاتى واليوم ترحل؟ أى منطقٍ هذا الذى يُفلسف حياتى بدونك؟ رحيلك هو رحيلى هذا هو المنطق الذى أعرفه وأومن به!

غريبة هى حقاً، أى منطقٍ هذا الذى تتكلم عنه؟ أى رباط هذا الذى يربطها به؟ ليتها كانت كسائر البشر! ليتها لم تسمع حكايات جدتها قط! ليتها لم تؤمن بها! ليتها ما رأتها من حال الأصـــل! ليت أفلاطون لم يُولد! ليت مدينته الفا ضلة ما سكنت أحلامها! ليت الرومانسية شبحاً! ليت الشاطر حسن أكذوبة من أكاذيب الرواة لم تسمع بها قط! ليت كل معنى قدسته وآمنت به لم يكن!

تهدأ قليلاً وتعود تهمس من جديد وهى تجفف دموعها:

- لا تحزن يا عمرى، يا أنا، يا أغلى منى، فلســـت آســـفة على شـــىء بعدك، فلا يهمنى فى الوجود غيرك، ار حل يا عمرى مطمئناً علىّ ســـأكون بخير، لن أبكى بعد اليوم، لن أحزن، لن تســـتطيع الحياة بعدك إجبارى على تقبل مفاجآتها السخيفة!

تنطفىء تماماً، بينما يتعجب الجميع لحالها، تُحجم بإصـــرار عن اســـتقبال الزوار، تتقلب وحدها طيلة الوقت بين أوجاعها، لا فرق بين يقظة أو نوم فالحال سواء!

- أميرة! أهلاً يا نور عينى! ذُبت شوقاً إليك!

- وها أنا قد أتيت، أخيراً وجدتك يا جدتى!

- لن يأخذك منى أحد ثانية يا نور عينى، ستبقين معى على الدوام.
- ليت هذا يكون ياجدتى!
- سيكون يا نور عينى.
- وأمى، وأبى؟
- سيأتون هنا أيضاً.
- سنأتى جميعاً إذن؟
- أنت أولاً يا نور عينى!
- مكان جميل يا جدتى!
- امرحى فيه كما شئت، وانس همومك كلها يا نور عينى!
- صحيح يا جدتى؟
- صحيح يا نور عينى!
- أين نحن يا جدتى؟
- فى البيت الكبير يا نور عينى!
- لكنه مختلفاً عن زمان يا جدتى!

- هذه هى طبيعته منذ وُجد يا نور عينى، نحن فقط لا نرى جيداً أحياناً.

- أريد أن أنام فى حضــنك طويلاً، بطول عمرى الذى ضــاع من دون أن أراك، اشتقت إلى حكاياتك الدافئة!

- سيكون يا نور عينى، فقط اذهبى الآن لتحضرى ملابسك وأشياءك، وتُسلّمى على والديك.

- ســلّمى على أمك يا نور عينى وقبّليها، قولى لها أنى أحبها وأرضــى عنها وأنى اشتقت إليها كثيراً!

تصيح أميرة مفزوعة:

- جدتى! جدتى!

- نعم يا حبيبتى!

- من أنت؟!

- جدتك يا حبيبتى!

تســكت أميرة وهى تُحملق فى العجوز ملياً دون أن تتذكر ها، ثم تهمس والدتها حزينة:

- لا تؤاخذيها يا أم فهى على هذه الحال من أول أمس، حتى أنا تتوه عنى أحياناً!

- شفاها الله وعافاها يا ابنتى!

تهمس أميرة لوالدتها:

- جدتى زُهرة يا أمى كانت هنا، أنا رأيتها يا أمى ، قالت إنها ستأخذنى معها ولكنها تركتنى ومضت بدونى، كيف سأذهب إليها وحدى؟

وتردف مبتسمة:

- هى تُسلّم عليك يا أمى وتقول إنها تحبك كثيراً!

تبكى العجوز والأم طويلاً، ثم تهمس الأم فى ألم يمزقها:

- سلامتك يا نورعينى ، الف سلامة عليك يا حبيبتى، بعد الشر عنك يا حبة قلبى!

بينما تُحجم العجوز عن الكلام مطلقاً، تدور برأســها كلمات المريضة، التى لا تبشر إلا بشىء واحد فقط، تعرفه العجوز جيداً من

خلال خبرتها الطويلة بالحياة، وتجاربها الكثيرة مع الراحلين، لكنها تكبت هواجسها، تجلس عند رأس المريضة، وتضع يدها على جبينها، تتلو رُقياها المباركة، التى لا تخيب مع أحد، لكنها لم تُجدِ هذه المرة، تنزعج العجوز أكثر وتعاودها الهواجس المريبة تضرب رأسها بشدة، تكبحها من جديد، ثم تهمس فى أذن ابنة أختها والدة أميرة:

- أرسلى فى طلب الشيخ عبد الرحمن يا زينب.

- الشيخ عبد الرحمن، إمام المسجد؟!

- شىء لله يا أهل الله!

- ولكن...

- هيا حالاً يا زينب، فليس هذا إلا حال المسحور يا ابنتى.

- سِحر! كيف يا أم؟ ومَن الذى يؤذى أميرة؟ فهى كالنسمة ونحن فى حالنا ولا شأن لنا بأحد!

- اسمعى كلامى يا زينب.. أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة يا ابنتى.

- لله الأمر يا أم!

يجىء الشيخ عبد الرحمن، يتلو على المريضة آيات الرُقية الشرعية، يستأذن لصلاة العشاء، يَعِد أن يأتى فى الغد ليعيد رقياه، وبعد الغد أيضاً،

عسى القدر ألا يخذله فى انجاز وعده، ترد أميرة سلامه بصوت متقطع، يتخلله هدير أنفاسها اللاهثة، يعلو ويهبط صدرها فى سرعة رهيبة، ثم تهمهم « كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راقٍ وظن أنه الفراق والتفت الساقُ بالساق إلى ربك يومئذٍ المساق»!

يمر المساء بطيئاً ثقيلاً، والهواء يتناقص حولها فى الغرفة رويداً رويداً، قد يكون وهماً ربما.

ولأنه يعلم تماماً أنهما على حد سواء لا يحتملان لحظات الوداع لم يتصل بها، لكنه لم يكن يعلم أن القدر لن يمنحه فرصة سماع صوتها بقية حياته!

الآن تأتى اللحظات الحا سمة التى لا رجوع فيها ولا فرار، يمسك بجواز سفره وبداخله التذكرة، يمضى يقدم خطوة ويرجع إلى الوراء خطوتين.

تضج صالة الانتظار حوله بالأصوات، وفجأة يأتى الصوت المرتقب، يتوجه مع بقية الركاب إلى حيث أشار الصوت.

ينبعث صوت مشابه داخل الطائرة، بينما ينشغل هو بالصوت المنبعث من داخله:

- لا تتركها، لا ترحل، الهروب ليس حلاً، عد أيها المسكين الجريح، لا تدع الأوهام تُفقدك حبك وحلمك، أية مبادىء تلك التى تموت فداء ها؟ ولأ جل مَن؟ قد يتزوج إســلام غير ها وتبقى و حدك فى بوتقة العذاب، لن تُســامح نفســك يوماً على هذا الهروب، عُد إلى ذاتك، إلى عمرك، إلى عالمك!

تأخذ الطائرة دورتها فى ممر الإقلاع ، تبدأ فى الـصعود، تـصعد معها رويداً روح أميرة مودعة الحياة بكل ما فيها!

النهاية

The End

الفهرس